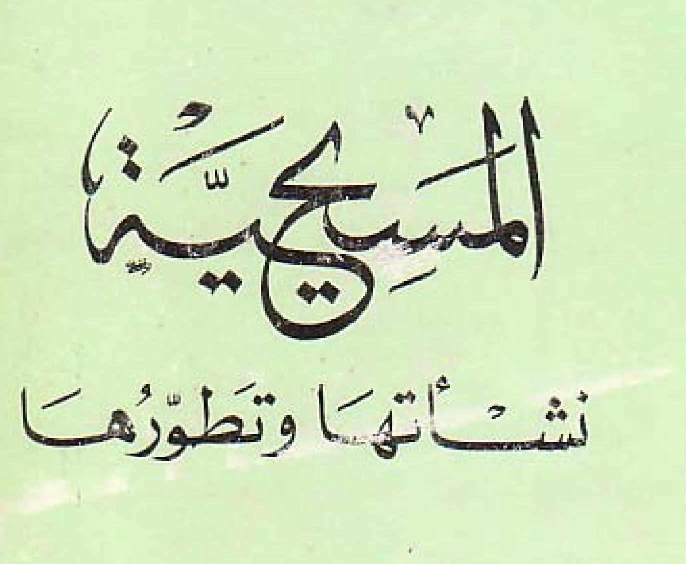
ترجمة الإمام الأكبر

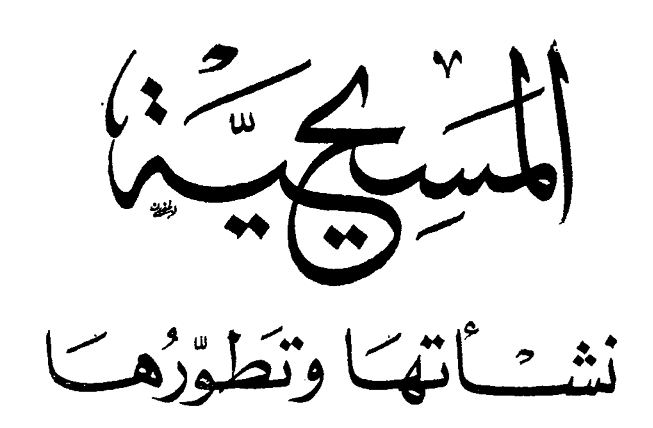
الدكتور عبد الحليم محمود

شيخ الإسلام





منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



تأليف

شارل جنيبير
استاذ المسيحيّة ورئيس قسم تاريخ الأديان
جامعة باريس

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

لا يعنيني سرورك بما شاهدت ، وانما يكفيني ان يكون ما شاهدت هو الحق .

فليس من هم العلم ان يستثير السرور او يبعث على عدم الرضى ، انه غريب عن العواطف البشرية .

وفي الشعر – لا في العلم – يكمن سحر الجمـــال والسلوى .

لذلك كان الشعر الزم للانسان من العلم .

(اناتول فرانس)

مقدمة
في
التعريف بالمؤلف وبالكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين .

ان مؤلف هذا الكتاب مسيحي :

لقد نشأ مسيحيا من أب مسيحي وأم مسيحية ،

ونشأ في بيئة مسيحية صميمة هي البيئة الريفية الفرنسية ، بيئة كاثوليكية متعصبة ، ونشأ المؤلف كاثوليكيا صميما ..

ليس في المؤلف عرق يهودي ، وليس فيه عرق عربي

وتعلم المؤلف في المدارس الفرنسية ، وانتهى به الامر الى نيل الدكتوراه وانتظم المؤلف في هيئة التدريس الجامعي :

لقد تخصص في تاريخ الاديان على وجه العموم ، ولكنه أخذ شيئا فشيئا يتعمق في المسيحية حتى أصبحت المسيحية تخصصه المتخصص .

ومن أجل المسيحية درس بعض اللغات كالعبرية واللاتينية ، ولكنه درس في عمق الجو الذي نشأت فيه المسيحية ، وهو الجو الديني العبري : أي المجتمع العبري والديانة اليهودية .

هذا المجتمع الذي نشأت فيه المسيحية ، ونشأ فيه السيد المسيح ، وقضى فيه حياته القصيرة نسبيا .

ولقد كتب المؤلف كتابا عن الجو اليهودي الذي نشأ فيه السيد المسيح كتب عنه روحيا واجتماعيا ، وهو كتاب ضخم فيما يقرب من ستمائة صحيفة بالخط الدقيق .

وأخذ المؤلف يرتقي في المناصب الجامعية شيئا فشيئا حتى وصل الى أستاذ تاريخ المسيحية في أكبر جامعة في فرنسا وهي جامعة باريس ، ثم وصل الى رئيس قسم تاريخ الأديان في الجامعة .

وكان اسمه يذيع عالميا ، فكان يدعى في مختلف الاقطار ليحاضر في المسيحية ، وفي آخر ما كشف عنه أو كشف في تاريخ المسيحية .

وأخذت كتبه تتوالى ، وانتاجه يروج وطبعات كتبه تستمر ، وكان قمة من قمم الفكر والتاريخ :

ذلك هو « شارل جنيبير » الذي مات بعد الحرب الكبرى الثانية .

والكتاب الذي نقدمه الآن هو كتاب في تاريخ المسيحية في القرون الاولى من تاريخها .

ولقد كتب المؤلف كتابا عن المسيحية في العصور الوسطى ، وآخر في تاريخ المسيحية في العصور الحديثة .

وهذا الكتاب ـ اذن ـ هو حلقة في كتاب عام

واذا كانت هذه الكتب ذات أهمية بالغة فأن الكتاب الذي بين أيدينا هو بالنسبة لنا أهمها ، لانه يصور لنا المسيحية في نشأتها :

كيف كانت ؟

كيف تطورت ؟

ما هي العوامل التي جعلتها تتطور ؟..

وهو حينما يتكلم أو يبحث في هذا الموضوع انما يتكلم فيه عالما من علماء التاريخ ، وليس عالما من علماء الدين : أي انه لا يتكلم باسم الايمان ، وانما يتكلم باسم المؤرخ ، وفرق بين وجهتي النظر :

ان الذي يتكلم باسم الايمان المسيحي فأنما يتكلم واقعا تحت عقيدة معينة ، ألفها ، وتعود عليها ، وشربها مع ماء البيئة ، وتنفسها مع هوائها ..

أنها ـ اذن ـ التي توجهه ، وتتحكم فيه ، وتقوده ..

أما المؤرخ فأنه يتجرد من كل ذلك ، ويدرس الموضوع بحسب الواقع التاريخي ، غير متأثر في أحكامه بالعقيدة المسيحية .

ودرس « شارل جنيبير » المسيحية دراسة المؤرخ : المؤرخ المتعمق الباحث في الآثار وفي مختلف المنابع التي تقوده الى الحق .

ووصل « شارل جنيبير » في نهاية دراسة بلغت نصف قرن الى نتائج اطمأن اليها .

هذه النتائج يتفق بعضها مع ما قرره القرآن :

وانه ليسعد المسلم أن يعلم أن المؤلف المسيحي قد وصل ببحثه المجرد الى ما قرره الاسلام في جوهر المسيحية وفي صميمها .

والواقع أن المسيحية ـ في وضعها الراهن ـ قد انهارت انهيارا تاما تحت قلم الكاتب .

واقصد بالمسيحية التي انهارت المسيحية التي انفصلت عن مسيحية المسيح عليه السلام لقد بين المؤلف ان مسيحية السيد المسيح كانت في غاية البساطة : لقد كان السيد المسيح يعلن التوحيد وكان يعلن أنه عبد الله ورسوله ، وكان يعلن أنه بعث لخراف بني اسرائيل الضالة ، وكان يعلن انه مجدد في رسالته بني اسرائيل . كانت رسالته قائمة على التوحيد وكان هم السيد المسيح ـ كل همه ـ ان يدعو الى الخلق الكريم ، أنه كان يدعو الى الرحمة والمحبة والتعاطف ولم يدخل قط في تفاصيل العقائد ، ولم يتحدث عن شريعة وكان يؤمن أنه نبي من أنبياء بني اسرائيل وكان أنبياء بني اسرائيل ـ فيما عدا موسى عليه السلام ـ لا شأن لهم بحديث عن عقيدة او عن تشريع : التوحيد وخلق كريم ، في ذلك يتلخص جوهر دعوة عيسى ، أما المسيحية الحاضرة بكل ما فيها من عقائد وطقوس وشعائر فأنها غريبة وبعيدة كل البعد عن رسالة السيد المسيح عليه السلام .

ولقد بين المؤلف ان المسيحية بدات الانفصال منذ أن دخلها القديس بولص . وبين المؤلف ان عقيدة بنوة المسيح انما هي عقيدة كانت أثرا لخطأ في ترجمة كلمة :

أنها كانت أثرا لخطأ في ترجمة كلمة « عبدالله » التي كان يقولها السيد المسيح كثيرا .

كيف تترجم : « عبدالله » ؟

وما كان أمام القديس بولص الا أن يترجمها بكلمة « طفل » أو بكلمة : « خـادم » .

أيترجمها بكلمة « طفل » أم يترجمها بكلمة « خادم » ؟

واختار « بولص » ان يترجمها بكلمة : « طفل » . « طفل الله » ..

وكان لذلك تغيير هائل في المسيحية ، وفي الفكرة الدينية عن صورة الاله في الفلسفة عامة ، وفي الدين المسيحي خاصة .

أن الصورة عن الألوهية انما هي الصورة التي تتسم اتساما تامـا بالكمـال .

وهذه هي الصورة التي رسمها الفلاسفة المؤلهون : افلاطون وأرسطو وغيرهمـا .

والكامل لا يكون له أولاد !

انه لا يلد ، كما أنه لا يولد ، أو انه ليس في حاجة ـ لكماله ـ الى ولد .

ان ارادة الولد ـ حتى ولو لم يكن مولودا وانما هو مخلوق ـ انمـا هي نقص في الاله . هذه مسألة بالنسبة للوالد .

المسألة الثانية مسألة بالنسبة للابن : وهي انه على أي وضع تصورته يكون اما مولودا واما مخلوقا : فهو لا مناص قد سبقه عدم ، وأنه وجـد بعد عدم ، فلا يكون الها .

لماذا ؟ .. لانه حادث ، سواء أكان مولودا أم كان مخلوقا ؟

أنه ليس ـ مهما حاولت ـ كاملا .. ، .. ومهما أوتيت من عبقرية لتثبت ان المولود او المخلوق كامل كمال الاله فسوف تخفق اخفاقا كاملا .

والصورة الكاملة لله هي الصورة الدينية الموحي بها فيما قبـل المسيحية ، وهي الصورة الدينية التي صححها الاسلام ، فأعطى الصورة الصادقة التي انزلها الله سبحانه على رسوله ، والقرآن يتحدث عن عيسى عليه السلام باسم الواقع التاريخي الصادق ، ويتحدث عنه باسم المنطق ،

أما عن الواقع التاريخي فأنه يقول :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ..

ويقـول :

« وله من في السماوات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسجون الليل والنهار لا يفترون ، أم اتخذوا الهة من الارض هم ينشرون ، لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، أم اتخذوا من دونه الهـة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ، وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون ، وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهـم ولا يشفعون ، الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقـل منهـم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » . الانبياء ١٩ـ٢٩

ويقـول :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا ، تكاد السماوات ينفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ، ان دعوا للرحمن ولدا ، وما

ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا ، ان كل من في السماوات والارض الآتي الرحمن عبدا » .

وأما وجهة النظر المنطقية فمنها :

« قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الارض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ، قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » . يونس : ٦٨ ـ ٧٠ .

انه سبحانه غني ،أنه غني غنى مطلقا ، وهذا الذي يسعى وراء الولد، او يتخذه ، أو يتبناه ، أو ، أو ... انما هو الفقير ، وهو المحتاج : في العواطف ، في الاعمال ، في التصريف ...

ولكن الله هو الغني سبحانه :

ويقول سبحانه :

« ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » و « سبحانه » هنا في غاية الجمال ، أي ، تنزه عن ذلك وتعالى عنه مريم : ٣٥ ، فهو الله اذا أراد أمرا كان ما أراد .

انه سبحانه يريد فيكون ما أراد ، وهو لذلك في غنى عن مساعد معه أو معين .

وهكذا صحح الاسلام صورة الاله التي كادت المسيحية ان تطمس حقيقتها ، والتي ما زالت تحاول طمسها .

ونفى المؤلف عن المسيح عليه السلام القول بالتثليث : هذا القول الذي لا يفهمه المسيحيون أنفسهم ، ولا يفهمه كل من له عقل .

ان الثلاثة ليست واحدا كما يقولون ، وان الواحد ليس ثلاثة كما يقولون ، وأي عقل يمكنه ان يفهم ان الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ..

ولقد سمعت مرة ـ وكدت أن لا أصدق أذني ـ بطريرك أقباط مصر عند تتويجه يقول عن السيد المسيح عليه السلام :

« يجلس عن يمين أبيه على العرش ، وهما واحد »

أهذا قول عاقل ؟

وسمعته في حفلة تتويجه يقول عن السيد المسيح أيضا :

« مولود غير مخلوق »

أهذا أيضا قول عاقل ؟ ..

ويقول القديس أوغسطين مبررا كل هذا اللامفهوم بلا مفهوم جديد ، انه يقول :

« أومن بالمسيحية لانها دين غير معقول »

وانه حقيقة دين غير معقول ..

أتعقل أن ينقلب الخبز الى جسد المسيح ، والخمر الى دم المسيح ، فاذا أكلت الخبز وشربت الخمر حل فيك جسد المسيح ودمه واتحدت به ؟

ان هذا غير معقول ، ولكنه عقيدة مسيحية ..

ويتحدث أناتول فرانس في حكمته الساخرة عن هذه العقيدة المسيحية ، ثم يقول : ان أحد الرهبان ذهب الى مخزن الدقيق ليحضر منه مقدارا يصنعه خبزا استعدادا لتوزيعه في العشاء الرباني ، ونظر الراهب في الدقيق فوجد فيه بعض الاثار الحمراء ، فأخذ يقدس الرب بصوت مرتفع وهو فرح مغتبط حيث ظهر دم السيد المسيح في الدقيق قبل ان

يصنع خبزا ، والتف حوله القساوسة والرهبان ليشاهدوا المعجزة الربانية، وأقاموا طقوسهم فرحين مستبشرين ، ولكن ... دم الاله كان مجموعات من السوس تبينها الراهب من بعد ، فأخفى الامر ولم يبح بسره الا لافراد انتشر منهم لغيرهم ، ثم عرف الامر وذاع ..

ولقد نفى المؤلف عن السيد المسيح الاعتقاد بأن رسالته ستتطور هذا التطور الذي أصبحت له طقوس وشعائر وكنيسة وقساوسة ورهبان ، وكل ذلك يتحدث عنه بقلم المؤرخ الذي لا يرى الا النصوص والوثائق ..

واذا انتفت عقيدة البنوة ، وعقيدة التثليث ، عن المسيحية الحاضرة فقد انتهت تماما .

ولقد طبع هذا الكتاب في فرنسا ونشر بها .

بل لقد كان المؤلف يدرسه في جامعة السوربون ، ويؤدي فيه الطلبة امتحانا .

والغريب في أمر الناس ان دينا كهذا يستمر ويبقى وينتشر ويجد من يقوم بالتبشير به ، ولكنه الالف والعادة والتشبع بهذا الدين مع اللبن من ثدي الأم ، ومع الام ذاهبة بالطفل الى الكنيسة وعائدة به منها ..

ولكنك اذا تحدثت عن عقائد هذا الدين لعاقل ما كان يعرفها من قبل ثم دعوته للايمان به قال لك من غير شك :

انتظر حتى الغي عقلي ثم أنت وما تريد :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا أو لو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (١) .

« واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه أباءنا او لو كان اباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » (٢) .

والآن ننقل للقارىء الكريم بعض النصوص عن المؤلف ، حتى نقدمها اليه من الاول مباشرة ، ثم يقرؤها في الكتاب في مكانها من السابق بها واللاحق :

« وتصفح الاناجيل وحده يكفي لاقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا الى « تركيبات » واضحة التعارض لنفس الاحداث والاحاديث ، مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ولم يستلهموا تاريخا ثابتا يفرض تسلسل حوادثه عليهم ، بل على العكس من ذلك : اتبع كل هواه وخطته الخاصة في تنسيق وترتيب مؤلفه .

ولا شك أيضا في أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحياة المسيح : فلم يكن عملهم اذن سوى ان يربطوا – في كثير أو قليل من المهارة – بين أطراف من المرويات ، وان يشكلوا منها سيرة افتقرت الى الوحدة الحقيقية ، كما ان عناصرها تبدو مجموعة في اطار مصطنع .

---

١) البقرة : ١٧٠

٢) المائدة : ١٠٤

وانا لنلحظ في ثنايا هذه السيرة الانجيلية نقصا كثيرا وفجوات خطيرة، نلحظها حتى في انجيل مرقس الذي بلغ به الحرص ان تحاشي الحديث عن مولد عيسى وطفولته » ويقول :

« ان عيسى بدعوته انما كان يجدد تلك السلسلة من أنبياء بني اسرائيل التي انقطعت بعد العودة من المنفى والتي حاول ان يصل حلقاتها من قبله ـ أنبياء آخرون منهم المعمدان .

فقيامه بالدعوة ـ مهما بدا أول الامر أصيلا مبتكرا ـ ليس في الواقع ظاهرة استثنائية أو غريبة من ناحية الشكل » .

ويقول :

« ولم يقل عن نفسه انه « ابن الله » ، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل ـ بالنسبة الى اليهود ـ سوى خطأ لغوي فاحش وضرب من ضروب السفه في الدين .

كذلك لا يسمح لنا أي نص من نصوص الاناجيل باطلاق تعبير « ابن الله » على عيسى ، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، انها اللغة التي استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الانجيل الرابع ، وقد وجدا فيها معاني عميقة وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة اليهما » (١) .

ويقول :

« وهكذا فأن النصوص لا تقدم الينا الخبر اليقين فيما يتعلق بتفكير عيس الخاص بمبادىء رسالته ، وبصفات شخصيته ، وبمدى دوره الذي لعبه . الا أننا لا بد أن نقر واقعا واضحا للعيان ، وهو : أنه لم ينجح في دعوته ، وأن مواطنيه من أهل فلسطين لم يصدقوا بالرسالة التي نسبها الى نفسه ، ولم يسيروا على نهج الاخلاق التي اراد ان يوحي بها اليهم ...

لقد راقبوا مروره بينهم خلال الفترة الوجيزة التي أتيح له أن يظهر فيها (٢) ،راقبوه في شيء من الفضول ، أو من اللامبالاة ، ولكنهم لم يتبعوه.

ولعله ـ وهذا أكثر ما يمكن ان يقدر له من نصيب في النجاح ـ قد جذب الى دعوته بضع مئات من أهل الجليل السذج : فالاناجيل عندما

---

(١) يمكن لليهودي أن يعتبر نفسه « عبدا ليهوه « لا » ابنا ليهوه ، ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون عيسى قد تصور نفسه « عبد الله » وتقدم للناس بهذه الصفة .

والكلمة العبرية « عبد » كثيرا ما تترجم الى اليونانية بكلمة تعني « خادما » و « طفلا » على حد سواء .

وتطور كلمة « طفل » الى كلمة « ابن » ليس بالامر العسير . ولكن مفهوم « ابن الله » . نبع من العالم الفكري اليوناني » .

المؤلف

(٢) يجب ان لا نعتمد في حسابنا لحياة عيسى كنبي على التقديرات التي يوحي بها الانجيل الرابع والتي بمقتضاها تكون حياته العامة قد امتدت ثلاث سنوات . ان فترة الدعوة في حياة عيسى اقتصرت بالتأكيد على بضعة أشهر أو حتى على بضعة أسابيع ، والتقديرات الدقيقة غير متوفرة .

تصف لنا جماهير الشعب وهي تقتفي خطاه في تلهف ، وتنصت الى احاديثه في اعجاب بالغ ، هذه الاناجيل لاتنسينا ما ترسمه صفحاتها الاخرى ـ في صورة لا شك انها اقرب الى الحقيقة ـ من قسوة قلوب اليهود وتعنتهم الشديـــد .

والواقع أن عيسى نفسه قد يئس ، فيما يبدو من محاولة اقناعهم . وأسباب فشله واضحة للعيان » .

ويقـــول :

« لذلك كله نستطيع وصف بولس بأنه كان : « منشىء المستقبل » .

ونقـــول :

« ان موت عيسى في نظر الاثني عشر : ليس بالتضحية التكفيريـــة ، اما عند بولس فنعم ، وفي عقيدته : أن المسيح مات من أجل خطايا البشر .

ولم يكن الاثنا عشر ليوافقوا على نعت عيسى بـ « ابن الله » مكتفين بتعبير « خادم الله » ، أما عند بولس فلقب « ابـــن اللـــه » لقب كثـير الاستعمال بالنسبة الى عيسى » .

« اذا تأملنا الكنيسة المسيحية في مقتبل القرن الرابع ، فأنه يتعذر علينا أن نجد فيها صورة من صور مجتمع الحواريين ، أو ـ اذا اردنا الحق: فأنه يستحيل علينا ذلك » .

ويقـــول :

« أن المسيح لم ينشىء الكنيسة ولم يردها .

ولعل هذه القضية أكثر الامور المحققة ثبوتا لدى اي باحث يدرس النصوص الانجيلية في غير ما تحيز ، بل اننا نؤكد ايضا ان الفرض العكسي لا يمكن ان يوجدله سند تاريخي مقبول » .

ويقول :

ولنتأمل قليلا في أمر مسيحية القرون الوسطى :

كانت دينا يبغي العالمية ويتخذ الحرب وسيلة لها ، دينا متعصبا ، شديد التعصب ، لا يقبل ـ بالنسبة الى العالـم الخارجـي ـ انصاف الحلول ، ويخشاه اليهود خاصة .

وكانت ملتقى لعدد عديد من العقائد التي لا يستسيغها المنطق ، ومن الطقوس الدقيقة المتشعبة التي حملت قدرا وافرا من رموز السريـــة والفعالية ..

ويقـــول :

المسيحية في القرون الوسطى ؟ عندما نتأملها ، ثم نقارن حالها بدين نبي اقليم الجليل ، ذلك النبي المتواضع ، الرقيق الخلق ، الذي زعم أن رسالته هي فقط تبشير اخوته في الله بالنبأ الطيب : نبأ حلول مملكة الله ، وحثهم على اعداد العدة لها بمكارم الاخلاق ، دين عيسى الذي تسامت تقواه الى اله اجداده في تطلع بنوي مطمئن .

لا نجد رابطة تذكر بين هذا وذاك .

فباسم المسيح ، يبدو أن حياة الوثنية كلها ، سواء في ميدان الفلسفة أو الدين ، وبكل ما انطوت عليه من تناقضات وفوضى ، وقد دبت فيهـــا

الحياة من جديد ، فنشطت وانتصرت على دين الروح والحق الذي بشر به وعاشه الاستاذ اليهودي ..

ويقـــول :

ومع ذلك ، فالحقيقة الثابتة التي لا جدال فيها هي أن الكنيسة لم تتمكن من الانتصار خلال القرن الرابع الا بفضل انهزام الايمان الاول الذي يمكن ان نسميه بايمان الاثنا عشر .

ويقـــول :

انهزمت المسيحية الاولى في الصراع الروحي الذي خاضته مع الحياة ، وقبلت الكنيسة ، في الواقع ، هذا الانهزام ، واعتمدته ، مكتفية بأن تحول الى موضوع للتأمل الديني لدى المؤمنين تلك المثل التي كانت تنطوي في البداية على جوهر الايمان ، والتي كانت هي علة الايمان الاولى ..

وفي نهاية الكتاب ــ كتعبير عن جوهره ــ يقول المؤلف :

نستطيع القول ــ دون ان نتهم بالبحث عن المتناقضات او السير وراء كل غريب من الآراء ــ بأن الغربيين لم يفهموا العقائد المسيحية في العصور اللاحقة ، وان الديانة التي انشأوها على أساس منها ــ باجتهادهم الخاص ــ كانت ديانة مختلفة تمام الاختلاف في روحها وجوهرها ، عن المسيحية الشرقية، ديانة مختلفة نبعت قبل كل شيء من رصيدهم الفكري والروحي ، متمشية مع عواطفهم ونزعاتهم ، وان صبت في قوالب تعبيرية لا توافقها تمام الموافقة .

وخلاصة : فأن الغربيين لم يكونوا قط مسيحيين في يوم من الايام ..

وفي نهاية هذه المقدمة نقول مع القرآن الكريم :

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهـاب » (١) .

---

(١) آل عمـران : ٨



تمهيد

أ ــ لماذا لم تحقق دراسة تاريخ المسيحية التقدم المرجو لها ــ اسباب خارجية وعلل ذاتية ــ النقص في مصادر التحقيق والخطأ القديم في عرض المسائل ــ الفوضى التي جلبها أهل الجدل والمتعصبون ــ نظريات حديثة .

ب ــ صورة عامة للمسيحية من وجهة نظر المؤرخ .

ــ أ ــ

نستطيع اليوم ان نسجل الدراسات النقدية لأصول المسيحية ولتطور الكنيسة ، في سجل العلوم التاريخية . ولكن هذه الدراسات لم تحرز من التقدم ما قد يخيل الينا أنها أحرزته ان اكتفينا باحصاء الكتب التي ألفت والتي يزداد عددها يوما بعد يوم . وهي كذلك لم تصل في بعض نتائج تحقيقاتها الى تلك المرتبة من النجاح والوثوق ، التي ارتفعت اليها بعض العلوم التاريخية الأخرى . وكان هذا سببا من الاسباب التي ما زالت تدفع بالكثير من المثقفين وبجمهور القراء أو المستمعين ، الى مواجهتها بقدر موفور من الريب ، بل تدفعهم الى ما هو أخطر من ذلك ، الى اللامبالاة .

واذا كان هذا الموقف ــ موقف الريب أو اللامبالاة ــ عديم الأهمية او يكاد في البلاد البروتستانتية التربية ، الجرمانية الثقافة ، فأنه في البلاد ذات التقاليد الكاثوليكية والروح اللاتيني ، بشكل عقبة كئودا صماء ، يعسر التغلب عليها ، ويتلاشى أمامها كالهباء الكثير من الجهد والوقت .

ولكننا رغم ذلك نستطيع ان نؤكد بأن علم تاريخ المسيحية ليس مسئولا وحده عن تأخره ، وأنه بذل جهدا كبيرا ليلحق بركب التطور ،

وأنه اليوم قد وصل الى نتائج هامة في سائر المجالات ، والى براهين أصيلة في المواضيع الأساسية •

ولقد ظل المدخل الى معرفة المسيحية الأولى ــ حتى منتصف القرن التاسع عشر ــ محرما تحريما باتا على العلماء المنزهين من الغرض ، اي على هؤلاء الذين لا يعنيهم استغلال الحقيقة لمصلحة مذهب معين ، بل يبغونها خالصة لوجهها • وكان الرأي العام يؤمن بأن دراسة تاريخ المسيحية انما هي الساحة التي لا يجول فيها الا رجال الكنيسة وأهل اللاهوت • وكان يؤمن بأنها لازمة من لوازم الدفاع عن المسيحية ، او ــ في تعبير أكثر دقة ــ صورة من صور هذا الدفاع ، ولم يخرج الرأي العام في ايمانه هذا عن جادة الصواب ، فتاريخ المسيحية لم يكن سوى هذا أو ذاك [1] • وقد خبر الناس ، منذ عصر الاصلاح الديني ، أساليب فقهاء الجدل من البروتستانت أو الكاثوليك : يغترفون اغترافا من موارد النصوص القديمة التي لا تنفذ والتي يجد فيها كل فريق ما يروقه من الأدلة والبراهين•وفي القرن الثامن عشر نرى أعداء الكنيسةالكاثوليكية، من رجال السياسة ومن الفلاسفة ، الذين يحكمون على عقائدها بالتهافت ، يتأسون بخطى أهل الجدل البروتستانتي في نقدها وينهجون مناهجهم الجدلية أحيانا • ولكنهم في نقدهم في كلتا الحالتين لم يتنزهوا عن أن يكونوا مغرضين ، ولم تتميز كتب أولائك عن رسائل هؤلاء الا في المزاج والأهداف •

وخلاصة القول هي أن المفكر المنصف في بداية القرن التاسع عشر لم يكن يرى ، في غالب الامر ، بين الباحثين في تاريخ المسيحية ، الا شاد بالكنيسة المسيحية مثنيا عليها أو ساع لهدمها • ولم يكن له ، في غالب الأمر أيضا ، سوى أن يحكم على دراسة تاريخ المسيحية بأنها لا تفيد الا

---

(١) مهدت دراسات الفحول من بحاثة القرنين السادس عشر والسابع عشر أمثال توماسان وتيومون ومابيون ورونار وريشار سيمون ــ لكتابة تاريخ المسيحية الصحيح ، اذ فرضت مبادىء للبحث وحققت امثلة معينة من المسائل المختلف عليها. ولكنها في حد ذاتها لا تكون تاريخا كاملا صحيحا للمسيحيــة •

في تحقيق غرض من هذين • ومن تلك الفكرة نشأت مواقف دينية ثلاثة اتسمت جميعا بروح الحذر الشديد تجاه هذه الدراسات ، وان اختلفت باختلاف العقائد السابقة لكل فريق :

١ ــ : فريق يمثل الجهلاء والبسطاء ، ويبقى تحت التأثير الاول للتربية المسيحية التي قبلها أو اضطر اليها بادىء ذي بدء ، لا يجادل فيها بل ولا يشغل فكره بها ، خاضعا في سذاجة لما افترض من محرمات ، متجنبا تلك الأبحاث التي رأى أن تعاليم الكنيسة تغني عنها وتنهي عن قراءتها ، مؤمنا بأن الإقدام عليها رجز من عمل الشيطان يؤدي بالنفس الى التهلكة •

٢ ــ وفريق اتجه الى الشك،ليطبع في النفس ، أو اتجه الى الشك حيث دفعه اليه منطق سطحي متهافت ، فجدد قول شيشرون من : أن الدين ·احة لازمة للشعوب ، تقمع جماح الشهوات وتضمن حياة الأخلاق وأن المساس بأسس الكنيسة انما هو مساس بأسس المجتمع القويم ، وراح يعلن هذه الفكرة كمبدأ فرض لا جدال فيه •

٣ ــ وفريق ثالث أخيرمن أصحاب الفكر الكسول، أو المتعلق بتبسيط الامور ، ينزعون الى تصور الأديان جميعا في صورة تنظيم متشعب الأطراف للدجل والاستغلال ، يديره دهاة الكنائس من القسس • وهؤلاء لا يرون في المسيحية شيئا يستحق أكثر من الهزء والسخرية •

لم لا نعترف بالواقع ؟ •• ان جمهور الناس في البلاد اللاتينية لا يزال يعلل بهذه النظريات اغراضه عن دراسة أصول المسيحية والكنيسة وجهله بمناهجها وبالمسائل التي تثيرها والنتائج التي تحققها • ولا يزال موقف الهيئات المشرفة على التعليم يقوم حافزا على سوء الظن بهذه الدراسات • ففي فرنسا ، مثلا ، لا نجد سوى جامعات ثلاث فيها كراسي لتدريس التاريخ المسيحي • ولا يغرنا كثرة المستمعين الى الأساتذة المعينين لها ، فالطلاب المنتظمون أقلية قليلة • ولا يمكن ان يتطور الامر الا بتطور الافكار السائدة في التعليم الثانوي ، فشبابنا يصل الى المرحلة الجامعية ولم ينبه تنبيها كافيا الى أهمية تلك المسائل التي وان كانت تفرضها البرامج الدراسية ويحتمها الحياد العلمي فأن اتجاهات السلطات

الرسمية والرغبات العامة لدى الاساتذة تؤدي الى محاولة التستر عليها، لا الى بحثهـــا •

والحق يقال : إن الواقع الذي تنطوي عليه دراسة تاريخ المسيحية، مسئول هو الآخر عن تأخرها • فهي لا تنتظم الا بالتغلب على عقبـات عديدة تقتضي بذل جهود مضنية من شأنها أن تدفع بالكثيرين الى اليأس• وهي ، فضلا عن ذلك ، لا تغري المبتدئين بمظهر شائق خلاب ، بـل ان عبوس اساليبها ، وترددها وشكوكها في مواضيع كثيرة ، ثم حذرهـا الشديد من البراهين والنتائج ، كل ذلك يدفع الى تجنبها ويبعد عنهـا هؤلاء الذين تبهرهم الاحكام الوضعية للعلوم المادية ــ وعلى رسلهـم أولئك الذين لا يصبرون على الجد وعمق البحث •

وأول الصعاب التي تعترضها ، نجدها في النصوص نفسها ، التـي تمتاز عن سائر النصوص الاخرى بضعف السند ، وبالاضطراب ، وعسر التحقيق • وأقدم هذه النصوص وأهمها ــ لانها تتنـاول حياة المسيح والزمن الأول للعقيدة ــ هي تلك التي احتواها « العهد الجديد » ، والتي استلزمت ، قبل امكان الاعتماد عليها ، تحقيقا نقديا دقيقا مطولا لم يوشك بعد على الانتهاء • ولم يكن في المقدور ، لفترة طويلة مـن الـزمن ان نستخرج العناصر والاسانيد الا منها ، بحيث اضطر المفسرون ــ من أجل تفهمها ــ الى ترتيب المعاني وتهيئة الحواشي والتعليقات ، ولجـأوا ــ حينما أرادوا التسامي بالفكر فوق النصوص ــ الى النظريات والفروض• ويا لها من ضرورة مؤسفة ما زال هؤلاء المفسرون يخضعون لامتحانها في الكثير من الظروف ، بل نرى فئة كبيرة منهم تقبلهـا راضية قـارة العين ! ••• وقد يحدث أحيانا ، والتحقيق النقدي في طريقه الى الاثمار، أن تكتشف وثائق قاطعة في المعاني المختلف عليها ، أو تظهر نظريـات وآراء جديدة لها وجاهتها ، فيعود الباحث من حيث بدأ ، مقيما عملـه النقدي على أسس مختلفة • فـلا نستطيع أن نقول إن العرض النظري العام للمشاكل العديدة الخاصة بالاناجيل الثلاثة الاولى ، قـد تغيرت اتجاهاته منذ خمسة عشر عاما على التقريب • وتجددت مشكلة القديس بولس • والانجيل الرابع نفسه الذي ظن ان مشكلته حلت نهائيا ، قد

تغيرت وجهات النظر المعتلقة به • ان هذا التردد ، وهذا التخبط النقدي الذي يسهل أن نأتي منه بأمثلة لا حصر لها ، ثم هـذا التطور المستمر لوجهات النظر والمذاهب ، ليس له من مرجع سوى علة واحدة ، وهي أننا لا يمكن أن نخلص من الوثائق وحدها الى تاريخ متكامل منسجم لاصول المسيحية • فمن هذه الوثائق لم يتبق لنا الا فتات يكثر الشك في البناء المؤسس عليه •

وحتى ان خرجنا من الأجيال الاولى للايمان ، فاننا نجد أنفسنا أمام عهد قد أظلم الكثير من جوانبه : ذلك هو الذي يشمل القرون : الثانـي والثالث والرابع للمسيحية ، والذي تكونت فيه العقيدة الارثوذكسية واستقرت النظم الكنسية وانتظمت الطقوس الدينية • ان النصوص التي تتعلق به تبعد في غالب الأمر عن الحياد والموضوعية ، وهي على أي حال ليست من الكثرة بحيث تسمح بالمقارنة والمقابلة الا فيما ندر من المسائل •

وفي القرن الرابع ، وهو عصر انتصار الكنيسة ، كتب الكثير عنها أوضدها ، كتبه أعداوءها من المشركين أو من انصار الفرق المختلفة • ولكن أغلب هذه التآليف قد اندثر وضاع ، ولم يبق منها سوى النذر اليسير الذي لا يدل الا على عظم الخدمات التي كان يمكن أن تؤديها لو حفظت لنا • ان التاريخ المسيحي خلال هذه القرون الثلاث التي تكونت فيها الكنيسة ـ اذا قورن بأي فرع من فروع التاريخ العام في الفتـرة عينها ـ لا يحظى الا بأدنى نصيب من الأسس المكتوبة الثابتة : فهـو يقتصر في غالب الأمر على دراسة مؤلفات أهل الجدل أو الأنصار المتعصبين معتمدا على تصحيحها بروايات مشكوك في أمرها ، تريـد أن تكـون تاريخية ، ولكنها في الواقع قد حررت في عهود تبعد كثيرا عن الاحداث التي تتناولها والتي لا يكاد الناس يفهمون تسلسلها •

وهو أيضا ، اذا ما تحول الى البحوث الدينية ، لا يجد سوى تلك الرسائل التي تعبر عن رأي الاقلية من الفقهاء لا عن روح العقيدة الحية لدى الطبقات المختلفة من المؤمنين البسطاء • ثم هو ، عندما يريد ان يلجأ الى الآثار ، لا يجد من النصوص المنقوشة الا ما غمضت معانيه وافتقرت دلائله الى المزيد من الاثبات وكأن أصحاب هذه النقوش قد تفننوا فـي

الغموض والايجاز • يجب علينا أن نذكر كل هذه الحقائق دائما ان أردنا الانصاف • بل أن ذكرها أمر محتم علينا : فتاريخ المسيحية القديمة لا يشكو فحسب من الصعوبات التي يعانيها مثله تاريخ العصور الرومانية والاغريقية ، بل هو بالاضافة اليها كلها يتعثر أمام عقبات أخرى كثيرة خاصة بـه •

ومن ناحية أخرى يجب علينا الاقرار بأن فقهاء ومؤرخي المسيحية الاولى كثيرا ما أضاعوا الوقت والجهد في بحث مسائل تفتقر أولا الى العرض الصحيح • وبلغ منهم الخيال مبلغا مثيرا ، فظنوا مثلا انه يمكنهم أن يستخلصوا من مجموعات النصوص المسيحية وحدها كل ما يحتاج اليه الكاتب لتصوير عصور الكنيسة الاولى تصويرا كاملا دقيقا• والواقع الذي قد يدركه هؤلاء العلماء أو قد يسهون عنه ، هو أن تلك المحاولة للاعتماد على النصوص المسيحية وحدها نشأت من أصول عقائدية راسخة في نفوسهم : فهم لم يصلوا الى حمل عقولهم على النظر الى المسيحية باعتبارها احدى الديانات الانسانية ، بل أرادوا أن يحتفظوا لها بميزة أصيلة تفرق بينها وبين تلك الديانات • وتعليل ارادتهم هذه يعود بنا في نواح كثيرة منه الى الغرض الديني للوحي •

والرأي المتفق عليه عامة هو أنه للوصول الى فهم مبدأ المسيحية و « جوهرها » ، والى ادراك الاسباب التي نشأت منها، لا يكفي استيعاب المراجع المسيحية والتحقيق المدقق في التفكير الديني والاخلاقي الاجتماعي بين أرجاء العالم اليوناني الروماني ، حيث انبثق الايمان ونما وتطور ، بل ان سر نشأة هذا الدين وطبيعته الأولى ، يجب الرجوع في دراسة جوانب كثيرة منهما الى حضارات سوريا وآسيا الصغرى ومصر وكذلك بلاد ما بين النهرين وكل هذه البيئة الشرقية التي ظهر فيها بادىء ذي بدء ثم وجد العناصر الاولى للحياة والانتشار •

والدراسات الوافية التي تتم في أيامنا هذه للنصوص المنقوشة وللوثائق التي يحملها الينا الخزف أو اوراق البردي ، أصبحت تضيء جوانب كانت مجهولة من فقه « العهد الجديد » ، ومن أخلاق وتقاليد وعادات دينية اختصت بها تلك الشعوب التي كتب الكتاب (العهد

الجديد) بواسطتها وكتب من أجلها • وان تقدم علوم الآثار الشرقية ليؤدي الى عين النتيجة •

ومن جانب آخر ، نرى المتعصبين وأهل الجدل لا ينكفون عن النضال • فالفريق الاول لم يكتف بأن يبذل قصارى جهده لكي يبث وينمي في أذهان المستمعين الى حججه — وهم جمع غفير — الايمان بأن الباحثين الاحرار انما هم اعداء الدين الذين يزداد خطرهم كلما ازداد ادعاؤهم الاخلاص وعدم التحزب • لم يكتف الفريق الاول بهذا ، بل أنشأ أهله ، في المدارس التي يشرفون عليها وفي الكتب التي يصدرونها ، تاريخا جديدا للمسيحية يقاومون به النقد الموجه اليها •أي أنهم يتظاهرون بتبني مناهج النقد العلمي دون تحفظ ، ولكنهم يطبقونها بوسائلهم الخاصة ، وبحيث تؤدي بهم دائما — ويا للمعجزة — الى تنائج لا تخرج عن فروض السنن الموروثة : والغافل عن الحقيقة لا يميز في الامر شيئا • وكذلك أهل الجدل المعادين للكنيسة يفسرون لصالحهم تحقيقات العلماء، ولا سبيل الى دفعهم عن ذلك • والجانب الخاسر في كلتا الحالتين هو علم المسيحية ذاته ، الذي يفقد من تقدير الجمهور ، بل ويتعرض لفتن كثيرة خطيرة • ولا أدل على ذلك من تردد التعبير الشعبي القديم الذي يقول في غير ما اهتمام : « كل هذا من شأن القسس وحدهم » ، أو : « من شأن أعداء القسس » • ولكن الحكيم لا يعجب لهذه الظاهرة أكثر مما يجب • فهو يعلم أن القضاء على القشور الكاذبة لا سبيل اليه في طرفة عين ، بل يستلزم الصبر والجهد •

ان ما سبق توضيحه ينطبق أكثر ما ينطبق على دراسة تاريخ المسيحية القديم • بيد أن تاريخ الكنيسة ، سواء في العصر الوسيط أو في الازمنة الحديثة والفترة الحاضرة ، يتعرض لعقبات لا تقل عن تلك خطورة ، وان كانت تختلف عنها شيئا ما • فالنصوص ، رغم وفرتها ووضوحها النسبي في غالب الامر ، يتعذر جمعها لتشتيتها في جهات لا حصر لها • والملاحظ أنه كلما احتوت هذه النصوص على مفهوم يهم الباحث ، أو كلما وجد فيها العالم ما من شأنه أن يطور الرأي الذي يحاول تكوينه عن الكنيسة المعاصرة — سواء كان في ذلك خيرا لها أو هدما —

كلما ثارت الاهواء وسارعت الاحزاب تحاول استخدام هذه النصوص في أغراضها ، بحيث يتعذر أحيانا ، بعد فترة قصيرة ، أن نميز ونحدد مغزاها الحقيقي ومدى ما يحمله من مفاهيم • ويكفي لتوضيح هذا أن تتأمل قليلا في الجدل الذي ثار حول الكثير من الموضوعات الهامة ، التي نذكر منها على سبيل المثال وفي غير ما ترتيب : مسألة الرهبنة ، محاكم التفتيش ، أسباب الاصلاح الديني ، شخصية لوثر ، روح وسلوك البابوات في عصور مختلفة ، التفسير النسبي للذنوب ، جماعة اليسوعيين، قائمة الخطايا التي وضعها البابا بيوس التاسع ، نظرية تنزيه البابا عن الخطأ ، سياسة البابا بيوس العاشر •••

الا أن الزمن ، مع مثابرة العلماء ، كفيل بازالة كل هذه الصعاب التي تعترض طريق التحقيق الصحيح • والحقيقة تتكشف شيئا فشيئا وتنجلي عنها عواصف الجدل ، فتنفرض نفسها على الناس جميعا •••

ولكن دراسة تاريخ المسيحية لم تصل بعد الى تلك المرحلة الخصبة التي تتسم بالروح العلمية البحتة والتي لا يرجو فيها الباحث سوى الوصول الى الحقائق وتحليلها التحليل الصحيح ، ولا يهدف من ورائها الى غرض سوى اضافة شيء جديد الى علمه • وهناك ظاهرتان ما زالتا واضحتينفيما يختص بتلك الدراسات وهما : البطء البطيء الذي تسير به في تشييد الصرح العلمي لتاريخ المسيحية ، ثم ذلك الروح العام من اللامبالاة أو الشك الذي نجده تجاهها ، وخاصة في البلاد اللاتينية حيث يجهلها أكثر المثقفين جهلا مطبقا يؤسف له • فاذا ما بحثنا عن الأسباب المتآزرة في خلق وتثبيت هاتين الظاهرتين ، وجدناها في عوامل نستطيع أن نحصي منها الكثير : فمن أفكار ثابتة موروثة تضع نطاقا من التحريم حول العديد من المسائل الدينية الهامة ؛ ومن أغراض ومصالح مختلفة ، سواء منها الدينية أو الاخلاقية والسياسية والاجتماعية ، تقف حجر عثرة أمام رغبات الباحثين ؛ الى خوف طبيعي من الانزلاق في خضم الجدل السقيم ، ذلك الجدل الذي لا يمكن وصفه بالاخلاص ؛ ثم العجز والشك الذي يعترف به كل عالم يستحق هذا الاسم في كثير من اليأس والمرارة ؛ والطمع العلمي الخطر ؛ والآراء السابقة لاوانها والقائمة

على غير أسس سديدة: مثل تلك التي تريد أثبات أن المسيح شخصية خيالية لم توجد بالمرة ؛ وتعارض النظريات ؛ وخصومات المفكرين ؛ وأخيرا : ضرورة الجهد المضني المستمر ، للوصول الى ادراك وتتبع كل تلك الابحاث المعقدة والبراهين الملتوية ...

ورغم هذا ، فالقارىء المنصف ، ان أراد تحقيق الامر ، لا يجد مناصا من الاعتراف بأن جهود الاجيال المختلفة من الباحثين لم تذهب سدى ، وبأنهم ـ على أقل تقدير ـ استطاعوا أن يصلوا بكل المشاكل الى بساط البحث العلمي الوضعي ، وبأن عدد المشاكل التي انتهوا فيها الى حلول يسمح منذ الان باستخلاص بعض النتائج العامة على أساس قوي سليم .

اننا لم نحط بكل شيء علما . واننا لا نستطيع حتى ادعاء تفسير كل النقاط الجوهرية في كثير من المسائل الخاصة بعلمنا . ولكنه أصبح في الامكان أن نحدد على الاقل الاتجاهات الاساسية في تطور المسيحية، وأن نبين المراحل الهامة من هذا التطور ونحلل العوامل الاصيلة فيه . وأصبح في امكاننا أيضا ، رغم تعذر الاعتماد على الحقائق الايجابية ـ أن ننفي ـ في غير تردد ـ الكثير من الاساطير المتوارثة التي أجهدت المؤرخين زمنا طويلا معلنين بطلانها .

وليست هذه النتائج بالتي يستهان بها .

ـ ب ـ

اذا ما نظرنا في غير تحزب الى نشأة المسيحية وتطورها ، تاركين جانبا كل ما يتعلق بعلمي اللاهوت وما وراء الطبيعة ، بل منصرفين تماما عن كل اتجاه الى ادراك مفاهيم اللاهوت وما وراء الطبيعة ، لوجدنا في هذه النشأة وذلك التطور ظاهرة تاريخية جماعية يمكن تحليلها فيما يلي :

ظهر باقليم الجليل ، خلال حكم الامبراطور تيبريوس ، شخص يدعى بيسوع الناصري ، وصار يتحدث ويعمل حديث وعمل الرسل اليهود ، معلنا قرب قيام مملكة الله ، وناصحا الناس بالخير حتى يجدوا لانفسهم الى هذه المملكة سبيلا وفي هذه المملكة مكانا . وقد جمع من

حوله بعض الانصار المخلصين • ولكن حادثا عنيفا انهى حياته فجأة • غير أن عمله لم ينته بانتهائه ، بل سار أتباعه على هداه • ثم نجده بعد فترة وجيزة يوضع في مكان الصدارة من مفهوم دين حقيقي كامل يمتد الى العالم اليوناني والروماني وينفصل في نفس الوقت عن الديانة اليهودية •

وتقوى دعائم هذا الدين الجديد شيئا فشيئا ، فيضم العدد العديد من الأتباع وينتهي الى اقلاق بال القائمين بأمر الامبراطورية الرومانية ، فيضطهدونه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقفوا في سبيل انتشاره • وينتظم الدين الجديد بعد ذلك في كنيسة تفرض سلطانها على مر الزمن ، فتحمل الامبراطورية — خلال حكم قسطنطين — على التسامح فيما يختص بشئونها، ثم تكسب الاباطرة الى جانبها ، ثم تحملهم على محاربة الوثنية • ونراها في نهاية القرن الرابع تسود — رسميا على الاقل — في الدولة الرومانية كلها • وانتصرت العقيدة المسيحية بعد ذلك في أوروبا وانتشرت في الارض جميعها •

وتلك النتائج التي حققها الدين الجديد ، تبدو لاول وهلة من الضخامة بمكان اذا قارناها بالحدود المتواضعة التي ظن أن يسوع أراد وضعها لرسالته • وهي أيضا تبدو من الضخامة بحيث لا يستطيع المسيحيون تفسيرها الا بردها الى ارادة الله الذي يبغي خلاص أبناء آدم • وبما أن يسوع هو الله — فيما ترى العقائد المسيحية — فالنتيجة الحتمية لذلك : أنه أراد ، وأنه — رغم تضارب الاحداث الظاهرة — نظّم مضمون الدين الكامل خلال وجوده على هذه الارض ، وأن الحياة المسيحية كلها ليست الا نموا ضروريا للمبادىء التي وضعها • وهكذا ، فان الكنيسة المسيحية وتأسيس وتطور المسيحية على مر الاجيال ينبعان خالصين من ارادته • أما السبب في اتخاذه صورة البشر ، وتحمله للآلام ثم موته ، فهو — فيما ترى الكنيسة — انشاء العقيدة الصحيحة • هذا اذا اقتصرنا على الظاهر ولم نتعرض لسر الفداء •

ولن نتعرض هنا للحذر الذي لا بد أن يعرب عنه كل مراقب غير متحيز ازاء أحداث هذا التاريخ هذا الحذر الذي يتلخص في ان التردد والتغيير والاصلاحات — طفيفة كانت أم متعمقة الى الاصول —

ثم الجدل والتفرق الى فرق والانقساما ت، كل تلك الظواهر التـــي اتسم بها تاريخ الكنيسة المسيحية ، لا تتفق كثيرا مع النظرية القائلة بوجود خطة محددة وضعها المؤسس الاول منذ البداية وسار عليها التاريخ دون انحراف •

فالعرض العام الذي خططناه بشأن نشأة ونمـــو وانتصار المسيحية لم يحسب من حساب الاحداث الا ظاهرها ، ولم يهدف الى تحليل كيانها الذاتي والى تفسيرها حقيقة • انه لم يبين منها سوى تسلسلها وترابطها من الناحية الزمنية ، غير مبال كثيرا بالتسلسل والترابط المنطقي •

وهناك مسائل كثيرة يجب وضعها على بساط البحث بشأن هذه الاحداث أو بشأن ترابطها وتسلسها • وهي مسائل أساسية تتعلق بمبدأ وجوهر المسيحية وبمعنى وتدبير التطور المسيحي • وتلك المسائل هـــي المادة الحقيقية التي تغذي تاريخ الكنيسة القديمة •

الفصل الأول

قيام عيسى بالدعوة

ا ـ الأصول اليهودية للمسيحية ـ عيسى الناصري : نقص المعلومات عنه ـ كيف ولماذا حلت أسطورته محل تاريخه ـ السنة وأصول الاناجيل ـ كيف وضعت هذه الاناجيل ـ كيف استطاع الايمان ان يتكفل بمواضع النقص فيها ـ كيف تبحث مشكلة قيام عيسى بالدعوة •

ب ـ البيئة التي خرج منها عيسى ـ البلد اليهودي والبلدان المجاورة : مادة دينية ضخمة متوفرة أمام الاتجاهات التأليفية المجددة ـ التربية اليهودية الكاملة لعيسى ـ العالم الفلسطيني في عهد هيرودوس الاكبر ـ « القسس » والعبادة ـ « الكتبة » والتشريعات الدينية ـ الشعب والدين الحي ـ ترقب المسيح خصائص اليهودية في اقليم الجليل •

جـ ـ أساس قيام عيسى بالدعوة : الامل في ظهور المسيح ـ علاقة عيسى بالمعمدان ـ موضوع أحاديثه : ظهور مملكة الله والتوبة ـ هل ظن أنه هو المسيح ؟ ـ معنى ومدى الاسماء التي تطلقها عليه الاناجيل : ابن الله ، ابن داوود ، ابن الانسان ـ عقبات مختلفة ومسائل تبدو صحيحة : عيسى النبي اليهودي •

ـ أ ـ

المسيحية اذن تنبع أساسا من حركة يهودية • وهي تبدو أولا ـ وعلى وجه التخصيص ـ كظاهرة تهم الحياة الدينية لليهود وتتميز بها البيئة الفلسطينية ، ولا يمكن تصور قيامها خارج نطاق العالم اليهودي • وقد بدأ بهذه الحركة ـ التي تعددت آثارها فيما بعد فأبانت عن خصوبتها ـ عيسى الناصري • ولا تعني كلمة الناصري في غالب

الظن « رجل الناصره » ولكن « الناظر » أي : « قديس الله » •

ولا أعتقد أنه يمكن التشكيك في وجوده على غرار ما يحاوله البعض حتى أيامنا هذه [1] • ولكننا متى ما أثبتنا وجوده التاريخي ، فاننا بذلك نضع انفسنا مباشرة في تيه من التاريخ كله ظلمات وشكوك • ولا أدل على ذلك من أن البحث الدقيق الذي دار في السنوات الاخيرة على أساس من الوثائق الاصيلة ، لم يثبت سوى استحالة تصوير حياة عيسى في شيء من اليقين والتثبت • ويجب علينا أن ننظر الى الكتب التي تدعي سرد سيرته على أنها مؤلفات تستند الى الكثير من التحكم والنزعات الذاتية • ونستطيع ادراك السبب في هذا الغموض من تخيل أحاسيس هؤلاء الرجال الذين استمعوا الى دعوة عيسى وآمنوا بها ثم هالهم وأيأسهم تعذيبه وصلبه ، وأعلنوا بعد ذلك بعثه • هؤلاء لم يشعروا البتة بالحاجة الى تدوين ذكرياتهم اورسم شعورهم عنه• انهم لم يفكروا في ان يكتبوا الى أجيال قادمة كانوا على يقين من أنها لن تأت • فالعالم ـ عالم الظلم والخطايا ولذات الجسد ـ كان ، في عقيدتهم ، وشيك النهاية • وكانوا يترقبون بين لحظة وأخرى توقف الحياة البشرية وظهور المسيح المنتصر في السماء •

ومن ناحية أخرى كان لا بد وأن ينعكس ايمانهم القوي على ذكرياتهم فيؤثر في صورها :

كانوا على يقين من أن عيسى الناصري هو المسيح الذي وعدت به اسرائيل ، وأنه يجلس الى جانب الرب في السماء ، مرتقبا الساعة • ودفعهم هذا اليقين الى البحث عن معان عميقة لمراحل حياته المتواضعة ونجاح دعوته المحدود وطريقة تعذيبه الوضيعة • ودفعهم كذلك الى أن يستخرجوا التعاليم والتنبؤات من أقل الحوادث والاحاديث شأنا ، وأن يطبقوا على أستاذهم كل نصوص التوراة التي قيل انها تتعلق برسول يهوه المبارك الموعود فيجدوا في حياته مصداق ما انبأت به هذه النصوص• وهكذا كان خيالهم ، بدافع التقوى ، يزين الاحداث ويصبغها في اطار

---

(١) انظر في هذا الصدد كتاب المؤلف (مشكلة عيسى) ، باريس ، سنة ١٩١٤ .

من التعليقات والاضافات التي يفرضها ايمانهم ــ بطريقة ما ــ وكأنها من لوازم سيرة عيسى ، وكأنها حقيقة لا شك فيها ، تبرز وتحدد طبيعته وعمله بوصفه النبي المنتظر . واسترسلوا في سذاجتهم وبساطة مشاعرهم ، فأصبحوا لا يفرقون بين الخيال والذكريات الحقيقية . ولقد خلطوا بينهما في تلك التعاليم التي نشروها من حولهم ، وأصبح أتباعهم لا يستطيعون التمييز ــ حتى ولو أرادوا ــ بين واقع الاحداث وما أضفاه عليها الايمان من صور شتى . وكان تحمسهم العقيدة لا يدع لهم مجالا لمقاومة ما توحي به الرؤى والتهيئات الفردية (فكل ما يمليه اتصال الواحد منهم اتصالا خياليا مباشرة بالروح القدس يؤخذ قضية مسلمة وفرضا ضروريا على الجميع ، يؤمنون به ايمانا لا يعلو عليه ــ بل لا يدانيه ــ ايمانهم بالواقع المباشر الذي يمليه التاريخ) .

فتلك التعاليم مثلا التي قال القديس بولس ان عيسى اوحى بها اليه روحيا ، كانت تبدو له أكثر ثقة ويقينا من كل ما كان يحكيه له صاحبا المسيح ، بطرس ويعقوب .

واذن ، فمنذ الجيل المسيحي الاول تكونت التقاليد التي أيقن المؤمنون بأنها التاريخ الصحيح لاستاذهم ، تكونت من عناصر متباينة تختلف درجات الحقيقة فيها كثيرا . ولم تظهر بذور الشك في قرب العودة المأمولة للمسيح الا عندما انتهي أجل هذا الجيل الاول من المؤمنين ، وبانتهائه لم يعد هناك شهود « مباشرين » لحياة المسيح . ثم رأي الحريصون من المسيحيين أنه قد يكون من الصالح أن يثبتوا بالتدوين تلك الذكريات التي افترضوا صحتها في الاخبار المتوارثة شفاها .

وغالب الظن أنه قد ألفت في هذه الفترة كتيبات سجل فيها محرروها ما رأوه جديرا بالعناية من مجموعات حكم منسوبة الى أستاذهم ، أو حكايات عن مراحل حياته وجدوا فيها عبرة وتمييزا لشخصيته ، او وصفا لـ « آياته » ، أي لتلك المعجزات التي قام بها في سبيل اقناع الجهلاء . ولم يعن أحد بما نسميه اليوم بـ « التحقيق التاريخي » ، ذلك المنهج الذي يفترض الشك ، والذي يتنافى مع دوافع الايمان المطلق لدى هؤلاء الكتاب الذين افتقروا كل الافتقار الى روح النقد ، موجهين

الاهتمام ، قدر استطاعتهم ، الى أثبات صحة الآمال المسيحية واقنـــاع المترددين ووعظ المؤمنين •

وكانت هذه الكتيبات ـ وأهمها مجموعة الاحاديث المنسوبة الى متى والروايات المنسوبة الى مرقس ـ المصادر الاولى لاناجيلنا • الا انها لم تكن لتضم سوى عناصر شتى مشوشة من حياة عيسى كمـــا تصورها المسيحيون عندما أوشك جيل اصحابه على الانقراض • وقـد حاول المحررون المتتابعون لتلك الاناجيل ، خلال الثلث الاخير من القرن الاول المسيحي ، أن ينسقوا رواياتهم ويدخلوا عليها شيئا من الانسجام • ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها ، فضلا عن شبهاستحالة تحقيق الواقع وتخليصه من الاضافات الخيالية التـــي كانت في طيـــات الروايات المتوارثة ولقد كان من العسير التمييز بين الاحداث التاريخيـــة وبين تلك التـــي فـــرض الايمان وقوعها مـــن أجل أن « تكتمل كلمـــة الكتاب » ، أي بين الذكريات الحقيقية الحية وبين وحي الروح • ولـــم يكن هناك الى جانب ذلك دافع يدفعهم الى الجد في طلب هذا التحقيق وهذا التمييز •

لقد وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها : فمجموعات الحكم لم تكن تلتزم في دقة دقيقة بالظروف والاحداث التي أنطقت المسيح بها • واختلف سردها ـ الذي لم يقم على أي اساس طبيعي ـ من كتيب الى آخر • وكذلك كان الامر فيما يتعلق بالروايات الخاصة بالسيرة ذاتها • فهي لا تحكي سوى فصول ومقتطفات من حياة المسيح ، لارابط بينها ، وتختلف تفاصيلها باختلاف الرواة • فكان على محرري الاناجيـــل أن يغربلوا ، ثم يختاروا ، ثم ينسقوا ، سيرة متكاملة من هذه المتناثرات المشوشـــة •

وتصفح الاناجيل وحده يكفي لاقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا الى « تركيبات » واضحة التعارض لنفس الاحداث والاحاديث ، مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ، ولم يستلهموا تاريخـــا ثابتا يفرض تسلسل حوادثه عليهم ، بل على العكس من ذلك : اتبع كل هواه وخطته الخاصة في تنسيق وترتيب مؤلفه • ولا شك أيضا في أنه لم يعتمد احد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع

صورة واضحة لحياة المسيح : فلم يكن عملهم اذن سوى أن يربطوا ـ في كثير أو قليل من المهارة ـ بين أطراف من المرويات ، وأن يشكلوا منها سيرة افتقرت الى الوحدة الحقيقية ، كما أن عناصرها تبدو مجموعة في اطار مصطنع . واننا لنلحظ في ثنايا هذه السيرة الانجيلية نقصا كثيرا وفجوات خطيرة ، نلحظها حتى في انجيل مرقس الذي بلغ به الحرص ان تحاشى الحديث عن مولد عيسى وطفولته) .

ولكن الايمان لا يرضيه التجاهل ، بل أنه يتوصل دائما الى معرفة ما هو بحاجة الى معرفته ، وخيال الاتقياء يخدمه دائما . لذلك نرى الانجيل الاول ، ثم الانجيلين الثالث والرابع ، يحاول كل على طريقته ، أن يسد هذا النقص ويملأ تلك الفجوات ، فيروي لنا ـ فيما يتعلق بالفترة التي تجاهلها الانجيل الثاني ـ حوادث قد تختلف وقد تتعارض . ولكنها تتشابه جميعا في تعلقها بالمعجزات ورغبتها في الوعظ والارشاد . ومن الواضح أنه لا يربط أيا منها بالواقع التاريخي علاقة تذكر .

ومن المرجح كذلك ان الاحداث الخاصة بالصلب كانت قد فقدت الكثير من وضوحها في ذاكرة المؤمنين قبل تحرير الاناجيل ، وأنها تأثرت في مخيلتهم بالاساطير المختلفة الشائعة في الشرق ، ثم انها فسرت تفسيرات غيرت وجددت في جوانب كثيرة أساسية منها . وكيف ـ من ناحية أخرى ـ لا ينسبون الى ارادة الاستاذ الاول والى تعاليمه وسننه كل الافكار الخصبة التي تمخضت عنها دفعة الايمان الحي لدى اتباعه وقد اضطروا اضطرارا ـ بسبب موته ثم بعثه الى أن ينظروا الى الماضي والمستقبل من خلال صورة المنقذ المنتظر فحسب ، كيف ـ مثلا ـ لا يجعلونه الداعي الاول الى طقوس التعميد والى عقيدة تحول الخبز والخمر المقدسين الى لحم ودم المسيح ؟ كيف لا يكون هذا بعد أن أصبح التعميد ـ منذ جيل الدعاة الاول ـ خاتما للايمان ، وأصبحت عقيدة التحول الصلة المباشرة بين الاخوة في الدين وبينهم وبين المسيح ، حسب تفسيرات القديس بولس ؟

وهكذا لم نعد نستطيع أن نميز في وضوح الجوانب التاريخية لشخصية عيسى ، ولم نعد نملك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته في دقة .

وخلاصة القول فيما يتعلق بشخصيته أنه يمكن التكهن ببعض ملامحها من خلال الروايات الانجيلية ؛ اما سيرته ، فليس لنا سوى الامل في التعرف على شيء من مراحلها • والامر في كلتا الحالتين لا يختلف عما قلناه فيما يختص بكل ما نسب الى عيسى من تعاليم : يجدر بنا عند بحثه أن لا نؤكد شيئا منها الا في حرص شديد •

بيد أننا نعلم أن عيسى هذا ترك عائلته في يوم من الايام وخرج الى اقليم الجليل مبشرا وواعظا • فلماذا ؟ ••• هل سلك هذا المسلك لانه شعر بحاجة نفسه اليه ، ودفعته عاطفة لا تقبل مقاومة عاطفة نشأت بالفطرة بين جوانحه ولا نستطيع لها تفسيرا ؟ ••• لا شك أنه كان للدافع النفسي أثره في هذا السلوك ، وان كنا لا نستطيع تصوره الا على أنه نتيجة عوامل وظروف بيئة معينة •••

ومسألة قيام عيسى بالدعوة تعود بنا اذن ـ تاريخيا ـ الى تفهم البيئة التي خرج منها •

ـ ب ـ

لسنا اليوم على معرفة تامة بتلك البيئة التي نشأ فيها عيسى ، ولكننا خطونا بعض الخطوات في سبيل معرفتها • ونلمح لها وجهين مختلفين ،بل هي تبدو مزدوجة في تركيبها :

فالمسيح قد ولد يهوديا،ثم نشأ في بيئة يهودية استعار منها وحدها ـ حسب ما نعلم ـ عناصر ثقافته الفكرية والدينية •

بيد أن أمة اسرائيل لم تكن قد وصلت من الانعزال عن العالم الخارجي الى ما تستطيع به أن تتجنب تماما تأثيرات الشعوب السريانية والكادانية التي عاشت بجوارها ، كما أنها تأثرت ولا شك بصلاتها المستمرة بالفاتحين الاغريق ، سواء منهم من جاء من ملك البطالسة بمصر أو من امارات السلوقيين بالشام ، يضاف الى هذا تأثير وفود الحجيج المتفاوتة العدد الى القدس ـ في المواسم والاعياد ـ من أبناء الجالية اليونانية التي هاجرت الى بلاد اليونان واستقرت بها •

كل ذلك أدى الى تشرب بني اسرائيل بالكثير من الافكار الخارجية،

خلال القرون الثلاثة السابقة للتاريخ المسيحي •

ومن ناحية أخرى ، نجد ــ حول العالم اليهودي الفلسطيني ــ بيئة ثانية مشركة • وهذه البيئة ، وان لم تؤثر مباشرة على عيسى ، الا انها جذبت اليها اتباعه عقب موته : تلك هي البيئة السورية والفينيقية التي كانت تحد فلسطين في الشمال والغرب والجنوب الغربي والتي لا ترتسم معالمها اليوم بوضوح في أذهاننا وان كانت آنئذ مصبا لروافد كثير من التيارات الفكرية والعقائدية وللخرافات والاساطير أو آثار ديانات القرون الماضية الى جانب الديانات المعاصرة • وتلك هي أيضا بيئة ما بين النهرين في الشرق ، تتفاعل فيها التيارات الدينية النابعة من الهند وفارس والمنتهية الى أرض بابل ، الارض التي تعتبر مصدرا للكثير من الاساطير القديمة ، المنتشرة بين كل الشعوب السامية ، وللنظريات التي يمتزج فيها علما الفلك وما وراء الطبيعة لتفسير سير الكون والخليقة • ثم كانت هناك البيئة المصرية من ناحية الجنوب ، حيث تطورت العبادات المحلية ونمت ونحت نحو آفاق أوسع وأشمل بتأثير الفكر اليوناني الخصب • وأخيرا، نجد البيئة الاغريقية من ناحية الشمال ، في الاقليم الذي نسميه اليوم بآسيا الصغرى ، نجدها أكثر تعقيدا واختلاطا في الفكر ، ولكنها أيضا أكثر خصوبة واثمارا بسبب وضعها كمركز هام للديانات • فالى جانب العبادات القومية ــ وكان بعضها ما يزال حيا قوي التأثير ــ وأساطير الديانة الاوليمبية ، وتأملات الفلاسفة اليونانيين وعقائدهم ــ وقد انتهى بها الامر الى التبسيط حتى تكون في متناول عامة الناس ــ الى جانب كل هذا ، نجد في تلك البيئة مؤثرات من سائر البيئات الاخرى التي ذكرناها ، بما فيها البيئة اليهودية •

كانت هناك اذن مادة دينية ضخمة ، خاملة في بعض نواحيها ، وأن كانت عناصرها قد بدأت تتداخل وتنتظم في تركيبات مختلفة ترمي الى تأليف المذاهب وتبلغ في ذلك درجات متفاوتة من الاغراب • كانت هناك مادة دينية ضخمة قابلة لان تتشكل وتتطور في سهولة حسب رغبات من

يريد استغلالها ، فكانت ، بالتالي ، مصدرا يكاد لا يغني لمستقبل المسيحية ولكننا نكرر هنا أن المسيح نفسه ـ حسب ما تؤكده سائر الدلائل ـ نشأ وتكون في بيئة يهودية بحتة • وانه لمن ضروب التخمين الذي لا يقوم على أساس ملموس أن يقال بتأثير مباشر للبوذية على عيسى • ولقد انتشرت المسيحية ، أول ما انتشرت ، خارج فلسطين ، على ايدي اليهود أنفسهم ، فلنلق نظرة ، باديء ذي بدء ، على العالم اليهودي • ولسوف نتطرق فيما بعد الى محاولة تحليل الجوانب الدينية للبيئات الاخرى عند حديثنا عن انتشار الدعوة المسيحية فيها •

ومن الجدير بالذكر : أن البيئة اليهودية في عصر هيرودوس الاكبر (المتوفي عام ٤ قبل الميلاد) كانت غاية في التعقيد ، ظاهرها وحدة الجنس والعادات والتقاليد والدين ، وباطنها فرقة أصيلة في صفوف أهل فلسطين الذين انقسموا شعبين يختلفان اختلافا كبيرا في الاتجاهات الفكرية والنزعات الدينية •

والعلة الاولى لهذا الانقسام ترجع الى عهد بعيد : انها ترجع الى العهد الذي رأى فيه ملك بابل أن يهجر نحو ضفاف الفرات طوائف من اليهود الذين انهزموا امام جنده • ولكنه ، في تنفيذ خطته هذه ، لم يهتم الا بالعائلات المعروفة التي كان لها قدر من السطوة ، أما أهل الريف وعامة الشعب فقد ظلوا في ديارهم يمارسون دين اسرائيل القديم، بتقوى أكيدة واخلاص لـ « يهوه » ، ولكن مع شيء من التحرر الذي لا يرفض التعامل والاتفاق مع الآلهة المجاورين أومع المؤمنين بهم •وكان هؤلاء الفلاحين الفلسطينيين البسطاء يؤمنون بأن اليهودية دين رجال ، فلا يتهربون من الزيجات المختلطة التي تجلب الى عروق الشعب المختار دماء جديدة من بنات الشعوب الاخرى • أما أهل المهجر ـ اذا استثنينا منهم تلك الفئة التي دفعها اليأس الى عبادة أصنام المنتصرين ـ فقد تطوروا في سرعة سريعة : وجدوا أنفسهم مضطرين اضطرارا الى اعمال الفكر في صلتهم لـ « يهوه » وفي العهد القائم بينه وبين شعبه،وفي أسباب محنتهم • ثم راحوا يتخيلون لانفسهم سبيلا الى مستقبل أفضل ووسيلة للخلاص من مثل تلك الكوارث التي حلت بهم • واعتقدوا أن المحن التي

مرت بها اسرائيل كان سببها عدم الوفاء بالعهد ، وأن الطريق الى ارضاء الاله هو : الخضوع في عبادته لحرفية النصوص والتمسك بالشعائر المفروضة في غير مالين أو تحرر ، أي ، في الواقع : اتباع شعائر غاية في الدقة والحرص ، تمنع تسرب أدنى نزعه الى الوثنية • ويعود الفضل في تثبيت هذه الشعائر وفي تدعيم الاتجاه نحو شرع محدد ــ وقد قنن في صورة سايرت الرغبات الجديدة ــ الى أنبياء المهجر ، وعلى الاخص منهم ازكيال • فلما سمح قورش للمنفيين بالعودة الى أوطانهم (عام ٥٣٨) ، لم يغتنم الجميع تلك الفرصة ، ولكن العائدين منهم الى فلسطين جلبوا معهم الشرع الجديد والروح الجديدة ، ثم انهم ، فضلاعن ذلك ، ظلوا على اتصال وثيق باخوانهم الذين استقروا بمملكة بابل ، والذين أيدوهم بأموالهم ودعايتهم ونفوذهم في بلاط ملك الفرس ، حتى يفرضوا أنفسهم على أهل فلسطين ممن لم يعرفوا المنفى • وكان الرجال الذين أصلحوا المعبد والعبادات ــ وعلى الاخص منهم اسدراس ونحيميا ــ من اليهود الوافدين من مملكة بابل ، وكانوا يرفضون رفضا قاطعا الزيجات المختلطة ، ولا يقبلون أي تنازل تجاه الديانات الخارجية • وكانوا « كتبة » ، أي : رجالا تخصصوا في دراسة الشرع وتفسيره ، فراحوا ينشئون الى جانبه مجموعة وافية من الشروح الشرعية للافتاء في المسائل الدينية التي لم يكن لها بد من التكاثر بعد أن فرضت الطهارة المطلقة شرطا أساسيا للتقوى •

واذن ففي الفترة التي تمتد من عودة يهود المهجر حتى مولد عيسى ، نرى : أولا ، طبقة كبيرة من رجال الدين ــ طبقة اكليروس ــ تنشأ من جديد حول المعبد الاعظم ، وتعمل على انتظام العبادة فيه ، ولكنها لا تختص بدراسة أو تعليم الشرع ، بل تتجه بطبيعتها الى الطقوس والنصوص فحسب • ثم نرى : ثانيا ، نمو طبقة أخرى هي طبقة « الكتبة » ، أي فقهاء الشرع ، يتنافس أعضاؤها على تحليل أوجه الكتاب المقدس المختلفة ، يكثرون عليها بالشروح والتعليقات ، وينتهون في كثير من الاحيان ــ رغم تقواهم الشخصية المخلصة العميقة ــ الى اغراق ايمان الروح الحرة الفطرية تحت ركام المسائل الشكلية ،

فيجادل بعضهم مثلا فيما اذا كانت البيضة التي تضعها الدجاجة في يوم سبت تعد بيضة طاهرة ، او فيما اذا كان الماء الذي يسكب في اناء مدنس يعتبر مدنسا حتى منبعه ..

ولا نشك في أن بعض هؤلاء الفقهاء تأثروا ــ دون ان يشعروا ــ بالنظريات اليونانية في الاله والكون والانسان ،فراحوايتساءون ويبالغون في التصوير القديم لـ « يهوه » ويوسعون من مفهومه ، بحيث أصبح هو: الاله بالذات،الاله الذي لا يحد والذي لا يكاد الانسان يجد له اسما.كما نزعوا الى تبني مذهب كوني ومذهب انساني يتميزان بالثنائية ، حيث تتعارض فيهما الروح والمادة ، أو النفس والجسد . ومن هنا بدأت الديانة القومية لبني اسرائيل تتخذ صبغة عالمية وانسانية ، على عكس ما خطه لها التشدد الديني فيما سبق من اتجاهات . وان هذه الصبغة لتظهر سريعا وفي عمق بين الجاليات اليهودية بالمهجر ــ وسوف نعود الى الحديث عن ذلك ــ ولكنها ، في أول عهد المسيحية ، كانت أيضا قد انتشرت وأثمرت في فلسطين منذ سنوات عديدة .

كان الشعب اذن يطيع رجال الدين لأنهم مرشدوه القوميين : فالحبر الاكبر هو وحده المنوط به تمثيل اسرائيل امام الاسياد من فرس أو أغريق . وأصبحت فلسطين بذلك دولة يستمد حكامها ولايتهم من الله . وظلت على ذلك حتى في عهد المكابين الذي ظن فيه اليهود انهم حققوا استقلالهم ، ففي ذلك العهد كان الحاكم ملكا وقسا أكبر في آن واحد .

ومن ناحية أخرى نرى هذا الشعب يبدى اعجابا بالكتبة ، هؤلاء العلماء المدققين .

ولكن الواقع أن الطقوس التي كان يتمسك بها رجال الدين في غير ما اقتناع ، والعلم المتصنع المترفع لدى الكتبة ، لم يؤثر أي منهما تأثيرا ذا شأن في روح الشعب ولم يرو ظمأه الى التقوى . بل نرى هذا الشعب يسير بالتدريج في السبل التي يخطها له التشدد الديني ، فيقاوم المؤثرات الخارجية قدر ما يستطيع ، وقد يبدي غضبه لميل القادة بشكل ملحوظ الى الأخذ بأطراف التيارات الثقافية اليونانية . الا أنه باق على

حبه لـ « يهوه » قلبا وروحا،يصلي لهفي أيام الشدة بحرارة تنبع من تقوى العهود القديمة ، لاتحدها الاشكال الجديدة للعبادات ، أي أن دينه ـ بعبارة أخرى ـ كان يحيا وينمو ، بل أنه كان يرتبط بعقائد غير يهودية الأصل ، أتت اليه من الشرق : مثل تلك المتعلقة بدور الملائكة والشياطين، أو بالحياة الاخرى ويوم القيامة . وفي نفس الوقت كان يستقي من المحن التي مر بها اليهود في هذا العصر ـ فقد عانوا كثيرا من ظلم المصريين والسوريين والرومان ، ومن ظلم أنفسهم، خلال القرون الاربع التي سبقت مولد عيسى ـ كان يستقي من هذه المحن تأييدا لامل قديم : انه يترقب ويأمل بكل جوارحه مجيء المسيح الموعود الذي سوف تسترجع به أمة اسرائيل ما عرفته من مجد أيام داوود ، بل أكثر منه .

وانتهى الكتبة أنفسهم الى تقبل هذه الاتجاهات في العقيدة الشعبية ، والى شرحها والتعليق عليها ، وبالتالي الى اعتمادها وتأمينها . وكلما أتت الاحداث بما يخالف الامل المنشود وازداد عنف الطغيان الاجنبي ، كلما قوى هذا الامل في صدور السذج والبسطاء واحتل مكانا أكبر من عقيدتهم الدينية .

ويجب ان لا يغيب عن بالنا أن اليهود ـ مثلهم مثل غيرهم من شعوب العالم في هذا العصر ـ لم يكونوا على علم بشيء مما نسميه اليوم بـ « القوانين الطبيعية » ، أي الترابط المحدد اللازم بين العلة والمعلول . وكانوا يؤمنون بأن الاله قادر على كل شيء ، فلا يفرقون بين الظواهر الطبيعية وبين المعجزات ، بل كانوا حقا يعيشون حياتهم كلها في اطار من المعجزات : فكل ما يثير لديهم الدهشة والحيرة لا يفسرونه الا بالتدخل المباشر للاله أو للشيطان . لذلك اقتنعوا في يسر بأن تلك الثورة الكبرى التي يأملونها لا بد لها من أن تقوم متى ما شاءها « يهوه » ، فظلوا يترقبون بوادرها في قلق يزداد عاما بعد عام . وكانوا ينتظرون منها اصلاح امرهم واستعادة مجدهم والانتقام لمذلتهم .

الا أن هذا الامل كان من شأنه ـ على نقيض ذلك ـ : أن يدفعهم الى مغامرات جرت عليهم أقسى البلاء والكوارث . فقد شرعوا في هذه المغامرات في عنف : مؤمنين بقرب اليوم المشرق الموعود وبأن الله

السماوات لا بد أن يكون لهم ناصرا ان بادروا بنصرته • والعلة الاولى للحروب العنيفة التي قامت في القرنين الاول والثاني المسيحيين ، والتي قضت على العدد العديد من اليهود ، وختمت مأساة أمتهم ، تلك العلة هي : اقتناعهم بأن العالم الدنيوي على وشك الفناء ، وبأن العهد الذي قطعه رسل « يهوه » على أنفسهم في قديم الازمان سوف يوفونه عاجلا •

وفي اقليم الجليل ــ وهو الجزء الشمالي من فلسطين حيث ولد عيسى ــ كانت غالبية الشعب من السذج البسطاء ، لم تشارك في حياة اليهود الجديدة الا أبان عهد المكابين ، ولم تختلط كثيرا بالطبقات العليا من الكهان • أما « الكتبة » ، فلم يخل منهم الاقليم تماما ، الا أنهم لم يبلغوا فيه من الانتشار ما بلغوه في القدس أو في الاقاليم الوسطى من فلسطين ، وكذلك لم يصلوا فيه الى تلك المرتبة الرفيعة من الشهرة والنفوذ التي كان يعتد بها غيرهم من أساتذة المدارس اليهودية • وكان المثل الشائع يقول : أن أهل الجليل يتميزون بالعناد وصلابة الرأي • ولعل مرجع ذلك : أن جبالهم كانت ، في أول عهد الاستعمار اليوناني ، ملجأ لعصابات من الثوار القوميين ذوي البأس الشديد والمثابرة في مقاومتهم للرومان • وكان الناس يسخرون أيضا من لهجتهم الريفية في الحديث • الا أنهم كانوا قد احتفظوا ، فيما يبدو ، بنوع من التقوى التلقائية المتحمسة في عمق عميق يدل على قوة الحيوية الدينية ولا تقيده دقة المراسيم والطقوس التي اختص بها الفريسيون في ريائهم الديني •

اذن ، فقد ولد عيسى ونشأ في بلد يهتم معظم الناس فيه بالمسائل الدينية أولا • وخرج من بيئة شعبية يعين أفرادها على الأمل الساذج ، مترقبين في قلق تلك المعجزة الباهرة التي سوف يثاب بها اليهود على تقواهم ، والتي سوف تجعلهم ملوكا في الارض • ولكن هذا الشعب لا يجد لدى حكامه من القساوسة مشاركة في أمله ، بل يجدهم على حذر من المشاكل التي قد تترتب عليه فيما يتعلق بصلاتهم بالمستعمر الاجنبي ؛ بل نستطيع القول بأن اطارات العلماء التي كانت تسوس الشعب لم ترحب كثيرا بأي حركة نابعة من أعماق الجماهير ، وقد أكد أحد هؤلاء العلماء ان : « لا تقوى لدى الجهلاء » •

فاذا وجد في هذه البيئة انسان يتصف بالتقوى العميقة المخلصة مع بساطة التفكير ، ولم يؤثر على حيوية روحه نظريات الكتبة ، بل نشأ متشبعا بالقضايا التي تشغل أهله ، والتي تطبع حياته الفكرية والدينية والخلقية بطابعها الخاص ، اذا وجد هذا الانسان ، ثم اذا أعطي القدرة الخارقة على أن يركز في نفسه كل شتات الافكار السارية في الهواء الذي يتنسمه ، على ان يعيد تشكيلها من جديدفي تأملاته [1](كدأب الملهمين)، فلا غرابة في أن نراه يقوم بترجمة عقيدته من عالم الفكر الى دنيا العمل • ولم يكن للانبياء من اقليم الجليل في ذلك العصر سوى التبشير — أساليب تتفاوت أصالة وابتكارا — بقرب تحقيق الامال • ويبدو ، في الواقع ، أن هذا الوضع كان مبدءا لقيام عيسى بالدعوة •

وأننا لنفتقر الى الوثائق التي تسمحبالنفاذ في تفصيل ظروف تكوينه الفكري ، وفي حقيقة الأسباب التي دفعته الى هذا الاتجاه • ولكننا لا نؤمن ، في كلا المجالين ، بجدوى البحث عن علل وشروح بالغة التعقيد •

ان سائر أناجيلنا تشير الى رابطة معينة بين بدء حياته العامة ، وبين دعوة نبي آخر كان يحث على التوبة ، ويقول بقرب اليوم الموعود • والاناجيل تؤكد هذه الرابطة صراحة ، وان لم تفصلها في وضوح • والنبي المذكور هو يوحنا المعمدان ، ولربما عرفه عيسى واتصل به وامتثل قدوته عندما تملكت اقطار نفسه تلك الحماسة القاهرة التي سرت في أعماقه حتى سيطرت على ارادته • واندفع يبشر بدعوته لما جاء النبأ بأن هيرودوس أمر بسجن يوحنا ، وذلك حتى لا يخلو ملكوت الله من نبي •

وخلاصة القول : (ان عيسى بدعوته انما كان يجدد تلك السلسلة من أنبياء بني اسرائيل التي انقطعت بعد العودة من المنفى ، والتي حاول أن يصل حلقاتها — من قبله — أنبياء آخرون منهم المعمدان • فقيامه بالدعوى — مهما بدا أول الامر أصيلا مبتكرا — ليس في الواقع ظاهرة استثنائية أو غريبة من ناحية الشكل) •

---

(١) هذا ما يقوله المؤلف المسيحي أما نحن المسلمين فاننا نؤمن بأن عيسى عليه السلام : عبد الله ورسوله .

الا أنه يحل لنا الشك في أمر معرفته منذ البداية للهدف الذي سعى اليه بالتحديد ، وتقديره لما مثله من دعوة . لقد كان يختلف عن المعمدان في أسلوب التبشير — اذ تخلى تماما عن حياة الزهد وعنف الخطابة — ولكنه لم يخرج عن المبادىء الاساسية التي كان يفسرها يوحنا :

« مملكة الله وشيكة ، ترقبوا الانقلاب العظيم الذي سوف يطهر العالم من الظلم والشر . توبوا ، ان اردتم أن تحتلوا مكانا بين صفوف المختارين » .

فما الدافع الى دعوته هذه ؟ ألأنه أحس بقوة خفية تدفعه اليها ؟ ألأنه أحس بالرب في أعماق صدره كما احس به سائر الانبياء اليهود من قبل ؟ وما معنى كلامه ؟ ثم كيف كان يتصور مملكة الله وساعتها ؟ اننا لسنا على علم بشيء من ذلك : فالنصوص التي نستطيع الاعتماد عليها تعود كلها الى عصر تغيرت خلاله في أذهان المسيحيين ملامح مملكة الله بعد أن تأخرت عنهم ساعتها . غالب الامر : أنه كان يتصور تلك المملكة على النمط الذي تحدث الناس به من حوله [1] : مثال ذلك حلول عهد الفرج المادي بالنسبة الى اسرائيل،والاشراق المبين لبركة «يهوه»فيصورة لم يحددها خيال العامة قط تحديدا واضحا . ولعل عيسى كذلك لم يتبين تلك الصورة ملموسة الملامح . وما يدرينا ... لعله بدأ دعوته بالاشارة الى عنف يوم البعث ، والى تلك الحرب الهائلة التي لم يكن الرأي الشائع يشكك في أنها سوف تطحن الارض عند مجيء المسيح المرتقب . وأناجيلنا تحمل بعض آثار هذه العقيدة ، وان كانت أغلب الدلائل عليها قد انمحت أو كادت — ولا عجب — من مثل تلك النصوص التي أريد بها أولا اثبات ان المنقذ المنتظر هو نفسه عيسى ... مثال الحلم والسلام ...

وهل ظن عيسى أنه هو نفسه المسيح المنتظر ؟ لقد شك الناس في ذلك وما زالوا يشكون ، مستندين الى أدلة قوية : فهو يصف نفسه قط بأنه المسيح . (وهي كلمة تعادل كلمة « كريستوس اليونانية ») . والبحث الدقيق في أصل النصوص الانجيلية التي تظهر فيها هذه الكلمة

---

(١) نعود فنقول : اننا كمسلمين نؤمن بأن عيسى عليه السلام انما كان يتلقى الوحي من الله سبحانه الذي اختاره للنبوة والرسالة .

يؤكد أنها لا تنتمي بصلة الى المنبعين الاساسيين للاناجيل وهما : مجموعة الحكم المسماة بـ « اللوجيا » ، ثم الانجيل الاول ، وهو انجيل مرقس • وأكثر النصوص صراحة في نسبة صفة المسيح الى عيسى هي أقلها صمودا امام النقد • ونضرب على ذلك مثلا بالتصريح المعروف الذي يروي أنه أدلى به امام الكاهن قيافا (مرقس ، ١٤/٦١) ، وهو نص لا يعتمد على سند ما ، ويغلب على الظن أنه لا يتجاوب مع واقع التاريخ •

بيد أن العصر الذي تم فيه تدوين الاناجيل على صورتها التي وصلت بها الينا ، هذا العصر قد فرض على العقيدة الخاصة ببعث عيسى ـ تلك التي أصبحت الاساس الاول للمسيحية ـ أن تبرز للناس في اطار قوي ، مدعمة بأحاديث عيسى نفسه • ولكن الفقهاء ما زالوا يميزون في مدارج اليقين التاريخي بين « كلمة الانجيل » ، وبين « كلمة عيسى »•

والنتيجة الاكيدة لدراسات الباحثين ، هي : أن عيسى لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر • (ولم يقل عن نفسه انه « ابن الله » ، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل ـ بالنسبة الى اليهود ـ سوى خطأ لغوي فاحش وضرب من ضروب السفه في الدين • كذلك لا يسمح لنا أي نص من نصوص الاناجيل باطلاق تعبير « ابن الله » على عيسى ؛ فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، انها اللغة التي استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الانجيل الرابع ، وقد وجدا فيها معاني عميقة وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة اليهما) [1] •

ولو أراد أن يتخذ لقبا ، لاتخذ لقب « ابن داوود » المعروف بين بني اسرائيل ، والذي كانوا يعتبرونه لقب المنقذ المنتظر ولكنه لم يفعل • وهو

---

(١) يمكن لليهودي ان يعتبر نفسه « عبدا ليهوه « لا » ابنا ليهوه » ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون عيسى قد تصور نفسه « عبد الله » وتقدم للناس بهذه الصفة . والكلمة العبرية « عبد » كثيرا ما تترجم الى اليونانية بكلمة تعني « خادما » و « طفلا » على حد سواء . وتطور كلمة « طفل » الى كلمة « ابن » ليس بالامر العسير . ولكن مفهوم « ابن الله » نبع من العالم الفكري اليوناني) .

المؤلف

لم يتخذ كذلك اللقب الذي يبدو أن أناجيلنا ترى فيه أخص خصائص شخصيته ورسالته الا وهو : « ابن الانسان » ، أو على الاقل ، فهو لم يستخدمه في معنى « المنقذ المنتظر » ، فاليهود في هذا العصر كانوا يجهلون هذا المعنى لتعبير « ابن الانسان » ، وان كان النص المشهور من كتاب دانيال يقول (١٣/٧ ــ ١٤) :

« كنت أتأمل في رؤي الليل فاذا بي أرى ، قادمة على سحب السماء ، صورة كصورة ابن الانسان » •

لم يكن هذا النص قد استخدمه كهنة اليهود بعد في تصوير مجيء المسيح المنتظر ، ولم يدخل معابدهم بهذا المعنى الا في عصر متأخر تحت تأثير المسيحية التي أذاعته •

ولقد اختلط الامر في فترة من الفترات على بعض المؤمنين الذين لم يكونوا على معرفة كبيرة باللغة الآرامية ، اذ أن تعبير « ابن الانسان » في هذه اللغة يعني فقط : « انسان » أو « رجل » ، فتهيأ لهؤلاء المؤمنين أن هذا التعبير الذي يلقونه أيضا في مجموعة الحكم المعروفة بـ « اللوجيا » لا بد وأن يحتوي على سر عميق • وقد ربطوا بينه وبين النص المماثل من كتاب دانيال ــ وهو النص الذي لم يفهموه أيضا ــ فقرروا : أن « ابن الانسان » مرادف مسيحي خاص لكلمة : «مسيح» • وتحليل النصوص يؤكد خطأ الذين ذهبوا هذا المذهب في تأويل التعبير المذكور • بل أن أغلب الفقرات التي يظهر فيها من الاناجيل يبدو أنها صدرت عن محرري هذه الاناجيل ، لا عن عيسى •

اما تلك التي يرجح أنها مبنية على حديث صحيح له ، فلا تعدو الاربع أو الخمس [1] ، ولا يمكن أن نصفها بأقل من انها خاطئة أساسا في ترجمتها للنص الاصلي ، ويجب ابدال تعبير « ابن الانسان » فيها بكلمة « انسان » مثال ذلك الفقرتين التاليتين :

---

(١) وهي : متى ٢٠/٨ (لوقا ٩\٥٠) ، و ١١ ــ ١٩ (لوقا ٧ــ٣٤)، و ١٢ ــ ٣٢ (لوقا ١٢ ــ ١٠) ، و ٩ ــ ٦ (لوقا ٥ــ ٣٤ومرقس ١٠/٢) و ١٢\٨ (لوقا ٦ــ٣ ومرقس ٢ــ٢٨) •

« ابن آوي يلجأ الى جحره •• الانسان لا يجد موضعا يريح فيه رأسه » •

« واذا ذكر أحد الانسان بسوء ، فسوف يغفر له • أما من تحدث بسوء عن الروح القدس فلن يغفر له في هذه الدنيا ولا في الاخرة » •

فمن المؤكد اذن أن الروايات الاصيلة لم تجهر صراحة بأن عيسى قد أعلن نفسه مسيحا • واننا لنجد نفس الشك تجاه ما يسمى بـ « سر البعث » ، أي تلك الوصية التي يروي انجيل مرقس ان عيسى أوصى بها تلاميذه في مناسبات مختلفة مع كثير من التشدد والالحاح : بأن لا يفشوا شيئا مما قد يتخيلونه أو يكشف لهم عنه من حقيقة مكانته • ما هو الهدف الذي كان يبغيه من اخفاء حقيقة شخصيته والتكتم على رسالته، في نفس الوقت الذي كانت فيه دعوته بحاجة ملحة الى اعلان سرهما لتحقيق مغزاها ؟

ومن ناحية أخرى ، فان المؤرخ يواجه مشكلة شائكة اذا ما أراد أثبات ان فلاحا من اقليم الجليل قد طور المثل الاعلى للبطل الذي تعلقت به آمال الشعب حتى أصبح الرسول الالهي المرتقب يصور على شاكلة الشهيد المتواضع المستسلم ، بعد أن كان في خيال الناس ملكا جبارا منتصرا • وحاول بعض الفقهاء أن يتغلبوا على هذه العقبات وهذا التعارض ، فتقدموا باعتبارات مختلفة ترمي الى اثبات القول بأن عيسى ، وان لم يعلن عن نفسه أنه هو المسيح المنتظر فقد ظن ذلك وآمن به ولم ينه تلاميذه عن ظنه والايمان به وصلب لأن بيلاطس ظن ذلك أيضا ، ولم ينهه عيسى عن ظنه ولو لم يؤمن الجميع بالأمر لما قدر للحواريين أن يقتنعوا ببعث المصلوب من بين الاموات •

ولا زال من الطبيعي أن نعجب من عدم توضيح عيسى لهذه المسألة الاساسية • ولا زال في الامكان أن ننظر الى التصريحات الغامضة أو الاشارات التي تنسبها اليه النصوص ، على أنها من صنع المحررين ، لا تعترف بها الروايات الاصلية ــ كما يمكننا القول بأن الحاكم الروماني لم يحتج الى تصريح عيسى بأنه المسيح المرتقب حتى يسعى الى التخلص

من رجل فوضوي يبشر بقرب حلول مملكة الله ، أي بقرب نهاية السيطرة الرومانية .

وأخيرا ، فلعلنا لا نغرق في الظن ان قلنا : ان حب الحواريين لاستاذهم وثقتهم فيه كانا كفيلين باحداث التهيؤات التي أدت الى غرس الايمان الاكيد ببعثه في نفوسهم . وقد جاء الاعتقاد بأنه أصبح « مسيحا بارادة الله » (على حد التعبير المنسوب الى القديس بطرس في « أعمال الرسل » ٢/٣٦) لتفسير معجزة بعثه .

فهناك اذن ، في الواقع ، حجج لها قدر كبير من المنطق والقوة ، تدفع الى الاعتقاد بأن عيسى قد اعتبر نفسه رسولا تحثه روح «يهوه» على اعلان قرب تحقيق الامل الاكبر وضرورة التمهيد له ، وبأنه قد سلك مسلكا يتمشى مع هذا الايمان . ولكنه حتى في تلك الحالة قد نتساءل عما اذا كان عيسى قد آمن بأن مكانة مختارة سوف تخصص له في « مملكة المستقبل » ، مكانة لا بد لها من أن تلتقي وتتشابه مع مكانة المسيح نفسه . وأجاب الكثير من فطاحل الفقهاء ـ أمثال لوازي ـ بالايجاب على هذا السؤال ... ومن العسير أن نأتي بالبراهين الاكيدة لهدم رأيهم ، ولكنه من العسير على حد سواء أن نسايرهم في هذا الرأي دون تحفظ .

فالوصول الى اليقين في مثل هذه الحال أمر بعيد المنال .

الفصل الثاني

اخفاق عيسى

أ ـ تأكد هذا الاخفاق ـ أسبابه : عيسى لا يتحدث الى الشعب ولا الى العلماء والقساوسة حديثا مقنعا ـ الرحلة الى القدس وموت عيسى ـ هل تنبأ بهذه الميتة ؟

ب ـ تشتت الحواريين ـ كيف أحيا من قواهم الايمان ببعث عيسى ـ المصادر التي نبع منها الايمان ببعث عيسى ـ أثر هذا الايمان في تكوين التفكير المسيحي الاول ونشأة المسيحية •

جـ ـ اعادة تنظيم ايمان الاتباع ـ فكرة العودة القريبة للمسيح عيسى ـ ضعف حظ عقيدة الحواريين من النجاح ـ سبب استمرار هذه العقيدة : نقلها الى التربة الفكرية اليونانية •

ـ أ ـ

عيسى واليهود

وهكذا فأن النصوص لا تقدم الينا الخبر اليقين فيما يتعلق بتفكير عيسى الخاص بمبادىء رسالته وبصفات شخصيته وبمدى دوره الذي لعبه • الا أننا لا بد أن نقر واقعا واضحا للعيان ، وهو : أنه لم ينجح في دعوته ، وان مواطنيه من أهل فلسطين لم يصدقوا بالرسالة التي نسبها الى نفسه ، ولم يسيروا على نهج الاخلاق التي أراد أن يوحي بها اليهم ••• لقد راقبوا مروره بينهم خلال الفترة الوجيزة التي تيح له أن يظهر فيها [1] ، راقبوه في شيء من الفضول أو من اللامبالاة ، ولكنهم

---

(١) يجب ان لا نعتمد في حسابنا لحياة عيسى كنبي على التقديرات التي يوحي بها الانجيل الرابع والتي بمقتضاها تكون حياته العامة قد امتدت ثلاث سنوات . ان فترة الدعوة في حياة عيسى اقتصرت بالتأكيد على بضعة أشهر أو حتى على بعضة اسابيع . والتقديرات الدقيقة غير متوفرة .

لم يتبعوه • ولعله ـ وهذا أكثر ما يمكن ان يقدر له من نصيب في النجاح ـ قد جذب الى دعوته بضع مئات من أهل الجليل السذج : فالاناجيل عندما تصف لنا جماهير الشعب وهي تقتفي خطاه في تلهف وتنصت الى أحاديثه في اعجاب بالغ ، هذه الاناجيل لا تنسينا ما ترسمه صفحاتها الأخرى ـ في صورة لا شك أنها أقرب الى الحقيقة ـ من قسوة قلوب اليهود وتعنتهم الشديد • والواقع أن عيسى نفسه قد يئس ، فيما يبدو ، من محاولة اقناعهم • وأسباب فشله واضحة للعيان)•

فهو لم يتحدث الى الشعب باللغة التي كان ينتظرها منه : كان يدعو الى التأمل في النفس وحب الغير ، والى التواضع والايمان العميق بالله ، بينما الناس يترقبون دعوة الى الصراع المسلح واعلانا للجهاد الاكبر والاخير قبل الانتصار الخالد • انه لم يقل لهم : « قوموا ! ••• فالمسيح الذي اختاره « يهوه » معكم » ، بل قال : « مهدوا ـ بالتوبة ـ ليوم الحساب القريب » • لم يطلب منهم العمل والكفاح ، بل رجاهم الصبر ، واتخاذ موقف أخلاقي وديني من شأنه أن يحول هذا الصبر الى نوع من الفروض الحتمية ، فيه ما فيه من القسوة على النفس • كان من أبناء اسرائيل ، ولكنه لم يتعصب لقومه ، ولم يتخذهم وحدهم في غالب الامر موضوعا لدعوته : فقد كان يستوي في نظره الجندي الروماني التقي المؤمن ، أو المرأة الكنعانية المخلصة ، باليهودي الاصيل الذي يأتي اليه معلنا تصديقه له ، بل وان الكافر الذي يتحول قلبه الى الايمان كان يفضل بكثير في نظره من لم يصدق من اليهود •

كان عيسى يتحدث كثيرا عن العدل ، وعن السلام ، وعن شوق النفس الى الوصول الى سماء الأب ، كما كان يتحدث عن التوكل والصبر ••• ولم يصرح قط بوجوب الثورة ، أو بقرب انتصار شعب الله المختار على سائر الامم وفي ذلك كله نجد نحن أصالته وجاذبيته الكبرى • الا أن حديثه لم يكن ليثير صدى أهل فلسطين المتلهفين الى يوم الانتصار الموعود •

أما علماء الدين فقد رأوا فيه رجلا جاهلا يتطاول عليهم ، ويعتقد في سذاجته أن الحكمة يمكن ان تحل محل العلم ، وأن البصيرة يمكن

أن تغني عن المنطق • وكان يتحدث اليهم في ثقة وقوة لانه كان يشعر بتأييد من الله في نفسه • ولم يكن ليعجبه منطقهم ، ولم يكن توثب عاطفته الدينية الفطرية الا ليتصادم مع تفكيرهم المتشبث بالتدقيق الى أقصى الحدود في الامور الدينية فكان من الطبيعي أن تنشأ العداوة بين الطرفين •

وعلينا أن لا ننسى ظروف العصر الذي كتبت فيه الاناجيل ، وما تعكسه من عدم اهتمام المسيحيين بالشريعة اليهودية ، مما جعلهم ينسبون الى عيسى ذلك الاحتقار الذي كانوا يشعرون به تجاهها • الا أننا ، اذا حللنا النصوص العديدة التي يعارض فيها المسيح علماء فلسطين ، وتلك التي تصف كيف كانوا يحاولون استدراجه بالاسئلة الماكرة ، لا نجد بدا من الاعتقاد بأن نزاعا خفيا مستمرا كان يسود علاقته بهم • وعلى أي حال ، فقد كان يحترم الشرع ويبدي تمسكا به ، ولكنه لم يجعل منه همه الاول ، بل أظهر استعدادا لان يعطي الهام التقوى المكانة الاولى قبل تعليمات رجال الدين •

اما قساوسة القدس والطبقة الممتازة من اليهود ، فقد كانوا يعتبرونه أكثر الفوضويين خطورة وأضرهم بمصالحهم : كان في نظرهم خطرا عليهم لأن دعوته من شأنها أن تثير في نهاية الامر ، بين جموع الشعب ، حركة من تلك الحركات العنيفة الحمقاء التي يتشدد الرومان دائما في قمعها ، والتي تقلق فتنتها من راحة بال أهل المعبد • وكان خطرا عليهم أيضا لانه يحدث الطبقات الدنيا من الناس ، في غير ما تحفظ ، بقصص ومقارنات لا يمكن أن يؤدي مغزاها الا الى اظهار عيوب طبقة رجال الدين واضعاف من مركزهم •

وأما الشعب ، فكان شعوره بالتردد تجاه دعوة « النبي » أقوى من ميله الى مقاومتها • لقد أذيع ان عيسى أكثر في ربوع فلسطين من « الاشارات » ، أي المعجزات ، بشفائه للمرضى والعجزة ، ولعل الناس بدأوا ينسبون اليه احياء بعض الموتى ــ تلك المعجزة التي كانت تعتبر أسهل المعجزات في ذاك الوقت وفي هاتيك البلاد • وراح أعداؤه ينشرون أن كل تلك الاعمال الخارقة مرجعها الشيطان • ولكن البسطاء لم

يصدقوا ادعاءهم ، وظنوا على حيرتهم ، الى ان عيسى ــ وان لم تثر دعوته حماستهم ــ ظل محل تقديرهم . أما العلماء والقساوسة فقد كرهوه منذ عرفوه ، وكانت غلطته الكبرى انه وضع نفسه بين أيديهم فيما بعد .

والاسباب التي دفعته الى الرحيل الى القدس غير واضحة . ولا يرجح أن الدافع اليه كان فقط الاحتفال بعيد الفصح في المدينة المقدسة ، لقد صور لنا واضعو الاناجيل نصوصهم في عصور أصبح فيها تفسير حياة عيسى يتلخص في فترة واحدة هي فترة موته ، تلك الميتة التي اعتبروها تتمة لانبياء ومعتقدي البشرية . وافترض هؤلاء المؤلفون أنه كان يعرف تماما ساعة تعذيبه وصلبه ، لذلك لم يترددوا في القول بأن عيسى ذهب الى القدس لاتمام رسالته الالهية على الصليب الذي ينتظره هناك .

أما المؤرخ فانه لا يجد مناصا من الوقوف أمام الغموض والابهام اللذين يحيطان بالتفسير الواقعي لشخصية عيسى ولاغراضه الحقيقية من هذه الرحلة ، هل أحس احساسا مباشرا بنفسه ؟ ان الوقائع الصريحة تدعونا الى الايمان بذلك ، والحق يقال ، انه ليس من السهل علينا تصور امكانية نجاحه فيما كان يسعى اليه ؛ فدعوته الاخلاقية لم تكن لتحمل مغزاها وتؤتي ثمارها الا في حالة تدعيمها ببعض الاشارات المنبئة بقرب ذلك اليوم العظيم الذي بشر به . ولم تكن هذه الدعوة لتجد سندها الطبيعي الا في تحقيق كلمته .

ولكن الاشارات ، أي العلامات لم تظهر ولم تتحقق كلمة النبي . فاضطر المؤمنون به ، بعد زمن بعيد ، الى القول بأن الاتباع الاول لم يفهموا حقيقة كلام المعلم وأنه هو قد أبهم لهم الحديث وجعله رموزا . ولو اعتمدنا على وصف دخوله لمدينة القدس دخول المنتصر بين هتافات الجماهير ، لظننا انه كان يؤمن ايمانا راسخا بوصوله الى الحق وبدعوته اليه ، وانه أيقن أن هذا الحق لن ينجلي عنه النقاب الا في القدس حيث يقوم اليوم الموعود بجلاله ورهبته . غير أننا ، من جانبنا ، نشك كثيرا في صحة هذا الوصف .

ومهما يكن الامر من أغراض أو آمال عيسى ، فقد أخطأه التوفيق

في الانتقال الى هذا المجتمع الذي لم يكن بمجتمعه والذي كان يسيطر عليه أعداؤه الطبيعيون •

هل قام في المدينةببعض الاعمال المثيرة ، مثل تحدي التجار الذين يبيعون ويشترون على أعتاب المعبد ؟ قد يكون ذلك ••• على أي حال فأننا نعتقد أن الحاكم الروماني كان يعرف « الملهمين » من اليهود من قبل ، ويعرف أيضا أنه يجب عليه الاحتياط منهم • لذلك لم يكن من العسير على العلماء والقساوسة ان يقنعوه بخطر هذا الرجل من أهل الجليل الذي لا أصل له ، وبضرورة وضع حد للفوضى التي يثيرها ، حفاظا على النظام • فأمر بيلاطس بالقبض على عيسى ، وحاكمه ، وصلبه [1] • ولم يتدخل الشعب في شيء •

والارجح أن جهود محرري الاناجيل في سبيل ابراء ذمة الحاكم الروماني والقاء تبعة الجرم كله على كاهل اليهود ، لا ترجع الى وحي الحقيقة وواقع التاريخ ، بل الى الرغبة في عدم اثارة السلطات الرومانية في عصر لم يكن المسيحيون يجدون ملجأ سواها امام كراهية أهل المعابد اليهودية •

ولم يكن عيسى قد توقع ما حدث له في القدس ، وارتباك اتباعه وهروبهم هو الدليل الواضح على ذلك • ولقد بدا وكأن حكم بيلاطس العنيف كان الضربة القاضية على احلامه ، والقاصمة لدعوته • ومن المرجح أن نفسه في أواخر أيامه ، قد تملكها القلق فيما يتعلق بالمستقبل والحيرة فيما يتعلق بالحاضر ، ولعلها — ولم لا ؟ — قد تملكها أيضا الشك في ذاتها وأقضتها فكرة الموت الذي اقترب ، غير أننا لا نجد من الأدلة ما يسمح لنا بالقول بأنه رأى حينئذ أن صلبه أمر ضروري لاتمام

---

(١) ان المؤلف نفى — فيما قبل — نفيا باتا قاطعا ان يكون المسيح قد ادعى « البنوه » واعتبر ذلك من السفه الديني وهنا يتحدث عن عقيدة الصلب فلا يحيطها بما يحيطها به المسيحيون من مغزى وانما كانت لان الحاكم راى ان يحتاط للحكم ويخلص الاقليم من فوضى فصلبه للامن ولم يتحرك احد من اتباعه لانقاذه او حتى للشفاعة من أجله ، على ان النصوص الصريحة لا تؤيد المؤلف ذلك واذا كان بعض المؤرخين يشك في وجود المسيح — مجرد الوجود — فهل مع ذلك يمكن لانسان ان يؤكد الصلب ؟

رسالته ، بل كلها تشير الى أنه لم يدّع شيئا من هذا • والحق يجب أن يقال : ما دامت المعجزة التي بشر بها لم تتحقق ، وما دام «يهوه» لم ينشر ظله على الارض ، فما عسى به أن يفعل سوى أن يلجأ مسرعا الى الجليل ، أو ان يحني رأسه أمام قدره المحتوم ؟ ولعله فكر في العودة الى مسقط رأسه • وقد ظن البعض ذلك ، اعتمادا على انجيل متى الذي يروي أنه ضرب لاتباعه موعدا بالجليل • وعلى أي حال ، فلم تتح له فسحة من الوقت كافية لتحقيق هذه الخطة ، ان كان قد اختطها •

ـ ب ـ

كان من شأن « فضيحة الصليب » ـ وهذا التعبير يرجع الى القديس بولس ـ أن تضع ، فيما يبدو ، حدا لمحاولة عيسى • فلقد قام للتبشير بأحداث لم تتحقق ، ثم مات ، وتشتت اتباعه في ذعر شديد ، وذهبوا الى حد التنكر للامل الذي غرسه الاستاذ في قلوبهم • فندموا على الخطأ الذي وقعوا جميعا فيه ، أو لعنوه •

ويجب علينا أن لا ننسى أنه لم يؤسس شيئا : لم يأت بدين جديد ، ولا حتى بأي من طقوس العبادة جديد • لم يأت الا بتصور شخصي فريد للتقوى في اطار الديانة اليهودية ، تلك الديانة التي لم يزعم قط أنه يبغي التغيير من معتقداتها أو من شرعها وشعائرها • واعتمدت تعاليمه على فكرة حلول مملكة الله التي آمن بها هو كما آمن بها سائر مواطنيه ، الا أنه فهمها وعبر عنها بطريقته الخاصة • ويجدر بنا الاشارة الى أن هذه الطريقة الخاصة نفسها قد لا تكون أصيلة لديه ، بل لعله أخذها عن غيره من سابقيه • أما أن تنسب اليه ارادة تأسيس كنيسة ••• كنيسة تكون كنيسته هو ••• كنيسة تختص بالعبادات والطقوس التي يعينها لها والتي يظهر فيها رضاه عنها ••• كنيسة يمهد لها فتح الارض جميعا ••• فهذا قول لا يقره واقع الاحداث ، ولا صريح التسلسل التاريخي •

ولن نتعدى الحق أن أضفنا : أن كل ذلك لا يمكن اعتباره الا

تحريفا [1] لفكرته ، وأنه لم يكن ليرضى عنه قط لو نمى الى علمه منه شيء •

ولكن ماذا كان ليبقي منه اذن ، ان نحن استثينا بعض الحكم الاخلاقية ، وهي ولا شك مفيدة ولكنها أقل أصالة مما توصف به عادة ، ولم تتعرض لذكرى فضائله الرقيقة ولسحر شخصيته ؟ ••• ماذا كان ليبقي لنا من عيسى ؟

ان المنطق يجيب على هذاالتساؤل اجابة صريحة : لا شيء •

الا أن تتابع الاحداث بعد ذلك بدا وكأنه لا يساير المنطق •

فقد انتصر الايمان الوثيق لدى أصحاب المسيح على الموت نفسه • وهنا نصل الى أكثر مشاكل التاريخ المسيحي غموضا وابهاما : فقد تلاقى هؤلاء الحواريون بالجليل ، بين أحضان ذلك الاقليم الذي يعرفونه والذي عاشوا فيه مع أستاذهم • وظنوا أنهم رأوه هناك ، ثم ايقنوا انه بعث من بين الاموات •

تلك هي الوقائع • أما تفاصيلها ، فليس لدينا بها علم • ولم يكن للاساطير بد من أن تحاول تفسير الوقائع ، فصنعت منها نسيجا بالغ التعقيد والغموض اختلط فيه العجب العجاب من الاحداث الخيالية المستحيلة ، وتعذر بعد ذلك استخلاص الحقيقة منه لتضارب النصوص وتباين رواياتها • وان روايات الانجيل التي وصلت الينا والتي تتعلق ببعث عيسى ، لتبدو للمؤرخ الناقد نوعا من الانشاءات التي لا تنسجم عناصرها ، قد بنيت على ذكريات مبهمة وتفاصيل متعارضة ، ثم على « حكايات » قديمة من تلك التي تعود عليها العالم الشرقي • ولكن ••• ما هو أساس هذه المسألة ـ اذ لا بد وأن يكون هناك شيء بالذات قد أثار الحديث عنها ؟

أساسها فيما يبدو ، على أرجح الاحتمالات : رؤيا رآها بطرس ، تلتها رؤي جماعية •

وتلك ظاهرة لها أمثلة أخرى في تاريخ الاديان •

---

(١) والمؤلف العالم المسيحي صاحب المركز العلمي الممتاز لا يعتبر المسيحية الحالية الا تحريفا لفكرة السيد المسيح •

ويجب أن لا ننسى أن أصحاب عيسى ، وان رحلوا من القدس في رعب وحيرة ، بعد ان خاب ما كانوا يتوقعونه ، وبعد أن نزلت بهم الضربة العنيفة المفاجئة القاصمة لآمالهم ، فلعلهم لم يستسلموا لليأس كل الاستسلام ، وكان أيمانهم بصدق عيسى مع ذلك أقوى من ترددهم. فلما انتهت الفترة الاولى من الاضطراب ورجعوا الى تلك البيئة التي عاشوا فيها معه واستمعوا اليه ، عاد تأثير حديثه قويا ، بالغ القوة وخاصة بالنسبة الى بطرس . كانت دعوة عيسى لديهم مرتبطة بشخص عيسى نفسه ، فأن هم اقروا باختفائه الى الابد ، كان ذلك اقرارا بالتخلي عن كل أمل لهم في تحقق كلمته . وتبلور ايمانهم وركز على فكرة واحدة ثابتة هي قولهم لانفسهم : « لا يمكن أن يكون عيسى قد تنكر لنا ، ولا يمكن أن يكون موته أمرا نهائيا » . وكانت النتيجة المحتومة لمثل هذا التبلور والتركيز ـ لدى أمثال هؤلاء السذج المتحمسين في أملهم وترقبهم ـ أن يروا الرؤي ويصدقوا بها . وهكذا قدر لبطرس أن يرى عيسى ، ثم رآه من بعده حواريون آخرون في نفس الصورة التي وصفها لهم . وسواء أرجع الامر الى التهيؤات والاحلام او الى تفسير محموم لظواهر حسية معينة ، فالنتيجة واحدة : وهي أن الصيادين من أهل الجليل لم يكونوا ليستطيعوا تحليل ما حدث لهم ، بل استسلموا كل الاستسلام الى ما ظنوه من وحي الله .

وأدت الرؤي بالحواريين الى الاقتناع بأن عيسى « حي » أو ـ على الاقل ـ بأنه حي « بروحه » التي مجدها الله . ولكن الاقتناع بأنه حي يقتضي الاقتناع بأنه لم يعد ميتا . واذا لم يكن بين الاموات ، فلا جدال ـ في نظر يهودي هذا العصر ـ في أنه قد بعث ، ولا نقول قد بعث « بجسده الذي ووري في الارض » ولكن نقول أنه بعث « بجسد ما » . واذا افترضنا أن أصحاب عيسى لم يؤمنوا بادىء ذي بدء الا بالبعث « الروحي » ، فلا نشك في أنهم لم يستطيعوا الحفاظ على هذا المفهوم فترة طويلة ، حيث أن التفكير الشعبي لا يمكنه أن يتمثل البعث الا في صورة العودة الكاملة للحياة [١] ، فضلا عن أن نصوصا مختلفة

---

(١) هكذا مثلا نرى بعض الناس ، اثناء حياة عيسى ، يؤمنون بأنه ليس سوى يوحنا المعمدان بعث الى الحياة من جديد (انظر : انجيل مرقس ، ٦/١٤) .

من الكتب التي أرادوا أن يتقدموا بها تبريرا لفكرة بعث عيسى فرضت عليهم الايمان بأنه خرج من قبره بعد ثلاثة أيام من مواراته الارض ، أو في اليوم الثالث • وعلى أساس عقيدة اصحاب عيسى هذه رسخت أسطورة البعث ، ثم نمت وتطورت على الاخص في ربوع اليونان •

ولن نزيد هذه المسألة الثانوية تفصيلا الان ، مكتفين بالاشارة الى أن دعامة عقيدة البعث هي تصريح الحواريين الذين قالوا : « لقد رأيناه ، لقد بعثه الله »• ولكن هذا التصريح كان يفترض نتيجة وخاتمة :

لماذا أخرج الله عيسى من عالم الاموات ••• ان لم يكن قد خصه بدور أساسي في حادث جلل يوشك أن يكون ؟ ••

اما الحادث الجلل ، فلا شك في أنه هو حلول مملكة الله التي وعد بها عيسى •

وأما الدور الذي اختص به الاستاد ، فلا جدال في أنه هو دور المسيح المرتقب •

وهناك نصان من نصوص مجموعة « أعمال الرسل » يسمحان لنا حتى يومنا هذا بأن ننفذ الى الشريان النابض لتفكير الحواريين في هذا الصدد (٢/٣٢ ، ٣٦) :

يقول النص الاول : « هذا المسمى بعيسى ، لقد بعثه الله ، وانا جميعا على ذلك شهداء » • ويأتي الثاني بمغزى الحديث فيعلن : ليعلم سائر بيت اسرائيل علم اليقين ان الله قد جعل من هذا المسمى بعيسى الذي اضطهدتموه سيدا ومسيحا » ولا نجروء هنا بطبيعة الحال ، على التصريح بأن هذا التعبير المنسوب الى القديس بطرس تعبير أصيل يرجع فعلا الى من نسب اليه ، بل اننا نؤمن بعكس ذلك ، حيث ان استخدام كلمة سيد (كيريوس) توحي بأن المحرر (الكاتب للنص) كان ذا أصل يوناني أو ثقافة يونانية ــ أي أن التعبير ينتمي الى النصوص التي يتضح فيها أثر المجتمع اليوناني على المسيحية ــ غير أن تقابل الآيتين بما فيهما من تأكيد ، يتجاوب مع واقع نفساني محقق •

ولو لم يكن ايمان الحواريين ببعث استاذهم ، « لما كانت المسيحية»، وعلى أساس من هذه الفكرة قيل (انظر كتب ولها وسن) : ان عيسى

« لولا موته » لما دخل قط في سجل التاريخ • ولكن ، هل يمكننا الدفاع عن النظرية العكسية ، والقول بأن العقيدة الاساسية للمسيحية تعتمد علـى هذا البعث •

ان لفكرة البعث من وجهة النظر العقائدية أهمية قصوى ، ولا يمكن أن تضفي عليها المبالغة شيئا جديدا الا بصعوبة ، بل انه ليبدو لنا من صراح الحق أن تتخذ عنوانا ثانويا لكل رسالة في العقيدة المسيحية الاصيلة من تلك الكلمة التي قالها القديس بولس في أول رسالة له الى أهل كورنثيا (١٥ ، ١٧) : « ان لم يكن المسيح قد بعث ، فايماننا لا سبيل له » •

ومن جانب آخر ، فان المفكر ، ان هو حلل ظهور عقيدة المسيحية وانتشارها من وجهة النظر التاريخية البحتة ، لن تبدو له فكرة بعث عيسى أقل شأنا وخطورة : فبسببها أصبح الايمان بـ « السيد عيسى » أساس دين جديد لم يلبث أن انفصل عن اليهودية واتخذ ، في نظر الناس ، صورة الطريق الالهي نحو النجاة • وبسببها أيضا تسربت اثار الاسطورة الشرقية القديمة التي تدور حول فكرة إله يموت ثم يبعث ليسير بأتباعه نحو حياة الخلود ، تسربت الى ضمير المجتمعات المسيحية ــ أو على الاقل منها تلك المتأثرة بالفكر اليوناني ــ فلم يلبث عيسى أن تحول بها من مسيح يهودي وشخصية محلية لا أثر فيها للتراث اليوناني ولا يفهمها أهل اليونان ، الى « عيسى المسيح ، السيد والمنقذ ، ابن الله وخليفته على الارض ، الذي يهتف باسمه سائر المؤمنين وتنحني لـه الخليقة كلها اكبارا واجلالا » ــ على حد تعبير القديس بولس •

وما دام الاتباع قد قبلوا مبدأ البعث في ايمانهم ، فلم يكن لهم بد من أن يبادروا باعلاء شأن هذا الايمان وباعادة تنظيمه •

ونقول هنا « اعادة تنظيم الايمان » : ذلك أنه قد وضح للعيان استحالة استمراره معتمدا على حديث عيسى فحسب • لقد حول موته من مجرى العقيدة ، حيث فرض هذا الحادث أثره على الصورة المرسومة ليوم القيامة والعالم الآخر •

وعلى ذلك ، قيل أول الامر : ان عيسى لم يمت الا ليبعث • فالبعث

هو الدلالة العظمى على التشريف الذي خص به ٠

ثم انتهى الامر ذلك الى أن أصبح هذا المـوت : السر الاعظم ، والنهاية المحتومة والهدف الاول من حياة عيسى كلها ومن عمله ٠ فقيل : « جاء عيسى الناصري في هيئة رجل الهمه الله ، يكثر من المعجزات ويعمل الخير ٠ وقتله الاشرار ٠ الا أنه كان هو المسيح المختار ٠ وقد بين الله ذلك اذ بعثه من بين الاموات في اليوم الثالث ٠ وقريبا سوف يعـود في مجده السماوي ليقيم المملكة التي وعد بها » ٠

وكانت فكرة قرب حلول مملكة الله الفكرة الاساسية في دعـوة عيسى ، اما دعوة الحواريين فقد تحولت الى فكرة مركزة هي أن عيسى هو المسيح الموعود والى قرب عودته لهذه الدنيا ٠ وهذان هما الموضوعان اللذان توضح لنا مجموعة « أعمال الرسل » ان « الاثني عشر » مـن الاصحاب سوف يعودون بهما الى القدس لشرحهما وتنمية اسرارهما ٠

ولا مناص لنا من الاعتراف بأن هؤلاء الاصحاب كانوا يمتازون بخيال دافق يزيد عن الحد ، اذ أن المنطق وواقع الاحوال كانا ينبئان في صراحة بأنهم لن يلاقوا من النجاح أكثر مما لاقاه أستاذهم ، وبأنهم لا بد سائرون الى مثل ما سار اليه من مصير محتوم ٠

لم يؤمن اليهود بعيسى أثناء حياته ، فكيف يتعلقون به الآن وقـد تجمعت الدلائل على أنه غرر حتى بنفسه ، فلم يستطع لها نجاة يـوم التعذيب بل مات بائسا والناس تنظر اليه ؟

أيقولون انه قد بعث ؟ ولكن من هم الشهود على ذلك ؟ أنهم هم الاتباع فحسب ، فما اضعفه من برهان ٠٠٠

والحق يقال أن الاثني عشر لم يلاقوا في القدس من النجاح سوى القدر اليسير الذي كان يمكن لاي رجل منصف أن يتوقعه : لقد كسبوا تأييد بضع عشرات من الناس مثلما هو الحال بالنسبة الى كل فرقـة دينية جديدة ، وحافظوا على صلات طيبة مع الشعب بفضل شدة تمسكهم بالتقاليد اليهودية ومواظبتهم على زيارة المعبد ـ ولنشر هنا الى أن تلك دلالة على عدم اهتمام استاذهم بالانفصال عن عقيدة اسرائيل وعلى عدم رغبته في ذلك ٠

ولكنهم أثاروا عداوة الكتبة والكهنة واحتقارهم ، ولاقوا منهم ألوانا من الاضطهاد . الا أن تواضع أصلهم وخلقهم الجانح للسلم ثم ايضا حسن علاقتهم بجمهور الشعب ، تلك المميزات أنجتهم من القتل (ولم تكن هذه الفترة بالنسبة الى الكثير منهم سوى فترة تأجيل لهذه النهاية المحتومة) .

وقد انضم اليهم بعض الاتباع من المدن المجاورة للقدس ، بيد أنهم وصلوا سريعا الى قمة ما كان مقدرا لهم من نجاح بين اليهود الاصلاء ، ولم يكن ذلك بالشيء الكثير ... بل بدا للعيان ضعف أمرهم ، وأصبح مما لا جدال فيه أن هذه الفرقة سوف تفني بفناء الجيل الذي نشأت فيه، وأن ذكر ىاتباع عيسى الناصري سوف يطويها نسيان الزمن كما طوى ذكرى اتباع يوحنا المعمدان وغيره من الانبياء .

سوى أن المقدر لم يكن ، وذلك بظهور عامل جديد في القضية غير وجهتها تغييرا شاملا : لم تستطع عقيدة أصحاب عيسى أن تشيد صرحها في مهد اليهودية ، فانتقلت الى ربوع اليونان . وسوف نفصل فيما بعد الطريق الذي سلكته . وقد نمت وترعرعت في مرتعها الجديد . ولا بد لنا أن نبين أسباب ذلك :

ففي العالم اليوناني يجب أن نبحث عن مدارج التطور الاول للمسيحية .

الفصل الثالث

عمل الحواريين

أ ــ الحواريون فلسطينيون • ما هي وجهة نظرهم ؟ ــ هناك يهود خارج فلسطين : الامة اليهودية في المهجر ــ كيف تكونت هذه الامة ــ تنظيم مجتمعاتها ــ دعوة معابدها ــ كيف وصلت هذه المعابد الى وفاق مع الفكر اليوناني ــ روح رواد المعابد اليهودية في العالم اليوناني : الخصائص التي جعلت هذه الروح على استعداد لقبول الدعوة المسيحية •

ب ــ التأليف الديني لدى الامة اليهودية في المهجر ــ الماندائيون ــ الناظوريون ــ الهبزستيون والسابازيون ــ كيف مهدت هذه الفرق للمسيحية •

ج ــ كيف عبرت عقيدة الحواريين الطريق الى مجتمعات الامة اليهودية بالمهجر : روايات مجموعة « أعمال الرسل » ــ بارنابا في انطاكيا ــ غموض وضعف عمل الحواريين في فلسطين •

ــ أ ــ

كان أصحاب عيسى وأتباعه الذين اطمأنوا الى قوة ايمان القديس بطرس ، فتجمعوا ــ بعد فترة الرعب الاولى ــ ليحاولوا اعادة بناء الحلم الضائع واسترجاع الآمال التي غرسها استاذهم في القلوب ، كانوا يهودا سذج بسطاء ليس لهم شأن في قومهم ولا يمتازون بثقافة كبيرة • وعلينا أن لا ننسى ذلك ، فآفاقهم الفكرية لم تكن بأوسع أو أبعد حدودا من أفق عيسى ، واقتصر طموحهم على الرغبة في دفع « الخراف الضالة من بيت اسرائيل » نحو طريق النجاة • وجميع الدلائل تحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا شديدي التعصب لبني جلدتهم من اليهود ــ على الاقل في بدء الدعوة ــ وفاقوا في ذلك عيسى نفسه ، وكانت فكرة تبشير الوثنيين

بعيدة كل البعد عن عقولهم ، بل الواقع أنه كان من ضروب المستحيل أن يتصوروا امكان انتشار الانجيل بين رجال لم يؤمنوا بالعقيدة اليهودية قبـل ذلـك .

ولكن عددا وفيرا من اليهود في ذلك العصر كان يقيم خارج فلسطين وكان يحسب حسابهم عند البحث في شئون بني اسرائيل .

وهناك أسباب عديدة دفعت باجداد هؤلاء اليهود المقيمين خـارج فلسطين الى الهجرة خلال القرون الاربعة السابقة للمسيحية . أول هذه الاسباب كان ما فرضته عليه ظروف تاريخهم : فبلادهم التي تحدهـا مملكة البطالمة بمصر والمملكة السلوقية بسوريا كانت ميدانا للكثير من المعارك التي خاضها المصريون والسوريون . وفي أثناء الغزوات أسر أولئك وهؤلاء الكثير من الناس ، ولم يعد الاسرى بعد ذلك الى وطنهم . وتكرر الامر كثيرا خلال ذلك النضال الطويل من أجل الاستقلال الـذي كافح فيه المكابيون ضد ملوك سوريا . ثم تكرر بعد ذلك لصالح الرومان عندما قاتلوا نطاكيوس الاكبر وعندما تدخلوا في الفتن المحلية التي ثارت بفلسطين في فترات مختلفة . ومن ناحية أخرى ، فقد أظهر اليهود ، عنـد حالة حسن معاملتهم ، قوة ودأبا على العمل واخلاصا له . لذلك حاول البطالمة والسلوقيون أن يستقدموا مجموعات كبيرة منهم ، ونجحوا في ذلك ، فاستقر البعض في دلتا النيل وفي ليبيا ، والبعض الآخر ببـلاد الليديين بفريجيا . وأخيرا ، فأن فلسطين لم تكن بالبلد الـذي يختص بموارد للثروة لا تنفد بينما اليهود قوم يمتازون بالتكاثر السريع ؛ ودعا هذا بالكثير منهم ــ بعد أن ضاقوا بالعيش في موطنهم الفقير ــ الـى البحث عن رزق جديد في مختلف الاقاليم التي يسيطر عليها أسيادهم الاجانب ، ووجد عدد غير قليل منهم الرخاء والثروة حيث حلوا . لذلك لم يكن اغراقا كبيرا في المبالغة الشعرية أن يعلن يهودي من الاسكندرية محدثا قومه قبل مولد المسيح بقرنين من الزمن : « الارض جميعا ملأى بكم وأيضا البحار » .

وكان يخيل كذلك الى العالم الجغرافي « سترابون » الذي عاصر المسيح أن الانسان يجد اليهود في كل مكان . والواقع أنهم كانوا قد

انتشروا حول حوض البحر الابيض المتوسط كله ، غير أنهم لم يلتقوا في جماعات كثيفة الا بالمدن الاغريقية الكبيرة وبربوع ما بين النهرين ، ثم بروما ــ تلك المدينة التي كان يقيم فيها ، في عهد الامبراطور أغسطس ، حوالي أثنا عشر الفا من اليهود •

وأينا حل اليهود فهم عامة لا ينسون أصلهم ولا دينهم ؛ لذلك نراهم يتكاتفون وينظمون صفوفهم ويسعون لدى سلطات البلاد التي يقيمون فيها للحصول على حقوقها الشرعية في الحياة • وكانوا ينتظمون من الناحية الزمنيةفيجماعات لها رؤساؤهاوحكامها وقضاؤها وتقاليدها • أما من الناحية الروحية فكانت تجمعهم المعابد التي يقصدونها للاستماع الى تلاوة النصوص المقدسة ، وللصلاة والتعبد الجماعي • وكانت لهذه المعابد أيضا حكوماتها الصغيرة ؛ وقد تعمد الجاليات اليهودية الكبرى ــ مثل تلك التي كانت بروما ــ الى تقسيم اعضائها بين عدة معابد • وسمح الامراء الاغريق والسوريون والمصريون لليهود المقيمين في ممالكهم بكل ما طالبوا به من تنظيمات ، بل منحوهم امتيازات شتى • وسار الرومان على نفس المنوال ، فأصبح بنو اسرائيل يتمتعون بدستور فعلي يحميهم في سائر أرجاء الامبراطورية • ولم يكن هذا الدستور يقتصر على السماح لهم باقامة شعائر دينهم والتصريح لجماعاتهم بما تريد من نشاط ، بل ذهب في العطف عليهم الى حد مراعاة حساسيتهم الدينيةما أمكن مراعاتها، ومحاولة ارضاء ميولهم ونزعاتهم في كثير من الاحيان •

الا أن أهل المدن التي كثر فيها اليهود كانوا ينظرون اليهم في شيء غير قليل من الغضب ويناصبونهم العداء ، وذلك لاسباب عدة ، منها : تلك الامتيازات العريضة التي ذكرناها والتي هيج تكبرهم الطبيعي من شعور الناس ازاءها ؛ ثم ذلك الاحتقار الذي كانوا يبدونه تجاه الديانات الوطنية والذي دفعهم اليه بالطبع ، في كثير من الاحوال ، ما وجدوه من حماية السلطات ؛ كما كانت تؤخذ عليهم عيوب وتقاليد غير مألوفة ، نذكر منها على الاخص : غرابة الطقوس في المعابد بالنسبة الى عامة الوثنيين الذين لم يجدوا بها ما اعتادوا عليه في معابدهم ، وفرض الختان ، وتحريم بعض أنواع المأكولات التي أتت الشريعة الموسوية بتحريمها • ثم كانت

هناك فوق كل هذا افتراءات بالغة الاثر ضد اليهود من تلك التي يؤمن بها عامة الشعب في سهولة : أن طقوسهم الدينية تقتضي سفك الـدم الآدمي ، أو أنهم يتجهون في عبادتهم لرأس حمار .

وقد تميز العالم الاغريقي الروماني بعداء محقق للسامية يكاد يصل الى حد العنف والقسوة على اليهود ، ولولا مراقبة سلطات الامن للامـر بشدة ـ وان أفلت منها الزمام في بعض الاحيان ـ لقاسى بنو اسرائيل الامرين من ذلك الشعور . ولهذه الظاهرة التي ذكرناها منذ بداية حديثنا أهمية قصوى : ذلك أن شعور العداء والبغض لدى الشعب بالنسبة الى اليهود سوف يتحول في سرعة سريعة الى المسيحيين [١] .

الا أن اليهود ، مقابل هذا الشعور الشعبي العدائي ، كانوا يتمتعون عادة برعاية الحكام ، بسبب روحهم الطيعة واخلاصهم للعمل وصبرهم عليه ، وكانوا كذلك يستثيرون أهتمام وعطف هاتيك الفئة من الناس التي لم ترض عن العبادات الوثنية الشائعة لما تشتمل عليه أساطير بالغة العقم وطقوس مرذولة ونظريات فيما وراء الطبيعة لاسند قوي لها . وفي هذا العصر الذي شوهد فيه بدء رواج الاديان الشرقية الزاخرة بالعاطفة بدت اليهودية لهؤلاء الذين تدفعهم طبيعتهم الى تفهمها وكأنها أبسط الاديان قاطبة وأسماها وأرقها .

ومن ناحية أخرى ، نرى طوائف اليهود التي اتصفت في بلادهـا الاصلية بالحذر والانطواء واساءة استقبال الاجنبي ، تتخذ في بـلاد الوثنيين أخلاقا أكثر ليونة وكرما . فقد أصبحوا لا يغلقون معابدهـم امام المشركين ، بل يتسامحون فيستقبلونهم على أعتابها ولا يمتنعون عن تعريف الراغبين منهم بأحكام الشريعة الموسوية . وقد ترجمت هـذه الشريعة الى اليونانية ، فصار في استطاعة كل انسان مثقف ان يدرسها .

وهكذا اجتمعت شيئا فشيئا حول كل معبد طائفة من المريدين الذين ذهب البعض منهم الى نهاية الشوط في اعتناق اليهودية ، فأقيمت لـه

---

(١) جمع « ت. ريناك » سائر الوثائق اليونانية الرومانية الخاصة باليهود ، وترجمها وحققها في كتاب له صدر بباريس عام ١٨٩٥ : « نصوص من المؤلفين الاغريق والرومان » .

طقوس الطهارة والختان وفرضت عليه القرابين للمعبد المقدس وأصبح واحدا من بني اسرائيل • اما البعض الاخر ، فلم يبلغ من التحمس هذا المبلغ ، مكتفيا بارتياد الحلقات التي كانت تقام على أعتاب المعابد ، بصفة منتظمة أو غير منتظمة ، وبالمساهمة المادية في نفقات هذه المعابد ، ثـم باعتناق الكثير أو القليل من العادات والتقاليد الخاصة بالحياة اليهودية ، على قدر ما كانت تسمح به مكانتهم الاجتماعية • وسموا من أجل ذلـك بـ « المتقين الله » • ولا شك في أنه قد تكونت منهم جموع غفيرة بجوار الطوائف اليهودية الكبرى في الشرق وفي مصر • اما في روما ، فمـن المؤكد أن بعض اعضاء الطبقات الشريفة ، وخاصة منهم النساء ، قـد انضموا اليهم مع آخرين من مختلف الاوساط الاجتماعية •

ولم يكن يهود المهجر قد احتفظوا بالصورة الاصيلة الكاملة لعادات وروح اخوانهم في الدين من أهل فلسطين • فقد لانت تلك العادات وتلك التقاليد ، ولان معها تعصبهم وعداؤهم لـ « الاجنبي » في ربوع هـذه البلاد التي لم تكن لترضى بهم لولا ذلك ؛ واقاموا صلات يومية مستمرة بمجتمعات « الكفرة » ، وتأثروا في قوة وعمق بتيارات الثقافة اليونانية التي انغسموا فيها شيئا فشيئا•فاذا ما تركنا جانبا عقيدتهم الدينيةوفروض طقوسها الاساسية ، وجدنا أن هؤلاء اليهود ــ بعد جيلين أو ثلاثة مـن الهجرة ــ لا يفترقون في لغتهم ومظهرهم وثقافتهم العامة ، عن الاغريـق الذين يماثلونهم في الظروف الاجتماعية • وأظهر الذين ارتقوا منهم الى أعلى مراتب التعليم اعجابا عميقا بأدب اليونان وفلسفتهـم ، وامتـزج فكرهم بهذا الادب وهذه الفلسفة الى حد الشعور بأنه لـم يعـد في استطاعتهم التخلي عنهما لارضاء الشريعة الموسوية ، كما لا يستطيعون التخلي عن تلك الشريعة في سبيلهما • لهذا نرى فيلون ــ وهـو المثـل الواضح لهؤلاء اليهود الذين تشبعوا بالروح اليونانية ــ نراه فـي الاسكندرية يحاول مخلصا أن يبرهن على عدم التعارض بين الوحـي الذي نزل على موسى والاحكام التي جاء بها وبين نظريات افلاطـون وزينون ، وعلى أن المرء لا بد له من الاقتناع بذلك اذا أحسن فهم مقاصد

الفيلسوفين [1] .

لهذا أيضا رأينا بعض العقائد التي اعتبرها يهود فلسطين عقائد أساسية ، تضعف وتذوب لدى اخوانهم باليونان . مثال ذلك عقيدة انتصار الامة اليهودية ، فقد ابتعدت عن الصورة القديمة لها مع ما امتازت به من تعصب وعنف وضيق أفق ، وأصبحت تنحو نحوا آخر هو الدعوة الى فتح العالم كله لاسرار الحقيقة .

ومقابل ذلك رأينا اتجاهات فكرية ، غريبة على بني اسرائيل الاصلاء ، تفرض نفسها عليهم وتؤثر في مذاهبهم . ونذكر ، على سبيل المثال : تشبعهم شيئا فشيئا بالفكرة اليونانية التي تقول بازدواج الشخصية الانسانية . فلم يعودوا يعلقون أهمية كبيرة على مصير الاجساد في العالم الآخر،وراحوا يبذلون العناية كلها للتفكير في مستقبل ارواحهم. وتلك مسألة لم يكن يهود فلسطين قد شغلوا أنفسهم قط بانشاء عقيدة واضحة فيها .

ولا غرابة اذن في تلك الظاهرة التي نلاحظها لدى الاتباع الجدد للدين اليهودي ، من الاحتفاظ بمقومات الثقافة والفكر المنتشرة في بيئتهم الاصلية : فلم يكن هناك ثمة ما يدعوهم الى احتقار تلك الحضارة التي صورها لهم معلموهم الاول على انها اجمل الحضارات قاطبة وأكرمها بالنسبة الى الانسان العاقل . فاذا ما اعتنقوا اليهودية على نحو ما ، لم يكن ذلك الا على أساس تطويرها مع اتجاهاتهم الفكرية ، وعدم التخلي عن الآراء أو تقاليد الحياة التي نشأوا عليها ، الا في حدود ما بدا لهم أنه يتعارض تمام التعارض مع ما يأخذونه من الدين الجديد .

ولهذه الاسباب كانت طوائف اليهود في المهجر وكذلك « المتقين الله » أكثر استعدادا من يهود فلسطين لمناقشة ما يدعيه الحواريون ، ثم للاقتناع به اذا بدت لهم الحجة قوية ؛ وقدأظهر « المتقون الله » ميلاخاصا الى ذلك

---

(1) انظر كتاب اميل برهيه « التفكير الفلسفي والديني عند فيلون الاسكندري » ، باريس ، ١٩٠٧ .

ولهذا أيضا كان الخطر كبيرا على العقيدة العيسوية ـ وهي العقيدة البسيطة غاية البساطة والتي اثبتت التجربة مرونتها الكبيرة ـ عندما انتقلت الى المعابد اليهودية في بلاد اليونان : خطر الانحراف والتطبع بخصائص الفكر اليوناني •

ـ ب ـ

ويتضح لنا هذا الخطر اذا علمنا ان اليهود ، في بعض مناطق المهجر ، لم يكتفوا بالتطور الاجتماعي وفقا للبيئة التي يعيشون فيها ، ولم يكتفوا باعادة تنظيم عقيدتهم الدينية أو ـ على الاقل ـ تفسيرها لانفسهم بما يتفق وثقافتهم مع صيانة جوهرها كاملا لم يكتفوا بذلك ، بل راحوا يخلطون باليهودية بعضا من أفكار ومعتقدات المشركين الوثنيين المحيطين بهم ، في نفس الوقت الذي كانت فيه طوائف من المشركين الوثنيين تعتنق الكثير من المعتقدات اليهودية الاساسية لتمزجها بأديانها المختلفة • ونحن لا نعلم شيئا كثيرا عن التركيبات العديدة وتيارا تالتأليف [1] التي نشأت عن هذا التداخل ، الا أن ما نلمحه منها خلال الوثائق يكفي للدلالة على أهميتها القصوى •

فاذا نظرنا مثلا الى الجالية اليهودية ببلاد ما بين النهرين ، وجدناها تقيم في مركز ممتاز بالنسبة الى تأثيرات ايران وبابل ، وان ظنت هذه الجالية انها محصنة أمام كل تأثير اجنبي • وايران وبابل هما البلدان اللذان نبعت منهما تآليف دينية بالغةفي الاغراب انتظمتفي مذاهبمتفاوتة الانسجام لتفسير الوجود والحياة ، مذاهب للمعرفة الخاصة التي لا يرقى اليها سوى طليعة من الناس ولا تؤتى لهم الا الهاما أو بعد تدرج في مراتب السلوك على أيدي العارفين • وعلينا أن نذكر على الاقل واحدة من التآليف الدينية التي نشأت في هذه البيئة واتخذت من اليهودية عنصرا أساسيا من عناصرها : تلك هي الماندائية وهي نوع من التوحيد بين اليهودية وبين العقائد البابلية • ويبدو أنها كانت ، فيما بعد ، أساسا مبدئيا لانشاءات دينية أخرى تهم تاريخ المسيحية •

---

(1) Syncretisme وهو الاسم الذي تعارف الكتاب على اطلاقه على الانشاءات الدينية التي تنتظم عناصر تابعة من اديان مختلفة .

وثمة جالية ثانية تهمنا كثيرا في نفس المجال ، هي تلك التي كانت تقيم ببلاد الفريجيين . وقد امتازت هذه البلاد ، خلال كل العصور القديمة ، بحياة دينية نشطة . فلما جاء اليها اليهود شكلوا باديء الامر جماعة أو جماعات منعزلة عن مجتمعات الوثنيين ، ولكنهم لم ينجوا في النهاية من تأثير هذه المجتمعات كما اثروا فيها بدورهم . وتتيجة لذلك رأينا المشركين يتبنون الكثير من المعتقدات الدينية اليهودية ويمزجونها بمعتقداتهم المحلية . وكانت العبادة التي اختص بها الفريجيون في ذلك العصر هي عبارة « الأم الكبرى سيبيل » ورفيقها « أتيس » . وقد لقب الاخير بلقب « هيز ستيوس » ، أي : « الاعلى » ، وهو لقب يهودي الاصل ، يوازي في معناه ما نجده في عقيدة كلدانية أخرى تقول بأن مقام الآلهة « فوق الطبقات الكونية السبع والسماء بنجومها »
كذلك اذا أردنا تقصي أصول الالفاظ ، فأنه يمكننا القول في يسر بأن اسم « سابازيوس » ــ وهو اسم الاله الفريجي الذي يعادل جوبيتير او ديونيزيوس ــ ليس سوى « ساباوت » اليهودي . واننا لنلمح من خلال الوثائق الغامضة ــ ولشد ما نأسف لعدم وضوحها ــ فرقا من أنصاف اليهود « الهيستيين » و « السبتيين » أو « السابازيين » تشارك جميعها في أمل واحد هو : النجاة في عالم خالد والحياة السعيدة الى ما لا نهاية، بعد الموت ، بواسطة شفاعة « منقذ الهي » . وان وحدة الروح بين اعضاء كل من هذه الفرق لتتمثل في مشاركتهم في مأدبة تقام حسب طقوس معينة وفي جو من التعبد والتقرب الى الاله . ولعل أمثال هذه المآدب قد ارتقت منذ ذلك الحين الى مرتبة أسرار القربان المقدس ، أي : أن من شأنها افاضة العناية الالهية على المشتركين فيها ، أو تأهيلهم خاصة لهذه العناية [1] .

ونشاهد نشأة تركيبات وامتزاجات مماثلة بين العقائد في بلاد أخرى ، نخص بالذكر منها : مصر وسوريا . وسوف نحدد فيما بعد

---

(١) انظر كتاب كومون : « الديانات الشرقية في العبادات الرومانية »، باريس ، ١٩٠٩ .

تأثيراتها المختلفة على التفكير الديني لدى القديس بولس •

واذن ، فقد تشكلت الفرق العديدة القائمة على أساس من اليهودية للتأليف بين العقائد وللمعرفة الباطنية وانتشرت خاصة حول فلسطين ، وليس من المستبعد أن تكون قد تفرعت بين ربوعها ، في العصور السابقة لمولد المسيح ، بفضل وفود الحجاج الكبيرة الى القدس من يهود المهجر في مواسم الاحتفال بأعيادهم السنوية • وإنا لنقرأ عن فرقة من هذه الفرق ــ فرقة « الناظوريين » التي انتشرت على ضفاف نهر الاردن قبل مولد المسيح ــ نقرأ عنها في كتابات أحد المؤلفين المسيحيين من القرن الرابع هو القديس ابيفان • ولم يكن هذا الكاتب بالمنصف في كل ما كتبه ، الا أنه استطاع أن يجمع المعلومات الواردة عن أمثال تلك الفرق الشرقية • ويحدثنا ببعض التفصيل عن فرقة (الناظوريين) فيقول بأن أتباعها لم يعترفوا بمعبد اليهود كمركز لطقوسهم ولكنهم ساروا على تقاليدهم الاخرى ، ولم يقبلوا الشريعة اليهودية على أنها شريعة الهية متأثرين في ذلك بالتيارات الفكرية الخارجية ، ثم انهم كانوا يعتبرون أنفسهم « قديسين » بالنسبة الى بقية البشر ــ وكان هذا رأي المسيحيين الاول أيضا في بدء دعوتهم • ومن ناحية أخرى ، يمكن أن نفسر الاسم الذي اتخذوه لفرقتهم بالرجوع الى كلمة « ناظر » العبرية، التي ترجمها اليونان بكلمة « هاجيوس » ، أي : « قديس » • وينطبق هذا التفسير أيضا على اللقب الذي أطلق على عيسى • وكان هؤلاء الناظريون في أغلب الظن شديدي التحمس لفكرة حلول مملكة الله • ولعلهم كانوا السابقين الى التفكير في « المسيح المنتظر » ، والى القيام بطقوس معينة من أجله ، على غرار ما كانت تقوم به فرق أخرى أكثر اغراقا في الشرك منهم بالنسبة الى « الاله المنقذ » الذي تتهيأ له ، متأثرة في ذلك باتجاهات دينية خارجية مختلفة •

وأن ما تجمع لدينا من معلومات لا تكفي لان نقطع بالرأي في كل ما يتعلق بهذه الفرق اليهودية التي نزعت الى تأليف وتطوير عناصر مختلفة من الاديان الموجودة حينذاك • غير أن مجرد وجودها يدل دلالة واضحة على اتصال الروابط بين اليهودية بمعناها الحقيقي وبين الاديان الاخرى المختلفة في غرب آسيا ، تلك الاديان التي شاركت اليهودية في فكرة ترقب

أو عبادة « منقذ الهي » وان تفاوتت أشكال هذا الترقب وتلك العبادة •

ونتيجة لهذا : يمكن القول بأن انتشار فكرة حلول مملكة الله الفلسطينية الاصل خارج حدود فلسطين في صورة مجددة ودراسة الكثير من معابد المهجر اليهودية لهذه الفكرة بعين الاعتبار ، ثم تسربها الى المجتمع المحيط بالمعابد مثل رواد « حلقات العتبة » ، بل الى مجتمعات قد تكون أقل صلة بالمعابد من هؤلاء ، يمكن القول بأن كل ذلك ليس بالامر الغريب بداهة •

ويدل وجود هذه الفرق أيضا أن عقيدة وتقاليد معابد المهجر كانت أكثر ليونة وتقبلا للتطور من مثيلتها في ربوع فلسطين ، وأنه كلما ابتعد اليهود عن المعبد الاكبر ــ معبد القدس ــ وكهنته ، كلما أصبح تعصبهم للشريعة اليهودية ضعيفا امام بعض العوامل الخارجية ، فينزعون في بعض الاحوال الى التعبير عن شعورهم الدني في صورة أقرب الى الفطرة وأكثر انسجاما مع المشاغل الدينية العامة للوسط الذي يعيشون فيه والذي لم يكن له بد في النهاية من التأثير عليهم •

وبعبارة أخرى ، نستطيع القول بأن اليهود و « أنصاف اليهود » خاصة في المهجر كانوا ــ فيا يبدو ــ أكثر استعدادا لقبول دعوة أصحاب عيسى من يهود القدس وفلسطين • هذا وأن كان الخطر كبيرا على هذه الدعوة من أن تصبح عنصرا جديدا ومؤثرا لا يعرف مدى قوته يضاف الى كل تلك العناصر والمؤثرات الداخلة في التركيبات الدينية المعقدة لدى الكثير من الطوائف التي ذكرناها •

ـ ج ـ

مرت دعوة أصحاب عيسى في عبورها من ربوع فلسطين الى أراضي المهجر بأدوار غاية في التسلسل ، وكأنها أدوار حتمية لا مرد لها • فمجموعة « أعمال الرسل » تقص علينا أن الحواريين استمالوا الى عقيدتهم بعض يهود اليونان الذين وفدوا الى القدس في الاحتفالات الخاصة ببعض الاعياد • وعادت فئة من الحجاج الى ديارها فور انتهاء هذه الاحتفالات ، بينما بقيت فئة أخرى بالمدينة المقدسة ، غير انها لم تلبث أن طردت منها اثر مقتل الشماس اتيين على أيدي قضاة اليهود • وكان

اتيين هذا قد تخصص في شرح واذاعة الانجيل بين رحاب القدس التي ينفق عليها يهود اليونان (انظر : « أعمال الرسل » ، ٩/٦ وما يليها و ٥٧/٧ وما يليها) •

ورحل الانصار الجدد المطرودون ، رحلوا الـى فينيقيـا وقبرص وانطاكية ، حيث راحوا بدورهم يبشرون بعيسى في المعابد (انظر : « أعمال الرسل » ، ١٩/١١ وما يليها) •

« وتحدثوا أيضا الى أهل اليونان » ، أي : الى « المتقين الله » ، « وآمن الكثير من هؤلاء اليونانيين بالسيد المسيح » •

ولم يكن أصحاب عيسى هم السبب في هذا النشاط ، بل لم يكن يدور في خلدهم تدبيره ؛ فلما علموا بنتائجه ، بعثوا الى انطاكية برسول مؤتمن ، يدعى برنابا ، ليدرس هذا الموقف الذي يبدو أنه أثار لديهم الشكوك والقلق • غير أن حماس الاتباع الجدد لم يلبث أن اتنقـل الى برنابا نفسه الذي رأى في ظاهرة انتشار الدعوة نفحة الهية ، فكرس كل جهوده في اخلاص عميق لمواصلة هذه المبادأة المثمرة في مجال العمل التبشيري • ورحل الى طرسوس حيث كان يقيم حينئذ بولس ، وعـاد به الى انطاكية ليشركه في عمله • وكان بولس هو الدعامة الكبـرى للمسيحية المستقبلـة •

اننا نعلم تماما أن الحواريين الاثني عشر والاتباع المباشرين لعيسى لم يكونوا ليستطيعوا القيام بنشاط يذكر في القدس ،بل كان موقفهم هو موقف استاذهم فيما مضى ، وكانت تتهددهم عين الاخطار التي هددته • وكانوا ، بدلا من تبشير الاستاذ بوشك « حلول مملكة الله » يبشرون بـ « عودة السيد المسيح » ، الا أن هذه وتلك صنفان من الادعاءات التي لا بد وأن تضعف اركانها اذا طال انتظار تحقيقها • لذلك ، كان من العسير أن نبين ، على وجه التحديد ، ما قام به أصحاب عيسى الاول من أعمال • لقد تجمعوا حول بطرس وحنا اللذان يبدو أنه قد انضم اليهماأخـــوة الاستاذ في زمن مبكر ، اذ أن بولس نفسه يقول عن احدهم ــ وهــو يعقوب الاصغر ــ أنه كان يعيش مع بطرس بين مجموعة من اتباع عيسى بالقدس •

وغالب الظن أن هؤلاء الاتباع عاشوا عيشة تمتاز بالحيوية خلال اقامتهم في المدينة المقدسة ولم يبتعدوا عنها كثيرا •

وتدعي بعض الاساطير اللاحقة أن أندريا قد ارتحل الى بلادالسيخ، بينما توجه يعقوب الاكبر الى اسبانيا ، وأخوه حنا الى آسيا الصغرى ، وتوماس الى الهند والصين ، وبطرس الى كورينثيا وروما • وليست قصصهم جميعا بالضاربة في الخيال ، الا أن الجزم بصحة أي منها أمـر محـــال •

وخلاصة القول أنه لم يتبق لدينا أي معلومات يمكن الاعتمـاد عليها عن حياة أصحاب عيسى المباشرين ، سوى الفصول الاولى مـن مجموعة « أعمال الرسل » • وحتى هذه الفصول لم تصل الينا الا في نسخة تختلف كثيرا ــ وبصورة تدعو الى الشك ــ عن النص الاول •

وان هذا الصمت ليدعو الى الاعتقاد بأنهم لم يقوموا بأعمـــال خارقة • والمرجح أنهم لم يكونوا ليستطيعوا ذلك •

ولعلنا نستطيع القول بأن بطرس ويعقوب الاكبر ويعقوب الاصغر وأيضا ــ في غالب الامر ــ حنا ، ماتوا قتلى • وقد نستطيع أيضا أن نتتبع ــ من خلال كتابات المؤلفين الذين تخصصوا في الفرق الدينية [1] ــ تلك المجموعات الدينية الصغيرة التي أنشأوها على أساس من العقائـد اليهودية ، والتي التجأت الى الاراضي الواقعة جنوب نهر الاردن أثناء الثورة اليهودية الكبرى عام ١٦٦ • وبدت تلك المجموعات منذ وقت مبكر متأخرة كثيرا في عقيدتها عما يؤمن به المسيحيون في ربوع اليونان، ولم يمض القرن الثاني للميلاد حتى أصبح هؤلاء المسيحيون ينظرون اليها نظرة استياء ، وأثرها المباشر على تاريخ المسيحية لا يكاد يذكر •

أما الروح الجديدة التي أحيت المسيحية ، فقد أتتها من بيئـة أخـرى •

---

(١) امثال القديس ايرينيه في القرن الثاني ، ومؤلف الـ « فيلوسوفومينا » المجهول في القرن الثالث ، والقديس ابيفان في القرن الرابع ، الخ ...

الفصل الرابع

بيئة القديس بولس

أ ـ طرسوس : مدارسها ومدى اشعاعها ـ التربية الفكرية للقديس بولس ـ كيف أصبح حواريا لعيسى ـ خلقه ـ مدى أصالته ـ عناصر عقيدته وأهمية البحث فيها .

ب ـ الآلهة المنقذون في الشرق اليوناني : مدى التشابه والامتزاج بينهم ـ أسطورة موتهم ثم بعثهم في مواسم سنوية معينة ـ أصل هذه الأسطورة ومعناها الاول ـ أمثلة تطبيقية من العقائد الخاصة بميثرا وأوزيريس وأدونيس وتموز ـ مأساة حياة وموت الآلهة .

جـ ـ التفسير الميتافيزيقي لهذه القصص الالهية ـ كيف ترمز الى أسرار المصير الانساني ـ حتمية مشاركة الانسان في مصير الاله المنقذ من أجل أن يصل الى عالم الخلود ـ كيف كانت تتم هذه المشاركة ـ التعميد بالدم ومأدبة القربان (مراسم التضحية بالثور عند المشركين والمأدبة الالهية)ـ تشرب الالهـ تشابه هذه الطقوس مع طقوس التعميد والقربان في المسيحية ـ نظرية « المنقذ » في الاسرار وفي تفكير القديس بولس .

د ـ هل كان القديس بولس على معرفة بـ « الاسرار » ؟ ـ عقيدة طرسوس (بعل طرز وسندان) ـ « أسرار » أخرىـنظريات واحتمالات أثر طرسوس الديني على بولس ـ أثرها الفلسفي ـ خصائص العقيدة اليهودية في طرسوس ـ بولس كان خليقا بدوره كداعية للمسيحية بين الكفار بفضل الصفات الثلاث التي امتاز بها : الروح اليونانية ، الديانة اليهودية ، الجنسية الرومانية .

ـ أ ـ

ذكرنا اسم القديس بولس في سياق فصولنا السابقة . وعلينا هنا أن ندرس في عناية البيئة التي نشأ فيها وآثارها عليه .

لقد ولد من عائلة يهودية أقامت بمدينة طرسوس في سيليقيا ووجدت لها بها رزقا . وكانت طرسوس مدينة نشطة غاية في النشاط ، تقع على نهاية حدود اقليم سيليقيا وتعتبر مفتتح سبل النفوذ اليه ، كانت حلقة الاتصال بين هضبة آسيا الصغرى وبين الشام ، ومفرق الطرق التجارية الهامة التي تجلب اليها في آن واحد ، من اليونان وايطاليا وفريجيا وكابادوسيا والشام وقبرص وفينيقيا ومصر ، سيلا لا ينقطع من الأفكار والعقائد والتأثيرات المختلفة . وحاول ملوك الشام ـ ونخص بالذكر منهم أنطاكيوس ايبفان (عام ١٧١ قبل الميلاد) ـ أن يصبغوها ، بالصبغة الاغريقية . غير أنها بقيت ، أساسا ، مدينة شرقية ـ وذلك ، على الاقل ، في مجال المعتقدات السائدة ، وان انتشرت فيها وازدهرت المدارس اليونانية ، وقام بين رحابها ما يمكن أن نسميه اليوم بـ « الجامعة » . ويقول المؤرخ الجغرافي سترابون عن تلك الجامعة : أنها كانت سببا لشهرة المدينة في العالم اليوناني الروماني ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية .

وكان أساتذة هذه الدراسات ينتمون الى المذهب الرواقي . ويبدو أنهم لم يكتفوا بغرس تعاليم هذا المذهب في أذهان الطلبة الذين يتابعون حلقاتهم ، بل راحوا ينشرون مبادئه الأساسية وقضاياها الاولى وشعاراته المثيرة ، بل وروحه ، على نطاق أوسع ، في شبه « حملة تبشيرية » ذات طابع شعبي يتفق مع طرق تفكير الجماهير . وهكذا نستطيع أن نجد تفسيرا للأمر الذي يهمنا بالدرجة الاولى ، وهو معرفة بولس للمبادىء الاولى في الفلسفة الرواقية ، وللوسائل الشائعة في الأساليب الخطابية لدى المفكرين اليونانيين ، وذلك مع ترجيحنا انه لم يكن من رواد جامعة طرسوس ولا من دارسي الفلسفة الرواقية . فقد كفاه أنه عاش سني شبابه في هذا الوسط الذي تشبع بالتراث اليوناني على أيدي أساتذة الفلسفة هؤلاء ، الذين جمعوا بين التفكير الفلسفي والأسلوب الخطابي .

وتزعم لنا مجموعة « أعمال الرسل » أن بولس نشأ بالقدس « بجوار جماليل » ، أي بمدرسة من ألمع المدارس اليهودية في ذاك العصر • وليس في وسعنا بطبيعة الحال نفي هذا الخبر بصورة قاطعة ، ولكننا نستطيع القول بأنه على أي حال لا يتفق كثيرا مع الصورة العامة التي تكونت لدينا من دلائل مختلفة : فلا نفهم مثلا أن تلميذا من تلاميذ كهنة فلسطين تصل به الحال الى تجاهل وانكار أساتذته كما فعل بولس في طور من اطوار حياته ، بينما نراه أحسن التعبير عن الروح اليهوديةالتي كانت تسود ــ على ما يبدو لنا ــ في معابد المهجر المتأثرة بالفكر اليوناني [1] • أغلب الظن في رأينا أنه تلقى فعلا العلوم الخاصة بأصول اليهودية واستوفاها ، وتدرج في الدراسات الدينية الى أبعد حدودها ولكن في غير القدس من المدن ؛ فلم تكن فلسطين هي الموطن الوحيد للعلماء اليهود • ونحن نعلم علم اليقين ان منهم من كان يقيم أيضا بالاسكندرية وبأنطاكية ، والدلائل تشير الى أن بولس قد أكمل دراساته بهذه المدينة الأخيرة •

وخلاصة القول أن صاحبنا ولد بأرض يونانية ، يتحدث بلغة اليونان ويكتبها منذ نشأته الأولى • وكان ينتمي الى عائلة ذات شأن ، ويحمل لقب « مواطن روماني » وراثة عن أبيه ؛ فكان بكل ذلك معدا اعدادا تاما لادراك وتفهم التطلعات الدينية لدى يهود المهجر الذين يؤمنون بعيسى كما آمن به هو ، ولدى المتتلمذين عليهم من الطوائف الدينية المختلفة • وكان في البدء على عداء عنيف للمسيحيين ، ثم تحول الى صفهم على أثر أزمة نفسية لن نتعرض لها الآن بالتحليل التفصيلي ، بل نكتفي بالقول بأنها كانت نتيجة لصراع داخلي مبهم طويل • ولقد انتهت هذه الأزمة الى رؤيا حاسمة،حيث أيقن بولس أنه أبصر بالسيد المسيحأو تلقى منه كلمات واختص منه بالتشريف الاعظم : أن يكون من الحواريين؛ وذلك خلال رحلة له قاصدا دمشق • ويجب أن نشير هنا الى أن بولس لم يلتق بعيسى مدة حياته ؛ لذلك لم تكن تأملاته عن شخص الأستاذ

---

(١) انظر ، فيما يتعلق بهذه المسألة الهامة كتاب ك. ج. مونتيفيوري: « اليهودية والقديس بولس » ، لندن ، سنة ١٩١٤ .

وتعاليمه لتحدها آفاق الذكريات والواقع كما كان الحال بالنسبة الى الاثني عشر من الحواريين الذين بدأوا بالدعوة • ويجب أن نشير أيضا الى الصفات التي تميز بها بولس والتي كانت من سباب نجاحه : الروح الحماسية الوثابة ، والمنطق البين المدرب على المناقشة ، ثم التفكير العملي الحي والعزيمة التي لا تقهر والتي تفرض فرضا رسالة صاحبها وآراءه •

وان هذه الاراء لتبدو لنا عميقة الأصالة ، اذا ما قورنت بتلك التي اكتفى بها ايمان الاثنا عشر — حتى بعد تطوراته الاولى • ولا أدل على ذلك من قراءة الفصول الاولى من « أعمال الرسل » بحذافيرها ، ثم قراءة « الرسالة الى أهل روما » التي كتبها بولس • ولكن يجب ان لا تغرنا الظواهر • فعبقرية بولس في التفكير الديني لا جدال فيها • غير أننا اذا بحثنا هذا التفكير لديه ، لوجدنا أنه ينطوي على آراء ومدركات ليست كلها من وحي عبقرية صاحبه الخاصة ، بل تجمعت لديه من مصادر مختلفة ، وان كان له هو الفضل في التعبير عنها ونقلها الينا ، على غرار ما فعله فيلون الاسكندري في مؤلفاته التي انتظمت بين دفتيها جهودا كثيرة لسابقيه من مفكري اليهود •

والدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى [1] تكشف لنا النقاب عن مزيج من الافكار يبدو ، لاول وهلة ، غريبا حقا : مزيج من دعوى الاثنا عشر الأساسية ، ومن الافكار اليهودية — التي يرجع بعضها مباشرة الى النصوص المقدسة القديمة ، بينما يرجع البعض الآخر الى اعتبارات دينية حديثة نسبيا — ثم من المفاهيم المنتشرة في الأوساط الوثنية اليونانية، ومن الذكريات الانجيلية والأساطير الدينية الشرقية •

وعلينا أن ندرس هذه المسألة في شيء من التفصيل ؛ فهي تتعلق بالأسس الأولى لأخطر جدال يثيره تاريخ العقائد المسيحية : الجدال حول تطور هذه العقائد من دعوة عيسى ، كما حددناها في الفصول السابقة ، الى دين يهدف الى خلاص البشر أجمع •

والنظرة الأولى الى الحياة الدينية في الشرق الأسيوي — من بحر

---

(١) واقصد بها الرسائل المعروفة التي يجمع اكثر النقاد اليوم على صحة نسبتها اليه .

ايجة الى ما بين النهرين ـ تبين أن عددا معينا من الآلهة كان يحتل مكان الصدارة فيها خلال العهد الأول لقيام المسيحية • وكانت بين هذه الالهة أوجه شبه لا تحصى ، الى درجة أنها امتزجت وتوحدت في بعض الأحيان• وكان أهمها : أتيس في بلاد الفريجيين ، وأدونيس في الشام ، وملكارت في فينيقيا ، ثم تموز ومردوك في ربوع ما بين النهرين ، وأوزيريس بمصر• وعلينا أيضا ، اذا أردنا الانصاف ، ان نذكر الاله الفارسي ميثرا ، الذي بدأت شهرته في تلك العصور بين رحاب الامبراطورية الرومانية • وكان القوم الذين يرتحلون من اقليم الى آخر ينقلون معهم عباداتهم وعقائدهم الدينية ، بل وينشرونها في كثير من الأحيان خارج موطنهم ؛ ذلك أنهم كانوا يلقون ، أينما حلوا في هذا العالم الأسيوي المتقارب ، مظاهر ومشاغل دينية شبيهة لتلك التي نشأوا عليها ، والتي عبروا عنها في صور أسطورية واحدة ، وأرادوا تمجيدها بطقوس متقاربة كل التقارب في غالب الأمر • وأننا لا نرجح نظرية نشوء هذه الأساطير وتلك الطقوس الى تطورها من بعضها البعض : إنها تشابهت لفيضها من نبع فكري وروحي متشابه • وكانت هذه القرابة سببا في تسهيل المبادلات الكثيرة بين أصولها ، وفي الاسراع بالتداخل والتفاعل النشط بين عناصرها ، فأصبحت تتسم بطابع « عائلي » قوي لافت ، وان ظلت هناك اختلافات بائنة بين القصص الالهية التي تعتمد عليها جميعها • وقد نزع تيار الامتزاج هذا بين الاديان ـ الذي يعرف بـ « التأليف » الديني الشرقي ـ الى استخلاص بعض التصورات الهامة والشعائر الاساسية من ثنايا السيل الدافق لتفاصيل العقائد والطقوس التي تلاقت فيه وتفاعلت : وتلك التصورات والشعائر هي التي نلمحها قبل كل شيء عند دراسة أي من تلك العبادات التي ذكرناها آنفا ، وهي تعتبر في الواقع العلة الأولى الواضحة لوجود كل هذه العبادات بما تهدف اليه من هدى بني البشر للايمان وللسبيل الكفيلين بتحقيق خلوده في ديار السعادة •

وان الخاصة التي تثير الانتباه أكثر من كل الخصائص الأخرى لآلهة المنطقة ، عند دراسة تاريخهم الأسطوري ، لهي تلك التي بمقتضاها يموتون في موسم معين من السنة ، ثم يبعثون بعد ذلك في موسم آخر ، فيشعلون في نفوس المؤمنين بهم مشاعر الأسى العميق ، ثم يستثيرون

لديهم مظاهر الفرح التي تكاد تصل الى حد الجنون • ونلاحظ ، الى جانب هذا ، أن هؤلاء الآلهة ليسوا في حد ذاتهم بالآلهة العظماء البالغين في العظمة ، بل انهم يشبهون البشر من قريب في الكثير من أحوالهم ــ وذلك ، على الأقل ، ان نظرنا الى تاريخهم الاول أ فهم عرضة للفناء • وبعضهم ــ أمثال أتيس الراعي ، أو أدونيس الذي يروي انه ثمرة علاقات غير مشروعة بين أخ وأخت ــ لم يكونوا سوى رجالا آلهتهم ارادة الآلهة الآخرين ؛ ولم يرتفعوا شيئا فشيئا الى مرتبة أعلى من مرتبتهم البشرية الأولى ، ولم يصلوا الى مصاف الآلهة المهيمنة على الأرض ، الا بفضل الأهمية الكبيرة التي اعطيت بالتدريج لوظائفهم بالنسبة الى الانس • وسوف نفصل فيما يلي السبل التي انتهت بهم الى ذلك •

لقد ثارت منافشات كثيرة مطولة حول أصل هذه الآلهة المختلفة ، وحول مبدأ ورموز الأساطير التي يمثلونها • والجدل ينحصر اليوم بين نظريتين فحسب ، وان كانت الواحدة منهما لا تلغي الاخرى : فاما القول بالآلهة « الشمسية » ، واما التفسير بـ « المواسم الزراعية » • ولكن العلة الأولى في كلتا الحالتين لا يمكن أن تكون الا : تتابع الفصول المنتظم على مدار الزمن ، سواء نظرنا اليه من زاوية المدار الظاهري للشمس أم من ناحية ظواهر نمو النباتات • وقد نبعت من انتظام الفصول تلك الأسطورة التي تزعم أن الاله يموت في بدء الشتاء ، ثم يبعث على أبواب الربيع • على هذا يمكن القول بأن بعض الآلهة التي ذكرناها كانت ، في الأصل ، آلهة « كوكبية » ، بينما كان البعض الاخر ينتمي الى فصيلة « آلهة الزراعة » • ولكن ، بمرور الزمن ، حدثت بين هذه الصور الأولى أنواع من التداخل الطبيعي ، فأصبحنا لا نستطيع الجزم باليقين دائما في الأصل الأصيل أو الخصائص الأساسية للكثير منها •

والظاهر أن ميثرا كان الها شمسيا ، لذلك احتفل بمولده في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر أي في موعد الانقلاب الشتوي • ويبدو أن أوزيريس كان الها قمريا ؛ ولعله لم يكن كذلك في البدء • أما تموز ، فهو من آلهة الزراعة ، يقضي عليه قيظ الصيف وتحييه أول نسمات الربيع • وهكذا الحال بالنسبة الى أدونيس ، وبالنسبة أيضا ــ على ما

نظن ــ الى أغنب هؤلاء الآلهة الذين يموتون ثم يبعثون : فالعلاقــة الواضحة بين حياة الشمس وحياة الأرض تفسر لنا في يسر كيف تحول أرباب الزراعة الى أرباب للكواكب • وعلى أي حال فأننا نلاحظ أيضا أن أغلبهم على رابطة وثيقة بآلهة أم ، تتمثل فيها الأرض أو الطبيعــة الخصبة ، وهي التي في حجرها تربوا أو التي منحتهم عطفها ورعايتهــا أو أحبتهم حب المرأة للرجل : هكذا نجد « الأم الكبرى سيبيل » فــي أسطورة أتيس ، وأفروديت بالنسبة الى أدونيس ، واشتار مع تموز ، وايزيس اذا نظرنا الى قصة أوزيريس • لذلك جمع الناس في العبادة بين هؤلاء الأرباب وبين هاتيك الشخصيات الالهية النسائية ، بل أقاموا لهم الشعائر في معابدهن وكأنهم ضيوف لديهن •

ويهتم الدراسون الى يومنا هذا بالطبيعة الأولى لبعض الآلهــة ؛ وما زالت لهذه المسألة أهمية كبرى في تاريخ الأديان • بيد أن الأمر الذي يهمنا في المقام الاول هو الصورة التي رسمت والتفسير الــذي أعطي للأساطير الخاصة بموت وبعث هؤلاء الآلهة • ونحن في غالب الامر نجــد المعلومات التي نعتمد عليها متوفرة في وصف الاحتفالات التي كانت تقام تكريما لهم • وكل حفل منها يمكن أن يعتبر « مأساة » مسرحية تمثل ، في أسلوب موت الآله ثم بعثه • وقد تكون الطقوس مزدوجة ؛ وأقصد بذلك أنه كان يقام احتفالات في موسمين معينيين من كل سنة • وفــي هذه الحالة يرتفع أحد الاحتفالين الى مرتبة من الأهمية أعلى ، في أعــين الناس ، على حساب الثاني • هكذا كان الامر مثلا بالنسبة الى الاحتفال الخاص بموت تموز في تمام موعد الانقلاب الصيفي ، وكذلك الاحتفال بموت أدونيس ؛ وبين الالهين المذكورين صفات مشتركة كثيرة تؤدي أحيانا الى الخلط والاشتباه • أما بالنسبة الى مردوك ، والى الآلهــة الشمسية عامة،فان أهم الاحتفالين هو ذلك الخاص بانتصارهم أوبعثهم بعثا جديدا • وعلى النقيض من ذلك قد نجد في بعض الاحيان تجميعا لعيدي الآله في حفل واحد ، يقام في الربيع أو في الخريف ، ويبتدىء بنعــي الاله الميت ثم لا يلبث الناس أن يمجدوا بعثه من جديد • ولنضرب لذلك مثلا بالطقوس التي كانت تقام لموت وبعث أتيس في النصف الثاني مــن

شهر مارس مع حلول الاعتدال الربيعي •

ـ ج ـ

تطورت أسطورة موت وبعث الاله هذه بتطور الشعور الديني • واننا لا نريد أن ندخل هنا في تفاصيل هذا التطور ، فمن شأنها ــ وان حاولنا الاختصار قدر الامكان ــ ان تخرجنا عن حدود الموضوع الذي يهمنا ، لذلك نكتفي باثبات الصورة النهائية التي وصلت اليها •

وفيما يلي الخطوات المختلفة التي يسيرها الاله ــ في مخيلة الناس أذ ذاك ــ للقيام بهذا الدور •

يتعذب الاله ، تماما كما يتعذب الانسان ؛ ثم يموت ، كما يموت الإنسان ؛ ولكنه يتغلب على العذاب وعلى الموت ، اذ يبعث من جديد ؛ وأتباعه يمثلون رمزا ويجددون كل عام ، بشكل ما ، مأساة حياته على هذه الأرض ، وهم ، مع هذا ، يؤمنون بأنه يتمتع بحياة السعادة في ديار الخلد الالهية منذ ذلك اليوم الذي بعث فيه حقيقة في الماضي السحيق • فمشكلة « النجاة » اذن بالنسبة الى بني البشر ، بعد أن شاركهم الاله في ظروفهم الانسانية بعذابه ثم بموته ، تتلخص في الوصول الى أعمق اعماق المشاركة المصيرية حتى تنتهي بهم أيضا الى البعث والحياة الأخرى في ديار السعادة اللانهائية • والسبيل الى ذلك وجدوه في نوع من الطقوس المسرحية التي تنحو نحوا باطنيا ، فيفرض في المؤمن أنه يشارك في الذات الالهية بواسطة سلسلة من المراسم الدينية توصف بالفعالية• انه يمرّ رمزيا بمختلف مراحل التجارب التي مر بها الاله•وبهذه الوحدة مع الاله ، التي تغير كيانه الخاص ، يضمن الانسان أن يصير الى مصير الاله نفسه ، أي أن الخلود ينتظره بعد محن الحياة الدنيا وبعد الموت • وكان مصير « المنقذ الالهي » ــ وتلك هي الصنعة التي يتخذها حينئذ آلهة الموت والبعث ــ كان مصيره في آن واحد مثالا وضمانا لحياة المؤمن • وقد وصف لنا « فرميكوس ماترنوس » ــ وهو أحد الكتاب المسيحيين من القرن الرابع ــ احتفالا ليليا من الاحتفالات التي كانت تقام لمثل هؤلاء الآلهة ، « الآلهة المنقذين » ، قال : يبكي الناس ، ويستسلمون للرعب من المصير المجهول الذي ينتظرهم في المستقبل

اللانهائي ؛ ثم يمر بكل كاهن ، فيلمس صدره حسب شعائر معينة وهو يهمس اليه في بطء بالكلمات القدسية التالية : « لتعد الثقة الى نفسك ، فقد نجا الآله • ولسوف تصل انت أيضا الى النجاة في نهاية طريق الآلام » •

ونحن لا نعلم على وجه التحديد كيف كانت الوحدة تتم بين المؤمن و « المنقذ » في عبادات مختلف الآلهة المنقذين • ولكننا على يقين من أن هذه الوحدة كانت هي الهدف في سائر تلك العبادات ، من وراء بعض الطقوس التي نخص منها بالذكر طقسين يثيران الانتباه عند أول وهلة ، وهما : التعميد بالدم ومأدبة القربان •

وأننا لنجد في عبادة الفريجيين للالهة سبيل وللالهة أتيس ، كما نجد في بعض الديانات الأسيوية الاخرى المختلفة ، وفي تلك التي تؤمن بالاله ميثرا ، نوعا غريبا من الطقوس ، يدخل ضمن مدارج المعرفة الباطنية التي يختص بها الاتباع المخلصون ، ويدعى بـ « التوروبول » ، أي : التضحية بالثور [1] • ويحفر من أجله خندق داخل أسوار المعبد ، فينزل فيه المريد ، ثم تسدل عليه شبكة يذبح عليها ثور — حسب شعائر معلومة — وينهمر الدم في الحفرة ، فيتلقاه الذي بها ويحاول أن يغمس فيه سائر أعضاء جسده • وبعد اتمام هذا النوع من التعميد ، تنزع الاعضاء الذكر من الأضحية ، وتوضع في اناء مقدس ، ويتقدم بها السالك قربانا للالهة ، ثم تدفن تحت هيكل تذكاري •

ولم تكن هذه الطقوس تتعلق في الاصل بحياة المؤمن المستقبلة ؛ بل هدفت أول الامر الى منحه بعضا من روح سيبيل وأتيس ، وقد اختص الأخير في العبادة السائدة بتنظيم الطبيعة • ولا يختلف هذا عما كان عليه أهل اليونان في عبادتهم للاله ديونيزيوس الذي افترضوا له طقوسا لا تقل غرابة اليوم في نظرنا ، وكانت تهدف الى مشاركة الأتباع في روحه الخصبة عند دخولهم دينه •

---

(١) أو الـ « كريوبول » عندما تكون الاضحية كبشا .

(٢) نقرأ في بعض النصوص : « طقوس التوروبول والكريوبول مولد جديد في الخلود » . والنص ان اردنا الانصاف من عصر متأخر (القرن الرابع الميلادي) الا انه يعبر تعبيرا واضحا عن الهدف الاعظم من المراسم الخاصة بالتضحية .

ولكن ، مع بداية العصر المسيحي ، أثرت تيارات دينية وفكرية ، يصعب علينا تمييز معالمها وتحديدها ، على شعائر التضحية بالثور ، فطورتها في نهاية الأمر الى وسيلة فعالة لكسب الخلو في الحياة الأخرى ، حياة السعادة . وموجز تفسير هذا المذهب : ان الحفرة تمثل مملكة الأموات ، واذا ما نزل اليها المريد ، فكأنه مات . والثور هو أتيس ؛ أما دماؤه فتمثل جوهر حياته الآلهية ، ينزف منه ، فيتلقاه المريد ويتشربه ويمتزج به ، حتى اذا خرج من الحفرة اعتبر « مولودا من جديد » فسقي باللبن كما يسقي الوليد [٢] . ولكنه لم يولد من جديد بشرا كما كان : بل هو قد تشرب بذات الاله في جوهره ، وأصبح بدوره ـ حسب أدوار السر المقدس ـ الها هو نفسه أتيس ، وتدم له الفروض على هذا الاعتبار . ثم عليه بعد ذلك أن يتحد مع الالهة سيبيل كما فعل أتيس ، زوجها ، في سيرته الالهية ؛ والتقرب اليها بتقديم الاعضاء الذكر من الثور يرمز الى هذا الزواج الذي يتم روحيا في حجرة العرس الخاصة ب « الأم الكبرى » ؛ كما أن قطع الثور يرمز الى ما فعله أتيس ، اذ يروي أنه خصى نفسه تحت شجرة فمات من ذلك .

وبهذا يضمن المؤمن ـ لفترة طويلة [١] ـ مشاركته في مصير أتيس ، بالموت الذي لا مناص منه ، ثم بالبعث في ديار السعادة والخلود مع الآلهة .

وان الكثير من ديانات هؤلاء الآلهة المنقذين الشفعاء ـ أمثال : ميثرا ، وبعل السوري ، وسيبيل ، وغيرهم ـ كان يجدد الاتحاد المنحي المترتب على الشعائر والطقوس المذكورة ، أو يدعمه ويقويه ، بواسطة مآدب خاصة يتناول المؤمنون الطعام فيها جماعة على موائد الاله . ولا نشك في أن هذه المآدب الدينية لم تكن في كثير من الاحيان الا تعبيرا عن التآخي بين المؤمنين ورمزا بحتا لذلك . غير أن أحد الباحثين في مثل تلك الأمور ، وهو كومون ، يقول لنا : « كان الناس في بعض الحالات يترقبون نتائج أخرى للمأدبة التي يشتركون فيها . كانوا يطعمون لحم

---

(١) يبدو ان التضحية بالثور كانت تجدد بعد مرور عشرين عاما (هكذا على أي حال كان الامر في السنين الاخيرة للامبراطورية الرومانية) .

دابة يعتبرونها الهية ، ثم يظنون أنهم بذلك توحدوا مع الاله نفسه وشاركوه في جوهره وصفاته » • وأننا للأسف لا نملك الا القليل من المعلومات التفصيلية عن هذه المآدب الدينية وعن طقوسها وألوان الأطعمة التي كانت تقدم فيها ، وأن كان مغزاها العام واضح كل الوضوح • وقد نقل الينا جوستين ، وهو أحد المدافعين عن المسيحية في القرن الثاني الميلادي ، أن « أسرار » ميثرا احتوت على نوع من الشعائر يفرض تقديم كأس من الشراب وقطعة خبز الى المؤمن ، مع النطق ببعض العبارات المعروفة آنذاك والتي لم يوضحها الكاتب •

وتنقل الينا النصوص كذلك أن « أسرار » سيبيل وأتيس كانت تفرض على الأتباع المشاركة في مأدبة صوفية ، يصرح لهم بعدها بأن يعلنوا : « لقد أكلنا مما احتواه السنطور ، وشربنا مما كان في الصنج . فأصبحنا من اتباع أتيس » • والسنطور آلة موسيقية اختصت بها سيبيل ، بينما اختص أتيس بالة أخرى هي الصنج • وهناك من الدلائل ما يرجح أن الاطعمة المقدسة التي كانت توضع في هاتين الآلتين هي الخبز ، ثم – على وجه الترجيح – لحوم الأسماك المقدسة والخمر • ولا يفوتنا هنا الاشارة الى أن أتيس كان يمثل بحبوب القمح ؛ ولذلك نرجح الرأي القائل بأن مآدب القربان التي ذكرناها لا تعني فقط الجلوس الى موائد الاله وتناول الاطعمة التي يفترض أنه لا تعني فقط الجلوس وانما تذهب في رمزيتها الى أبعد من ذلك : انها تعني بالنسبة الى المؤمنين « أطعامهم الاله نفسه » وتشربهم بجوهره المنجى •

هل نحن بحاجة الى ايضاح اوجه الشبه الساطعة بين هذه الطقوس والشعائر المختلفة – حتى وان كانت النظرة اليها عاجلة سطحية – وبين طقوس وشعائر التعميد والقربان عند المسيحيين ؟ ان كبار رجال الكنيسة – من القديس بولس الى القديس أغوسطين ، أي من القرن الاول الى القرن الخامس الميلادي – لم يتجاهلوا هذا التشابه ، وهناك من الشواهد عدد وفير يدل على شدة اهتمامهم به • الا أنهم فسروه حسب أهوائهم ، فقالوا : ان الشيطان أراد أن يتشبه بالمسيح ، وان شعائر وطقوس الكنيسة كانت مثلا أراد المشركون أن يحتذوه في « أسرارهم » • وتلك

نظرية لا يمكن الدفاع عنها في عصرنا الحاضر • فمن المرجح أن المسيحية أثرت في كثير من الاحوال على أديان المشركين التي كانت مثلها تهتم بتأمين النجاة في الخلود لبني البشر بواسطة شفيع الهي ؛ الا أن الأساطير الجوهرية والمراسم الدينية الأساسية والرموز والشعائر الفعالة ، كانت سابقة في تلك الديانات على مولد المسيحية ، وكانت تجد العديد من التطبيقات في العبادات المنتشرة بالعالم اليوناني ابان العهد الذي عاش فيه القديس بولس •

ولنذكر القارىء بأن الامر لا يتعلق بطقوس وشعائر معينة فحسب، أنه يذهب الى مدى أبعد من ذلك : يذهب الى نوع من التصوير للمصير الانساني ولخلاص البشر ، ثم يرمز الى الايمان والاطمئنان المرتبطين بـ « السيد الالهي » الذي يشفع للانسان عند الاله الاعظم ، بعد أن ارتضى هذا « السيد الآلهي » لنفسه أن يعيش وأن يتعذب كالانسان ، حتى يصبح بنو البشر قريبين اليه لدرجة تسمح لهم بالاتحاد معه ، فيكون في ذلك طريق نجاتهم حيث يرتبط مصيرهم ومستقبلهم بمصيره ومستقبل انتصاره • وتلك هي بالذات عقيدة القديس بولس في رسالة ودور السيد المسيح • ولم تكن بالعقيدة الغريبة على الناس ؛ بل هي لم تتميز كذلك بالعنصر الاخلاقي فيها ، وان كانت قد بالغت في اظهار أهميته • ونعني بالعنصر الاخلاقي : الاشتراط على المؤمن باتباع حياة لا تتصف بالتقوى فحسب ، بل أيضا بالطهر والكرم والرحمة • فالعبادات الاخرى عند المشركين كانت تفرض أيضا على أتباعها مثل ذلك من الاخلاق ، وان لم تبلغ في التشدد فيها ما بلغته المسيحية •

— د —

ولكن ، هل أتيحت الظروف المواتية لبولس كي يتعرف على الافكار الجوهرية والطقوس الاساسية لهذه « الاسرار » في العبادات السائدة ثم يتأثر بها ؟ ذلك هو السؤال الذي يتبادر الى ذهننا الآن •

ان المعلومات التي وصلت الينا عن الحياة الدينية في موطنه ، طرسوس ، خلال العصر الذي عاش فيه ، ليست بالمعلومات الوافية • ولكن الآثار تدل دلالة قاطعة على أنه كان بها الهان لهما مكانة خاصة •

الاول يدعى « بعل طرز » ، أي « سيد طرسوس » ، وهو الذي قرن أهل اليونان بينه وبين زيوس •

والثاني « ساندان » الذي قرنه أهل اليونان أيضا بهرقل •

والاله الاول ، على أرجح الظنون ، كان اله زراعة قديم ، يتحكم في خصوبة الارض • فلما انتقلت عبادته الى المدينة وقرن شيئا فشيئا بزيوس ، ارتفعت مكانته ، واتخذ شكل وصفات اله السماء وسيد الآلهة ، وأصبح عرشه يعلو عن كل ما يمكن أن يبذله أتباعه من مساع لادراكه ، أو هو يوشك أن يكون كذلك •

أما ساندان ، فقد بقي قريبا من المؤمنين به ، بل يكاد يكون ملموسا لهم • واننا لنخرج ببعض القضايا المؤكدة من خلال دراستنا للوثائق القليلة التي وصلتنا عنه ، ومن المناقشات والنظريات التي أثيرت حولها :

كان ساندان هذا في الاصل اله خصوبة أيضا ، أو ــ بصورة أعم ــ اله زراعة • وكان الناس يحتفلون به كل عام ، فيتظاهرون باحراقه ويزعمون أنه يرتفع بعد ذلك الى السماء • وكان ، اذن ، يمثل بين أهل طرسوس نفس المعتقدات المتمثلة خلال هذا العصر في أتيس بين الفريجيين ، وفي تموز بين أهل بابل ، وفي أدونيس بالشام ، وأوزيرريس بمصر ، وغيرهم من الآلهة المشابهين في بلاد أخرى • بل نرجح أن عبادة ساندان كانت تبنت منذ ذلك الوقت بعض الافكار من دين أو أكثر من هذه الأديان •

ولكن ، هل أخذت كذلك عن تلك الاديان مذاهب المعرفة الباطنية وطرق الوصول الى النجاة الخاصة بها ؟ وهل يعتبر ساندان أيضا « منقذا » ؟ انه لسؤال مزدوج لا يمكن الرد عليه حتى يومنا هذا ردا فاصلا • فليس هناك من الوثائق ما يثبت في وضوح أنه كانت تقام له « أسرار » ، أو أنه كان يسمى بـ « المنقذ » • ولكننا نلاحظ أن الهة الزراعة الاخرين الذين يموتون ويبعثون ، كانت لهم « الأسرار » ، وكان أتباعهم يرون فيهم وسطاء بين البشر والاله الاعظم ، ويعتبرونهم شفعاء و « منقذين » • وهذا يدعونا الى الاعتقاد بأن ساندان لم يختلف عنهم • وعلى أي حال ، فلو لم ير بولس من مظاهر عبادته سوى الطقوس السنوية لتمجيد موته ، لكان ذلك وحده أمرا بالغ الأهمية •

ثم علينا أن نتساءل : هل كانت هناك عبادات أخرى ذات «أسرار» بطرسوس في بداية قيام المسيحية ؟ اننا نرجح ذلك ، بسبب موقع المدينة على مفترق طرق التجارة ، تلك الطرق التي كان الناس ينقلون بين أطرافها الافكار والمعتقدات الى جانب السلع والبضائع • ومع هذا يجب علينا الحذر فلا نقطع في المسألة دون تحفظ • وان قرب طرسوس من بلاد الفريجيين وصلاتها بالشام ، ثم علاقاتها الدائمة بفينيقيا وروابطها مع مصر ، كل ذلك يكاد يفرض علينا القول بأن أهل طرسوس كانوا على علم بروح « الاسرار » المنتشرة في مختلف هذه البقاع ، وموضوعاتها الاسطورية الهامة وآمالها الأساسية ، ثم بأنهم أقاموا لأنفسهم بعضا من شعائرها الأساسية في شيء قليل أو كثير من الاهتمام • والعالم القديم يعرض علينا تيارات متصلة من مثل هذه المبادلات في المجال الديني •

وان لنا لملاحظة أخرى تؤيد ما نذهب اليه في هذا المجال : تلك هي أن النزعة التأليفية التي تخلط أو تمزج أو تزاوج بين الآلهة ذوي الصفات أو الوظائف المتشابهة ، تلك النزعة قد ظهرت في طرسوس بوضوح ومنذ زمن بعيد • ولعلنا نستطيع أن نعتبر هذه الظاهرة أبرز وأوثق ما وصل الينا عن الحياة الدينية للمدينة • وانا لنعلم الى جانب ذلك أن العنصر الرئيسي في نمو «الأسرار» هو النزعات التأليفية•

فمن المرجح اذن ، ان لم يكن من الثابت تاريخيا ، أن بولس تدرج في نشأته الاولى بين أحضان بيئة مشبعة تماما بفكرة « النجاة » هذه ، القائمة على شفاعة أو وساطة اله يموت ثم يبعث ، ويشاركه أتباعه في مصيره ، اذ يتحدون به ــ لا بالايمان المطمئن القوي فحسب ، ولكن أيضا بالطقوس الرمزية الفعالة • واننا لنكاد نميل هنا الى القول بأن تلك الطقوس كانت تعتبر العنصر الأساسي في وصول الأتباع الى مرادهم • ولم يكن من المفروض حتما على المرء أن يدخل في عداد السالكين حتى يتعرف على هذه المفاهيم الدينية وعلى دلائل شعائرها ، أي حتى يتحقق من وجودها ومما تنطوي عليه من رموز ؛ فأهم ما كان يخفيه الأتباع ويكتمونه عن عامة الناس ليس مبادىء ايمانهم وآمالهم ، وانما هو « السر » الأعظم الرهيب الذي يعتقدون أنه يحول كيانهم ويطوره تطويرا •

وكذلك لم يكن من المحتم على المرء بطرسوس في هذا الزمن أن يتخذ مكانا في حلقات الفلاسفة ان أراد تحصيل بعض مبادىء المذاهب التي يدرسونها • فقد كانت طرسوس ، في عهد الامبراطـور أغسطس ، مدينة تتحكم فيها جامعتها ، ولهذا كان أهلها يعلقون أهمية كبرى علـى كل ما يصدر عن أساتذة هذه الجامعة • ويبدو أن هؤلاء الاساتذة كان أغلبهم من الفلاسفة ، وأنهم كانوا ينتمون الى المدرسة الرواقية • وسائر الدلائل تشير الى أن الكثير منهم كانوا قد سبقوا الى انتهاج نمط مـن التدريس الشعبي يبغون بها تعريف الجماهير بفلسفتهم ودعوتهم اليها ، ويذيعون فيها أحكامهم الأخلاقية الأساسية وشيئا كثيرا من مصطلحاتهم الفنية • ويجب علينا أن لا تنسى هذه الظروف عند قراءتنا لرسائـــل بولس التي نجد فيها آثارا من الرواقية تكثر في الشكل وتظهر في المبادىء أحيانا • وقد تصور بعض السابقين ، عندما لاحظوا هذه الآثار ، أن داعية المسيحية كان قد اتصل بالفيلسوف سينيك ، وتبادل معه الرسائل الكثيرة • وان هذا الاختراع الساذج لا يبرز موضوع الجدل في اطاره الصحيح مثلما يبرزه الحديث عن خصائص وأهمية الحياة الفلسفيـــة بطرسوس • لقد عاش بولس في وسط أشبع بأفكار الرواقيين وبلاغتهم• وهذا [١] المثل الثاني لتأثير البيئة التي عاش فيها سني طفولته وشبابـه الاول على الاقل ، هذا المثل ينير جوانب المثل الاول [٢] ويتم توضيح السبل التي بواسطتها تلقى يهودي من يهود المهجر ، هو بولس ــ بطريقة تكاد تكـون لا شعورية ــ مفاهيم « الاسرار » والفلسفة الرواقيـة ، فثبتت في أعمق أعماق فكره ، وكانت لها ثمار لم يتبينها هو نفسه الا بعد ذلك بسنين كثيرة •

وهناك ، على أي حال ، تساؤل آخر ما زال ينتظر فصل القول ، وقد يكون في الاجابة عليــه عنصر هام من المعلومات اللازمـة للتعرف على ذلك التطور الغامض في سيرة بولس الدينية : هل كان كل يهـود طرسوس من المتمسكين بالشريعة اليهودية والمتشددين فيها ؟ أم كانوا

(١) الفلسفـة الرواقية
(٢) مفاهيم الاسرار

على العكس من ذلك يفتحون ابواب معابدهم في صورة ما لمؤثرات البيئة التي يعيشون فيها ؟ ثم : ألم توجد من بينهم طائفة استسلمت لتيارات التفاعل بين الأديان الذي تحدثنا عنه سابقا والذي دعا في بعض الاحيان ، على ما يبدو ، الى تطوير الامل القومي في الانتصار وفي حلول مملكة الله نحو مذهب « النجاة » ولو ثبت هذا ونحن نميل الى ترجيحه وان كنا نجهل حقيقة الامر ــ لما دعينا قط الى افتراض أن بولس قد اتصل بهؤلاء اليهود المنحرفين ؛ بل قد يمكننا القول ، ان أردنا ، بأنه كان يكرههم كل الكراهية ، وذلك اعتمادا على ما تشير اليه « أعمال الرسل » من تشدده وتشدد عائلته في دين أجدادهم . الا أنه لم يكن ليتجاهلهم ، بل هو قد استقى منهم الرأي في « النجاة » وفي « المنقذ » . ولو تأكد لدينا بصفة قاطعة أنه تأثر بهم في شبابه ، لقلنا : إن ذلك كان العنصر الأساسي ، أو ــ اذا شاء القارىء ــ البذرة الاولى ، في تطور عقيدته .

ومهما يكن فصل الخطاب في هذه المسألة الأخيرة ، فاننا ــ على أي حال ــ نستطيع تأكيد حقيقة لا يمكن الجدل فيها ، تلك هي : أن طرسوس لم تصبح بمحض المصادفة مهدا لـ « الحواري المرسل الى المشركين » ، أي للرجل الذي ساهم بأكبر قسط في نشر دين جديد للنجاة باسم المسيح عيسى ، وانما كانت كذلك نتيجة لعوامل متعددة .

ومن ناحية أخرى ، فاننا حين ننظر الى ملكات بولس العامة في التبشير ، حسب أساليب يونانية ــ رومانية ، بعقيدة يهودية الاصل ، نجد أنه كان في وضع يلائم تحقيق عمله كل الملاءمة ، فقد جمع بين مميزات ثلاث جعلت منه أقدر الناس على القيام بهذا الدور : كان يونانيا ، وكان يهوديا ، ثم كان أيضا رومانيا .

وعندما نقول : أنه كان يونانيا ، فأنما نقصد بذلك أنه أشرب في بيئة طرسوس شيئا من الروح الاغريقية بطريقة تكاد تكون لا شعورية ، وأنه لقن اللغة اليونانية ، فمنح بذلك أقوى اداة للفكر وللعمل ، وأيسر الوسائل في عصره للتعبير عن الرأي والدفاع عنه . وعلينا أن لا نبالغ في الامر بطبيعة الحال : فلم يكن بولس بالأديب اليوناني ، ولم يتخرج على أيدي أساتذة المدارس الكبرى في مدينته ، كما لم يقم بدراسة

مستفيضة لـ « الاسرار » . غير أنه عاش في وسط يتحدث باليونانية ، ويستخدم كلمات مثل : « الله » ، « عقل » ، « منقذ » ، « منطق » ، « روح » ، « ضمير » ، فلم تكن بالكلمات الغريبة عليه بعد ذلك ، ويمارس نوعا من فن البلاغة استطاع به أن يطوع أساليبه القوية الملفتة . وكان هذا الوسط يهتم بفلسفة معينة بقيت بعض أحكامها والكثير من مصطلحاتها الفنية في ذهن داعية المسيحية . وكان كذلك وسطا يتعلق عامة بأنماط من الامل في حياة أخرى تعقب الموت ، ويسعى الى تحقيقها، بل يؤمن أنه يحققها ، بوسائل مختلفة . ولم يكن بولس ليجهل هذه الآمال ولا ليعمى عن المظاهر الأساسية للوسائل المستخدمة من أجل تحقيقها . وقد قيل ان الروح اليونانية ليست بالعنصر الاول في شخصية بولس وأن كان يهوديا قبل أن يكون يونانيا والقائلون بذلك على صواب ولا شك في دعواهم هذه .الا أنه كان ــ وهذا أمر يجب أن نذكره دائما ــ « يهوديا من مدينة طرسوس » . ويبدو من المؤكد اليوم أنه ان لم يكن ارتقى الى أرفع مراتب الثقافة اليونانية ــ وكانت بمتناوله في رحاب مدارس وطنه ــ فقد تدرج في الثقافة اليهودية لهذا العصر حتى بلغ منها منتهاها . وكانت هذه الثقافة تنحصر في الدراسة المتبحرة للنصوص المقدسة . وسبق أن ذكرنا في هذا الصدد سطورا من مجموعة « أعمال الرسل » (٢٢/٣) تقول على لسان بولس انه ربي على أعتاب جماليال ، أي : بالقدس في مدرسة حفيد العالم الكبير حيليل . ونكرر هنا أننا لا نثق كثيرا في هذا الادعاء ، بل نعتقد أنه يبعد بنا عن الحقيقة . ومع ذلك فمن المسائل التي لا تقبل الجدل أن رسائل بولس تشهد بمعرفة للنصوص المقدسة مماثلة لما اعتدنا عليه من معرفة علماء اليهود بها ، ويتضح من خلال هذه الرسائل روح مؤلف أخذ الكثير من الفريسيين في تكوينه الفكري : فهو يعشق الجدل ويمتاز بالبصيرة النافذة المدققة وبالدهاء الشديد في تقديم البراهين أو هدمها ، كما نراه يهاجم الشريعة اليهودية بنفس الأساليب التي استخدمها من قبل في الدفاع عنها . ويتضح في رسائله أيضا أنه يعتمد على رصيد من المذاهب ــ حول طبيعة الانسان وفكرة الاثم والعلاقة بين الاثم والموت ــ لا تقل في اتصالها بروح علماء اليهود ، عن مناهج الجدل التي طرقها .

ومن الظواهر ذات الدلالة العميقة أنه كان ، فيما يبدو ، يعتمد اعتمادا دائما على الترجمة اليونانية للتوراة ، المسماة بـ « السبعينية » • وغالب الظن أنه كان يقرأ أيضا الاصل العبري ، ولكننا لا نجزم بذلك • وعلى أي حال فهو لا يكاد يشير في كتاباته الى نص لها غير ذلك النص الاسكندري الذي أشرب به فكره [1] • وتلك الملاحظة على الاخص تدعونا الى الاعتقاد بأنه لم يدرس النصوص المقدسة في مدينة القدس ، ولكن في احدى المدارس اليهودية بالمهجر ، واننا لنشير هنا الى انطاكيا وهي غير بعيدة من طرسوس ، وكانت المركز الفكري الأكبر لآسيا اليونانية وميدان التلاقي أو التجمع للمذاهب والمعتقدات المتشابهة أو المختلفة •

ولم يكن غير اليهودي في هذا العصر يهتم بدعوة عيسى • ولم يكن غير اليوناني يستطيع أن يمد في ابعاد هذه الدعوة حتى يبلغ بها حدود العالمية وأن يبت فيها بذور الخصوبة • ونعني بطبيعة الحال : ذلك اليوناني الذي لا يحد أفق فكره تعصب لثقافة مدرسية معينة ، والذي يأخذ من العالم الاغريقي نزعاته الدينية وصبوات ايمانه ، فيشارك فيها أكثر مما يشارك في الاتجاهات الفكرية به • وقد جمع بولس بين اليهودية واليونانية ، ثم أضاف اليهما ميزة ثالثة غالية هي تمتعه بالجنسية الرومانية ، أو ، بتعبير أدق : حصوله على صفة « المواطن الروماني » • وكانت تلك الميزة ذات نفع كبير متعدد الجوانب : كانت تحميه من الانزلاق الى تعصب يهود فلسطين القومي الذي اتصف بضيق الافق وكراهية الاجنبي ، وكانت تدعوه الى العالمية في التفكير والعمل ، ثم كانت هي السبب الذي اتخذه ــ وهو لا يكاد يشعر ــ ليرتفع بالامل الذي ظهر بين طائفة محدودة من اليهود ــ الى مرتبة الأديان الانسانية •

(لذلك كله نستطيع وصف بولس بأنه كان « منشىء المستقبل »)•

---

(١) كان يهود المهجر يعتبرون ان النص « السبعيني » منزل ، تماما كالنص العبري • وتلك نظرية فرضها عليهم حرصهم الديني ، وتعتمد على ما يروي من التشابه التام بين اثنين وسبعين ترجمة للنص قام بها اثنان وسبعون مترجما • ومن الواضح أن مثل هذا التوافق لم يكن ليتم الا بفيض من الله (!!) •

الفصل الخامس

التكوين المسيحي لبولس

أ ــ كيف ربي بولس تربية مسيحية ــ صعوبة تحديد ابعاد هذه التربية ــ كيف كانت معاملته القاسية للمؤمنين أول تمهيد لايمانه ــ لم يكن للحواريين أثر على بولس ، ولكنه وقع تحت تأثير مجتمع مشبع بالروح اليونانية •

ب ــ ايمان هذا المجتمع الهيلينيستي : كيف انتشر خارج القدس وانتقلت معه صورة ايمان الحواريين ــ كنيسة انطاكيا : أهميتها ، روحها ، مفهوم المسيحية لديها ، فكرة « السيد عيسى » ، دورها عند بولس ، الاصول اليونانية فيها ــ عبادة « السيد » ووجوده في مجتمع بولس ــ عقيدة « الاله المنقذ » في المجتمع الهيلينستي الاول وعند بولس •

ج ــ الأدوار التي نرجح ان بولس مر بها في تحوله الى المسيحية ــ كيف تصور بولس نفسه هذا التحول ــ الصورة التي نرجح أنها تطابق ما كان من حقيقة أمره ــ كيف نبعت رسالة بولس واتجاهاتها من هذا التحول •

ــ أ ــ

من الخطأ ، رغم ما تقدم من حديثنا ، أن ننسب الى بولس وحده ذلك المجهود الضخم الذي انتهى الى غرس دعوة الحواريين في ربوع العالم الهيلينستي • ونحن نكرر القول بأن أصالته ليست محل شك لدينا ، وأننا لا نجد مبالغة في وصفها بالاصالة العبقرية : فقليل من بني الانسان من امتازوا بمثل ما امتاز به من روح وثابة ملتهبة ، وعشق عنيف للعمل ، وأحساس حاد بكل ما يقتضيه هذا العمل من أوجه

نشاط ، ثم من قدرة خارقة على تطويع الآراء والمذاهب وتحويرها لخدمة أغراضه ، كل ذلك في اطار عام يمتاز بالابداع والخصوبة ـ تصوغه موهبته التعبيرية ، وان كان من الواضح ان هذه الموهبة لديه تفتقر أحيانا الى التكامل والانسجام بين عناصرها المختلفة . ولكنه مع ذلك لم يخترع كل ما قاله ، وانما وقع تحت تأثيرات معينة حددت معالم الطريق في تحوله الديني ، وجعلته ينقلب فجأة من متعصب للشريعة اليهودية الى نصير لا يقهر للسيد المسيح . ولقد تلقى تربية مسيحية ، ونعني بذلك أنه اتصل بأشخاص معينين قدموا اليه صورة معينة لشخصية عيسى ولدعوته ، وأنه اتخذ هذه الصورة المعينة أساسا لما أسماه بـ « انجيله » . فهل اكتفى بنقل ما أخذه عنهم في رسائله وأحاديثه ، أم طوره حسب ما رأي وأحس وقدر ؟ وان أخذنا بالرأي الثاني ، فما هي ابعاد التطوير الذي أدخله على الصورة الاولى ؟ أنه من العسير علينا ان نجيب على هذه التساؤلات في شيء من الدقة ، ولكننا نستطيع ، على الاقل ، أن نحصر مجالاتها وأن نصل الى بعض الاحتمالات . ولم يعد في الامكان اليوم أن نحدد تلك الصلات التي قامت بين بولس وبين أتباع عيسى قبل الازمة التي جعلت من الاول أكثر المؤمنين حماسا . ولقد ثار جدل طويل لم ينته الى نتيجة حول التأكد من أن بولس « رأي » عيسى . والقضية التي ثبتت لنا على أي حال هي أنه : لم « يعرفه » [1] . وأن النصوص التي تحوز أكبر قدر من الثقة في هذا المجال ، وهي رسائل بولس نفسه ، تقدمه لنا على أنه كان من مضطهدي « كنيسة الله » قبل أن تحدث معجزة طريق دمشق . وأن تفاصيل ما ترويه لنا « اعمال الرسل » (٧/٥٨ ، ٨/١ ـ ٣ ، ٩/١ ـ ٢) عن عنفه في الشر لتبعث على الشك ، ويبدو لنا من المرجح أن الغرض منها لم يكن الا ابراز تحوله المفاجيء عن هذه العداوة الشديدة في صورة براقة . ولكنه بقي من الثابت لدينا أنه بدأ حياته بالكراهية لهؤلاء الحمقى الذين اتبعوا رجل الجليل المصلوب . وأنه

(١) يدور الجدل كله حول الكلمات التالية من الرسالة الى الكورنثيين (١٦\٥) أ « ان كنا قد عرفنا المسيح بالجسد ، فنحن اليوم نعد نعرفه » .

أوضح لهم كراهيته هذه بالقول والعمل قدر ما استطاع • انه يكره هذا المجتمع المسيحي الاول ، ولكنه يتصل به ويتعرف عليه : فقد يحكم بالحماقة على ايمان هؤلاء الرجال الذين كانوا محل اضطهاده ويرى هزالا شديدا في آمالهم ، ولكن عوامل أخرى تتفاعل في ذات الوقت بصورة غامضة في أعماق فكره ، فتقارن بين بدع أهل الجليل وادعاءاتهم، وبين مزاعم دعاة الاتجاهات التأليفية — من مشركين أو يهود — في طرسوس أو في انطاكية ، تلك المزاعم التي لم يصدق بها أكثر مما صدق بدعوة أصحاب عيسى • ولسوف ينبثق النور بالنسبة اليه من المقارنة ومن التقريب ، ثم من تأويله للامر على أساس تقويمه للدين اليهودي •

والشيء الذي يبدو لنا غير قابل للجدل هو : أن تطور بولس نحو المسيحية لم يتم بالقدس ، وأن مذهبه لم ينشأ من الاتصال بالحواريين الاثني عشر • ولم يخرج الكاتب الالماني « هايتموليز » عن جادة الحق عندما ما كتب في مقال عن بولس وعلاقاته بعيسى : « ان بولس لم يتأثر بعيسى عن طريق المجتمع المسيحي الاول ، ولكن الاثر انتقل اليه بواسطة حلقة أخرى من حلقات سلسلة المتوارثات التي يمكن ربطها كما يلي : عيسى ، المجتمع المسيحي الاول ، المسيحية الهيلينستية ، بولس » •

ولم يكن بولس بمؤسس المجتمع المسيحي الاول في المهجر • و « أعمال الرسل » (١١ / ١٩) تشير الى اقامة بعض الطوائف من الذين اعتنقوا دين عيسى بين الجاليات اليهودية بفينيقيا وقبرص وأنطاكيا • ولا تدين هذه الطوائف بشيء لبولس • كذلك لم يكن له أي فضل في تأسيس الكنيسة الاولى بروما • ومن المرجح أن تحول بولس سوف يبدو لنا أقل غرابة لو تعرفنا ، بصورة أكثر دقة ، على هذه المجتمعات المسيحية الاولى في بلاد المشركين ، تلك المجتمعات التي كانت عقيدتها اليهودية دائما أكثر مرونة من عقيدة أهل فلسطين وأكثر اتصالا — بل قوية الاتصال — بتيارات التأليف بين الأديان ؛ ولا نشك في أنها طورت من ادعاءات أصحاب عيسى قبل اعتناقها • ولكننا للأسف لا نجد امامنا الا طريقا واحدا ، هو محاولة « تخمين » وترجيح بعض ما كانت تؤمن

به هذه المجتمعات « اليونانية » الاولى،وذلك من خلال نصوص « أعمال الرسل » المشكوك فيها ، واشارات بولس نفسه • واننا لنعترف بأن ما تجمع لدينا من معلومات ليس بالشيء الكثير [1] •

— ب —

كانت الجماعة الاولى من المؤمنين بعيسى في القدس جماعة يهودية صرفة • وليس لدينا ما يدعو الى الشك فيما ترويه « أعمال الرسل » بهذا الشأن • وكان أعضاء هذه الجماعة لا يفترقون عن اليهود الآخرين الأتقياء الا في أيمانهم بأن عيسى الناصري قد شرفه الله فجعل منه مسيحا ، وأن به قد تحققت الآمال • ولا يمكننا أن نتصور أنهم اتجهوا من أنفسهم الى تبشير المشركين بعقيدتهم ، فلم يكن ذلك بالنسبة اليهم عملا ذا معنى • ولعل أقصى ما كانوا ليصلوا اليه في هذا الاتجاه هو الترحيب ببعض المتتلمذين على اليهود ، على غرار ما فعله بطرس اذ نراه — في الفصل العاشر من « أعمال الرسل » — يقوم بتعميد الجندي كورنيليوس الذي كان من « المتقين الله » ، ولا نجد مغزى تاريخيا آخر للفصل المذكور ، هذا اذا ما فرضنا أن القصة التي يرويها تخرج بعض الشيء عن حدود الأساطير ، وقد شك أناس من قبل في أمرها • الا أن هذه الجماعة الاولى من أصحاب عيسى فقدت ، في سرعة سريعة ودون أن تسعى الى ذلك ، صفاتها كطائفة يهودية خالصة ، أو — على الاقل — كطائفة فلسطينية شبيهة بباقي الطوائف اليهودية في البلاد ؛ فقدت هذه الصفات بحكم العوامل الخارجية القاهرة : ففي أعقاب انشائها ، دخل عليها عنصر أجنبي غريب عن روحها الأساسية ، عنصر الاتباع الجدد الذين تسميهم مجموعة « أعمال الرسل » بـ « الهيلينستيين » •

وكان هؤلاء ، في غالب الظن ، من اليهود الذين أقاموا زمنا طويلا بمختلف البلاد اليونانية ثم عادوا الى وطنهم ليعيشوا فيه ما بقي لهم من عمر ، وكانوا أيضا ، وعلى الاخص من يهود المهجر الذين يتوافدون الى

---

(١) يعتبر كتاب البحاثة بوسيه عن المسيح ، المطبوع بجوتينجن عام ١٩١٣ ، أهم مرجع فيما يتعلق بهذه المشكلة ، وخاصة منه الفصلين الثالث والرابع .

القدس في الأعياد الكبرى والمواسم • وامتازاوا جميعا بروح أكثر مرونة وتقبلا للتجديدات من اخوانهم الفلسطينيين : فلا غرابة اذن في أن يكون عدد معين منهم قد استمع الى أحاديث أصحاب عيسى وآمن بدعوتهم • ولكنهم عندما اعتنقوا الايمان بعيسى المسيح ، لم يتخلوا من أجل ذلك عن روحهم المرنة المجددة ، ولعلنا نرى في هذا الامر الاسباب الاولى للخلافات التي لم تلبث ان نشبت في أحضان الجماعة.•

وليس من مهمتنا سرد هـذه الخلافات ، والكثير من جوانبها على أي حال يبدو لنا غامضا أو مجهولا [1] • الا أنه لن يكون من جزاف القول ارجاعها الى التساهل الفكري الذي أبداه هؤلاء الهيلينستيـون اول الامر في موقفهم من الشريعة اليهودية ومن تقديس « المعبـد الاكبر » ، ثم الى النزعة التي كان لا بد لها أن تصاحب هذا الموقف وتنمو معه نحو أعمال الفكر والمنطق في شخصية عيسى ورسالته عـلى مدى أبعد مما كان يتصوره أصحاب عيسى أنفسهم • ونرجح أن تلك ظاهرة تطبيقية للموقف الذي حاولنا فيما سبق أن نحدده : الموقف العقلي والعاطفي ليهود المهجر تجاه مزاعم الحواريـين • وكانت النتيجـة أن غضبت السلطات اليهودية عـلى هؤلاء الهيلينستيـين ، فاضطهدتهـم وطردتهم من المدينة ، بينما بقي بها الحواريون ، مما يدل على أن فريق الحواريين لم يكن يفكر كما فكر الهيلينستيون ولم يكن متضامنا معهم•

ومن المرجح أن « الهيلينستيون » الذين طردوا أو هربوا من القدس كانوا أول المبشرين في بلاد الوثنيين ، وأعني بذلك أنهم اتجهوا بعـد تركهم للقدس الى المجتمعات اليهودية القائمة في ممالك الشرك ، تلك المجتمعات التي كانت ـ كما سبق ان بينا ـ تضم الى جانب اليهـود الحقيقيين طوائف من المتتلمذين عليهم قد تقربوا قليلا أو كثيرا الـى اليهودية ولكنهم ظلوا على صلتهم الدائمة بعالم المشركين • وإننا لنلمح، من خلال النصوص ، بعض الجماعات التي اقامتها تلك الدعاية التبشيرية الاولى في قبرص وفينيقيا • بيد أن الحادث الأساسي الذي نبع عنهـا

---

(١) تراجع في ذلك مجموعة « اعمال الرسل » (٦) .

مولد كنيسة أنطاكيا • ورينان على حق عندما يكتب [1] : « ان نقطة البدء للكنيسة التي جذبت المشركين ، ومركز التبشير المسيحي الاول ، كانا في أنطاكيا • هناك ، ولاول مرة ، انشئت كنيسة مسيحية تخلصت من صلاتها باليهودية • وهناك تأسست الدعوة التبشيرية الكبرى في عهد الحواريين • وهناك كذلك تطور بولس تطوره النهائي » •

وتروي لنا « أعمال الرسل » (١١/١٩ ــ ٢٠) : أن بعضا من مجموعة « الهيلينستيين » الذين أخرجوامن القدس ارتحلوا حتى انطاكيا، وبها « اعلنوا البشرى الطيبة عن السيد عيسى ، متحدثين فيها أيضا الى الاغريق » ، ونفهم من هذا أنهم اتجوا أولا الى اليهود ــ فلا تتصور أنهم قاموا بهذا النشاط في بادىء الامر خارج نطاق المعبد اليهودي ــ ثم تحدثوا بدعوتهم الى المتتلمذين على اليهود ، ولا نشك في أنهم كانوا كثرة بالمدينة • ونحن لا نزعم بأي حال من الاحوال أن اتباع عيسى الاول اتجهوا ، بتدبير سابق وحسب خطة مرسومة ، الى هؤلاء المتتلمذين على اليهود ، غير أنهم لم يتجنبوهم • ولا شك انهم وجدوا لديهماستعدادا وتقبلا للاقتناع بالدعوة الجديدة أكثر مما وجدوا لدى اليهود الخالصين، فضموهم الى صفوفهم • وأننا لنميل الى الاعتقاد بأن هؤلاء « الاغريق » سرعان ما أصبحوا الغالبية ، بل الغالبية العظمى ، في كنيسة أنطاكيا • ويبدو لنا أن صفة « المسيحيين » ، التي أطلقت حينئذ لاول مرة على أعضاء هذه الكنيسة من جانب المشركين ، تدل على أن عامة الناس في المدينة ميزوا تمييزا واضحا بينهم وبين الطائفة اليهودية الاصيلة • ومن المرجح أيضا أنهم افترقوا سريعا عن هذه الطائفة بتشكيلهم جماعات مستقلة ذاتيا ، كما افترقوا عنها باخضاعهم التعاليم اليهودية الصحيحة لمقتضيات عقيدة الامل المسيحية ، اذ وضعوا شخصية المسيح في المقام الاول من دينهم •

ويكاد يكون من القضايا المسلم بها لدينا أن بيئة انطاكيا هذه ، حيث كثر المؤمنون الذين علقوا بعيسى كل الآمال وان لم يعرفوه ، تلك

---

(١) في كتابه « الرسل » ص ٢٢٦ .

البيئة ساعدت على التطور السريع نحو « تأليه » المسيح ، أو هي حددت فكرة « تمجيده » ، ان بدت لنا كلمة « التأليه » هنا سابقة لاوانها . وكذلك نرى هؤلاء المؤمنين ينزعون في تصورهم لشخصه ولرسالته الى التخلص من كل خصائص عيسى اليهودية كمسيح ، ليرقوا به الى مفهوم أعم وأوسع وأرفع ، ذلك المفهوم الذي يقترن بلقب « سيد » .

ولنلاحظ هنا أمرا هاما : ذلك ان الاثني عشر أنفسهم لا شك قد تملكتهم الحيرة في بدء دعوتهم ، عندما نظروا في النصوص المقدسة وفي كتب الاحبار الحديثة ، فلم يجدوا كلمة واحدة تشير الى أمكان قيام مسيح يعذب تعذيبا شائنا ، بل قرأوا على العكس من ذلك سطورا تبعث فيهم الرعب : « لعن الله كل انسان يشنق بالغابة ! » (كتاب « تثبتية الاشتراع » ، ٢١ – ٢٣) . فكان عليهم اذن أن يفسروا لانفسهم كيف دبر الله موت عيسى ضمن تدبيره لانتصار شعبه وحلول مملكته . وقد وجدوا الى ذلك سبيلا معتمدين على « واقع » البعث ، وسائرين على المنطق التالي : « اذا كان الله قد بعث عيسى ، فلا يمكن أن يكون ذلك الا ليقوم بدور جلل ، وهل هناك له غير دور المسيح ؟ وكان الموت هو الشرط اللازم للبعث ، أي كان الطريق الذي أراده الله ليرتفع بعيسى من مستوى البشرية الى « المجد المفروض له » . وهكذا أصبح عيسى هو المراد بمن أسماه النبي دانيال بـ « ابن الانسان » الذي سوف يظهر وشيكا على قباب السماء » .

الا أن مفهوم « ابن الانسان » غير موجود لدى بولس . لقد أبدله بمفهوم آخر – سوف نتحدث عنه فيما بعد – لا يمت بصلة الى الجماعات المتصلة الاواصر باليهودية . فهو اذن لم يؤسس مفهومه لشخص المسيح على ما أخذه من تلك الجماعات . (ان موت عيسى في نظر الاثني عشر ليس بالتضحية التكفيرية . اما عند بولس فنعم ؛ وفي عقيدته : ان المسيح مات من أجل خطايا البشر . ولم يكن الاثنا عشر ليوافقوا على نعت عيسى بـ « ابن الله » مكتفين بتعبير « خادم الله » . أما عند بولس ، فلقب « ابن الله » لقب كثير الاستعمال بالنسبة الى عيسى) . ان بعض المفاهيم الجوهرية لدى المجتمع الاول نجدها اذن غريبة أو مجهولة أو غير ذات شأن لدى « الحواري المرسل الى المشركين » . أما المفاهيم

التي عرفت له ، فهو لم يختلقها اختلاقا ، وان قام بتطويرها وتنميتها • ولا بد لنا من القول بأنه أخذها عن مصادر أخرى غير المجتمع المسيحي الذي أسسه أصحاب عيسى أنفسهم ؛ ولا بد لنا من الاعتقاد بأنه وجد هذه المصادر في مجتمع من المجتمعات الهيلينيستية ؛ وأغلب الظن ان هذا المجتمع كان مجتمع أنطاكيا •

وهناك لقب ذا مغزى لا تختص به رسائل بولس وحدها ، بل نجده أيضا في جميع نصوص العهد الجديد التي ترجع الى أصل الهيلينستي ، ذلك هو لقب « سيد » (خيريوس) الممنوح لعيسى • ويكفي أن تتصفح رسائل بولس الكبرى لندرك أن « السيد » يهيمن على سائر أوجه الحياة في المجتمعات التي اتصل بها صاحبنا • فكل كنيسة كانت تنتظم في « جسد » ، « رأسه » « السيد » ؛ أو كانت ، اذا شئنا ، « مجموعة عبادة » « يحتل » « السيد » منها المركز • ولا أدل على ذلك من النص المعروف الوارد في « الرسالة الى الفيليبيين (٢/٩ وما يلي) والذي يقول : « لذلك رفعه الله وشرفه بالاسم الذي يعلو على كل اسم ، حتى يركع أمام هذا الاسم كل من في السماوات والارض والجحيم ، وحتى تعترف كل لغة بأن عيسى المسيح « سيد » وذلك من أجل مجد الله الآب » • ويبدو أن الاسم العبادي المقدس في « العهد القديم » ، ذلك الاسم الذي يهمين على الشعائر كلها في معبد القدس الاكبر ، والذي لا شك أنه استخدم أيضا لدى المسيحيين المرتبطين بالاصول اليهودية ، يبدو أن هذا الاسم قد تحول لصالح الـ « خيريوس » الجديد؛ ذلك أن « يهوه » نفسه هو الذي كان يعلن قديما : « سوف يركع الجميع أمامي » • والظاهر هنا أن « يهوه » قد تنازل عن سلطاته لصالح عيسى•

ولا نظن أن بولس قد اخترع اختراعا هذا الاسم المحمل بكل تلك المعاني وفرضه على الناس ، اذ يبدو من أبعاد وعمق الظاهرة أنها لم تقم على ارادة رجل واحد ، بل ان في ملامحها عناصر تخرج عن مثل هذه الارادة وتفترض تمهيدا لفترة طويلة في ضمير هؤلاء الذين مكنوا لها وثبتوا أركانها • فاذا ما ضربنا هنا عرض الحائط بالنظريات المتهافتة التي أنشأت للتدليل على أن لقب « خيريوس » هذا قد يكون يهودي الاصل لتوصلنا الى ما يلي : تلك هي نفسها الكلمة التي كان يستخدمها

العبيد اليونانيون لبيان ولائهم لاصحابهم ، وهي في الواقع توضح العلاقة بين « عبيد المسيح » والمسيح نفسه (انظر : « الرسالة الاولى الى أهل كورينثيا ، ٢٢/٧) • ثم انها ايضا لقب غريب عن الآلهة التقليديين ، ونعني بذلك : الآلهة ذوي الاصل اليوناني المحقق ، أو آلهة الرومان اذا وضعنا موضع الاعتبار المرادف اللاتيني للكلمة ، وهو « دومينوس » • ولكنها كانت تطلق خاصة على « الآلهة المنقذين » في آسيا الصغرى ومصر والشام عند الحديث عنهم باليونانية ؛ ومن هؤلاء الآلهة تحول اللقب أيضا الى الملوك والامراء •

لقد نشأت المجتمعات « الهيلينستية » الاولى ونمت في البيئة السورية • وفي ربوع هذا المهد الاول وجدت انتشارا واسعا للقب « خيريوس » ولصور العبادات القائمة عليه • وفيه ثبتت تلك المجتمعات « الهيلينستية » الفتية باعتبارها مجتمعات لعبادة المسيح ، أو اذا شئنا — فهي قد انتظمت حول هذه العبادة ، مدفوعة بنزعتها الرامية، فيما يشبه اللاشعور ، الى الابتعاد عن اليهودية ، وبما وجدته في خروجها عن فلسطين من سبيل للتحلل من تشدد يهود الوطن الام في تعاليم التوراة الخاصة بالتوحيد • وفي سوريا عرفت الاسم الذي يعبر في طقوسها الدينية عن مركز المسيح المهيمن • وبدالها بعد ذلك من الامور أن تطلق ذلك اللقب المعبر لقب « السيد » الشائع الاستخدام من حولها، على الشخصية التي لم يكن المشركين ليعرفوها الا بأنها « بطل الطقوس الدينية » •

(وان ما نسميه هنا بالمسيحية ، ونكاد في هذه التسمية نسبق سياق التاريخ ، قد اتخذ اذن بين رحاب التقوى الهيلينستية ، صورة « ايمان بالسيد » و « تعبد للسيد » ؛ بينما كان أصحاب عيسى من أهل الجليل لا يزالون على « الايمان بعيسى وبما قاله » وعلى أتصال دائم بالمعبد اليهودي الاكبر واحترام لشعائره) •

ويمكن القول بأن المسيحية لن تمر قط ، بالنسبة الى مستقبل أمرها ، بتطور يبلغ من الاهمية مثل ما بلغه ذلك التطور الذي نقف عنده الان • ان مفهوم « ابن الانسان » عند الذين اتبعوا عيسى من اليهود

الفلسطينيين ينتمي ، فيما نرى ، الى الاتجاهات اليهودية في تصوير يوم القيامة ، ونعني بذلك : انه لا يجد مكانه الحق الا ضمن أحداث نهاية العالم التي قال بها اليهود والتي لم يكن ليتعلق بها الا اليهود . انه اذن وبالذات مفهوم « عظمة أخروية » يفرض على موضوعه البقاء في السماوات حتى حلول مملكة الله الموعودة . أما « السيد » لدى المجتمع الهيلينستي فهو على العكس من ذلك يظهر وكأنه ـ سواء في الشعائر أو في العبادة ـ مفهوما لـ « عظمة حالية حاضرة » ، فالمؤمنون الذين يجتمعون باسم « السيد » يحسون بحضرته ، أي بأنه قائم بينهم ، تماما كما كان يشعر أتباع الديانات ذات « الاسرار » بالحلول الآلهي أثناء الاحتفالات السرية التي يشتركون فيها . فاذا ما وضعنا جنبا الى جنب مفهوم « ابن الانسان » ومفهوم « السيد » وجدنا بينهما اختلافات تبلغ حد التعارض . وقد فاز بالمستقبل ، بطبيعة الحال ، المفهوم الهيلينستي : لانه نابع ـ ولا شك في ذلك ـ من أعماق الحياة الدينية للبيئة التي أنشأته . أما المفهوم الثاني ، وهو الاقدم منهما ، فسوف يظل جامدا بين طيات النصوص ، بل سوف يتقلص شيئا فشيئا حتى يصبح تعبيرا من تلك التعبيرات الغامضة التي لا حياة فيها والتي لا تعني شيئا بالنسبة الى أهل العقيدة من غير اليهود . وتصوير بولس للقيامة والعالم الآخر يعتمد في جوهره على تلك القاعدة المزدوجة من « الايمان بالسيد » و « عبادة السيد عيسى » ، ووصوله الى المفاهيم المتعلقة بها يعتبر الخطوة الاساسية في تكوينه المسيحي . وسبقت هذه المفاهيم صاحبنا الى الوجود وقد استقاها من بيئة كانت أقرب الى ادراكه ـ بحكم نشأته اليونانية ـ من مجتمع فلسطين اليهودي ـ المسيحي .

ولكننا نعرف أن فكرة الاله ، أو « السيد » الالهي ، الذي يموت ثم يبعث « من أجل نجاة أتباعه » ، كانت شائعة في البيئة السورية . ولنا أن نتساءل : ألم تكن هذه الفكرة قد فرضت نفسها على المجتمعات الهيلينستية في تفسير وتأويل موت السيد عيسى ، وذلك قبل مجيء بولس ؟ أو ، بعبارة أخرى : الا يدين بولس لمعلميه الاول من المسيحيين بالفرض الاساسي في نظريته الخاصة بالنجاة ، وهو : لقد مات المسيح من

أجلنا كما قدر له في النصوص المقدسة ؟ ليس في الامكان ، في عصرنا الحاضر . أن نقيم الدليل على هذا ؛ ولكننا نجد مجموعة كبيرة من الاعتبارات ترجحه وتجعل منه امرا طبيعيا.ولن تتحدث في هذا المجال الا واحد فحسب من تلك الاعتبارات ، وهو : أن « الاسرار » كانت توحي ايحاء قويا بأن موت المسيح وبعثه لا يرتبطان فقط بفكرة الرمز الى موت المؤمنين وبعثهم وبفكرة رسم « صورة معينة » لهذه الامور ، ولكنهما يرتبطان أيضا بمفهوم المثال والضمان لهؤلاء المؤمنين . كانت هذه « الاسرار » تدفع الى الاعتقاد بأن نجاة المؤمن خاضعة لتوحده مع المسيح المنقذ،وحدةتتم حسب طقوس فعالة.وهذه الطقوس عند بولس تتمثل في « التعميد » ، الذي يرمز الى الموت والبعث في المسيح ، ثم في « القربان » ،وهو مأدبة الوحدة على مائدة « السيد » . وقد أخذ المجتمع الهيلينستي شعائر التعميد المطهر من عبادات المتتلمذين على اليهود ، كما أخذ عن أصحاب عيسى من أهل الجليل طقوس الخبز الذي يقسم بين الجماعة . ومن العسير علينا أن تتصور أنه لم يدخل على هاتين العمليتين، منذ البداية ، معاني صوفية تتفق وما توحي به نفس « الاسرار » التي يبدو جليا أن هذا المجتمع قد استقى منها مفهومه ل « السيد ــ عيسى ــ المنقذ » . وان بولس ليستخدم كل هذه الافكار وكأنها كانت طبيعية مواتية ؛ وهو يلقي بالتعبيرات الصوفية المتعلقة بها بصورة تلقائية بسيطة تدعو الى الايقان بأنه لا يتحدث الا عن مفاهيم عرفتها من قبل تلك المجتمعات التي أنصتت اليه وبأنه ليس المخترع لذلك الرصيد من الافكار الذي يستغله وانما اقتصر دوره على التعمق في بحثه وعلى انمائه . وأننا ، على أي حال ، لو اكتفينا بالنص الحرفي لبعض ما قاله ، لكان ذلك أقوى دليل على ما نميل اليه من رأي : « لقد علمتكم .. مما علمت .. أن المسيح مات من أجل خطايانا ، حسب ما قدر له في النصوص المقدسة .. » (« الرسالة الاولى الى أهل كورينثيا » ، ١٥/٣) .

ــ ج ــ

ان اقتنعنا بترجيح الرأي الذي فصلناه آنفا ، والذي يقول بأن بولس قد تلقى أسس عقيدته ــ وهي العقيدة التي تعارفنا على تسميتها

بـ « البولونية » ــ عن مجتمع من المجتمعات الهيلينستية (مجتمع أنطاكيا في غالب الظن) ، ان اقتنعنا بترجيح هذا الرأي ، فأن تحول صاحبنا وهو اليهودي الفريسي الاصيل ، الى المسيحية ، هذا التحول سوف يبدو لنا حينئذ أقرب الى المنطق مما لو فسرنا الامر بتلك المزاعم الهزيلة التي دعا اليها يهود القدس المسيحيين ، والتي كرهها هو بادىء ذي بدء وهاجمها ، ثم جعلناه يعتنقها فجأة ودون تمهيد • فاذا ما تقرر ــ كما نظن أنه الواقع ــ أن بولس وجد المفاهيم والشعائر الاساسية التي ذكرناها في مجتمع مسيحي هيلينستي ؛ واذا تقرر من ناحية أخرى ــ كما نظنه أيضا أنه الواقع ــ أنه ربي حقيقة ، لا بين أحضان اليهودية الفلسطينية ، ولكن في ربوع المهجر بما امتاز به ــ سواء في طرسوس أو في أنطاكيا ــ من مرونة ونزعات متفاوتة القوة نحو التأليف بين الاديان ؛ واذا تبينا أنه ، منذ طفولته الاولى ، قد أحاط به من كل جانب ايمان الناس باله يموت ويبعث ، فانغمس في هذا الايمان حتى أشرب به دون أن يشعر بذلك ، بل أشرب به وهو في غمار مدافعته له باعتباره تصورات وثنية ممقوتة ؛ ثم اذا قدرنا أن عقيدته في اليوم الآخر وفي حلول مملكة الله كانت تتطور ــ ودون أدنى شعور منه أيضا ــ نحو العالمية ، بل ــ ومن يدري ؟ ــ نحو الوقوف بالتوازي أمام « الامل » الذي عبرت عنه « الاسرار » ــ في صورة قد تقوى أو تضعف ــ كالحق أمام الباطل ، وذلك بفعل التأثيرات الخارجية وكرد فعل عليها ؛ واذا انتهينا أخيرا الى أنه ــ تحت تأثير البيئة المحيطة به والثقافة العامة التي تلقاها ــ أصبح لا ينظر الى العقائد والشعائر الوطنية على أنها جميعها نسيج هش هزيل من الاخطاء •• بعد كل هذا ، لا بد لنا من الاعتراف بأننا وصلنا أو نكاد الى التفسير الطبيعي ، المنطقي ، المرضي ، لتحوله الى المسيحية : فلقد تحول اليها منذ اليوم الذي اقتنع فيه بأن المسيحيين على حق اذ يرجعون الى عيسى الناصري شرف اتمام رسالة « الخلاص » ، تلك الرسالة التي كاد المشركون ان يلمحوا بعض جوانبها ، ولكن اعماهم عن ادراكها غشاء فظنوها من عمل شياطينهم ، تلك الرسالة أيضا التي وعدت بها اسرائيل منذ زمن بعيد في النصوص المقدسة • وبعبارة أخرى : فقد

تم هذا التحول نتيجة التلاقي المفاجيء والادراك الخاطف المتعدد الموضوعات لمفاهيم روحية وفكرية ــ لم تكن بالغريبة ولا بالسطحية ــ اجتمعت مع العقيدة المسيحية في صورتها التي قدمها بها الهيلينستيون والتي كانت قريبة الى روح يهود العالم اليوناني • وراح صاحبنا بعد ذلك يعمل ، بما أوتى من علم بأصول الدين اليهودي ، على تطوير وتنظيم « ما تلقاه » ، وكان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة اليه •

ولكن السؤال الان هو : كيف تم مثل هذا الانقلاب ، الذي غير تماما ــ على الاقل في الظاهر ــ من اتجاهاته الضميرية ؟ لقد رأى فيه هو آثار معجزة اعتبرها « فاصلة » لفترتين من حياته : الاولى « قبل المسيحية » ، وكانت ظلاما ، والثانية « بعد المسيحية » وكانت نورا كلها ان المسيح تحدث اليه على طريق دمشق وأخبره صراحة بما كان عليه أن يفعله • لذلك دخل في المسيحية كما كان الناس يدخلون في الديانات ذات « الاسرار » ، لا نتيجة لتدبير فكري ولسلسلة من البراهين المنطقية، ولكن استجابة لدافع روحي لا يقهر •

ولا مجال هناك للشك في أن بولس قد آمن بالحقيقة الملموسة المادية لمعجزة التحول هذه • ولكن حديثه عنها وما ترويه «أعمال الرسل» بشأنها لا يسمحان ، للاسف ، بأن نصل منها الى الحد الذي يتيح لنا تحليل الظاهرة بصورة مرضية كل الرضى • وليس معنى هذا انها ظاهرة بالغة الغموض في حد ذاتها ، فتاريخ الاديان وعلى الاخص منها أديان العالم اليوناني ــ الروماني يعرض علينا « حالات » عديدة تشابهها بعض المشابهة أو كثيرها • ومع التحفظ اذن بشأن رأينا فيما نجهله من الامر ، أي في السبب المباشر الذي أحدث الصدام الحاسم في أعماق ضمير بولس، نستطيع الجزم ــ معتمدين على نظريات علم النفس الحديث ــ بأن نتيجة هذا الصدام كان قد مهد لها بتفاعل داخلي يغلب على الظن نه استغرق وقتا طويلا •وكان العنصران المشتركان في هذا التفاعل : أولا ــ خصائص شخصية الداعية نفسه ، المتقبلة ، بل النازعة ، الى الهزات والتهيؤات الصوفية • ثانيا ــ تلك التأثيرات التي تراكمت ــ اذا سمح لنا باستخدام مثل هذا التعبير ــ في أعماق اللاشعور لديه شيئا فشيئا : من تأثيرات

« اسرار » طرسوس وأنطاكيا التي عودته على فكرة « المنقذ » ، الى تأثيرات أساتذته من اليهود الذين جعلوه يتعلق بالامل في حلول مملكة الله ، ثم التأثيرات التي تلقاها في بيئة طفولته ، فأنشأته على عدم احتقار كل ما يأتي من الوثنيين ورفضه لاول وهلة . وعلينا بعد ذلك أن نذكر ، على الاخص ، ذلك القلق الديني العميق الجذور ، الذي نلمحه من خلال بعض السطور المشهورة من « الرسالة الى أهل روما » (٧/٧ ، وما يلي) . ومن الخطأ ولا شك أن نعطي لهذا النص من المعاني أكثر مما يحتمل ، فهو يعبر لنا عن حالة بولس النفسية قبل تحوله الى المسيحية كما ارتآها هو بعد هذا التحول ، يعبر عنها في لغة المؤمن بالمسيحية . الا أنه من اليسير علينا ، رغم ذلك أن نستخلص منه مفهوما عاما هو : أن داعية المسيحية المستقبل رأى نفسه ، في ذلك الوقت ، غير قادر على مقاومة الخطايا التي تبرزها الشريعة اليهودية ــ حسب تفسيرات العلماء الفريسيين ــ في كل مكان من الارض ، وفي كل جانب من جوانب الحياة . وتلك بالذات كانت ، في هذا الزمن ، الحالة النفسية التي تدفع بأهلها الى البحث في غير ما هوادة عن « المنقذ » ، عن « الوسيط الالهي » ، عن « الهادي » المنزه من الخطأ الى سبل الحق والحياة .

كان بولس أذن يحس بأنه ابتعد عن الله ، وبأن روحه أصبحت في « حالة » إثم وافتقار الى الكمال . وتلك حالة غريبة على نفسية « الرباني » الحق الذي يجد في الايمان « بهجة ويقينا » . الا أن بولس كان فريسيا « من أهل المهجر اليهودي » . ويجب تذكر هذه الملاحظة دائما عند تفسير انفعالات شخصيته . وكان من الطبيعي أن يستثير انتباهه بقوة ما وجده لدى المسيحيين من مظاهر السعادة في اليقين ، بالمقارنة مع حالته النفسية الخاصة . فاذا ما اتضح لنا ــ ونحن نؤمن بذلك ــ انه لم يواجه فقط بآمال أهل الجليل الساذجة ، بل وجد نفسه أمام صورة للمسيحية قد صبغت الى درجة ما بالروح اليونانية ، فحملت موت عيسى معنى التكفير عن خطايا البشر « حسب ما قدر في النصوص المقدسة » ... اذا ما اتضح لنا ذلك ، أصبح من اليسير علينا تصور

افتتانه بهذه المفاهيم وبالدعائم التي تستند اليها ، ثم احساسه اللاشعوري الغامض في بادىء الامر بأن فيما يلمسه منها الحل الامثل للمشكلة التي تحاور نفسه منذ أمد بعيد •

ولا نشك في أن هذا التفاعل التمهيدي قد تم ، في نطاق عقله الباطن ، في بطء وصمت ، وأن كل عنصر من عناصر الانفعال النهائي المستقبل نضج ـ اذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير ـ في عزلة عن الآخرين • أما الانفعال نفسه ، فقد وقع في صورة لمع خاطفة من التصوف ، بوحي الهام مفاجىء • وليس هذا التحول العنيف لجميع مقدرات الكيان بالامر الغريب على كبار الصوفية • ولنكتفي هنا بمثلين هما : رؤيا فرانسوا داسيز على طريق سبوليت ، وظهور العذراء للقديس ايجناس دي لويولا • ولا بد لنا من رسم الظاهرتين بنفس خطوط « معجزة طريق دمشق » ، وارجاعهما الى أسباب قد تتفاوت في درجة تشابهها ولكنها تؤدي الى عواقب متماثلة •

وخلاصة حديثنا اذن ان بولس كان موضوع نوعين من التأثيرات الممهدة للازمة التي جعلت منه مسيحيا بالقوة وداعية للمسيحية بالارادة • ويمكن وصف احدهما بأنه كان سلبيا ، بينما اتصف الاخر بالايجابية • فأما « الاول » من نوعي التأثيرات الممهدة فهو يقوم ، في تحليلة النهائي، على عاملين ، واحد منهما هو فكرة « المنقذ » التي لم يتعلق بها بولس في البداية ، وان كانت ملازمة لذكريات طفولته وقريبة ، في بعض جوانبها ، من الامل في حلول مملكة الله الذي يراوده باعتباره يهوديا من أهل المهجر • والعامل الآخر هو : تجربته الفريسية للشريعة اليهودية، وما خلفته فيه هذه التجربة من رهبة وقلق امام الخطايا المحيط به من كل جانب والتي لم يكن ليقدر على تجنبها • اما « ثاني » نوعي التأثيرات الممهدة فركيزته مظاهر اليقين المسيحي « الهيليني » الذي يعتمد على تحرر الانسان من الخطيئة ثم على الخلاص بواسطة « السيد عيسى » • ويمكن اذن فهم تحول بولس على انه تفجر مفاجىء لما تراكم من هذه التأثيرات المختلفة • وبذلك تصبح مراحل اتمام هذا التحول واضحة لنا كل الوضوح ، وان ظل سببه الحقيقي المباشر في طي المجهول •

وكان من منطق التفاعل أيضا أن يقوم بولس ، وقد تحدثنا عن خصائص شخصيته ، بمثل ما قام به فرانسوا داسيز وايجناس دي لويولا؛ أي كان من المنطق أن لا يكتفي بالاعتناق البسيط للمسيحية وبالانقلاب من مضطهد لها الى داعية . ولنؤكد هنا أن رؤيا طريق دمشق لم تغير من ذات بولس ، بل دفعته ، فحسب ، الى تطبيق مبادئه القديمة في اتجاه جديد . لقد ضم عيسى الى مجال نشاطه وتبناه في عنف ؛ فراح يكمل من معلوماته عنه . ولعله بدأ بدراسته هذه في دمشق أولا ، ولكننا نستطيع الجزم بأنه أتمها في انطاكيا بعد ذلك . وراح يعمل فكره وخياله ويطبق أساليبه ، التي اعتادها كيهودي وفريسي من أهل المهجر ، على « ما تلقاه هناك » . وهو ، حتى في دفاعه عن عقيدته الجديدة وهجومه على الشريعة اليهودية ، قد بقي يهوديا كما كان من قبل . وهذا ما يعبر عنه رينان بحق عندما يقول : ان بولس لم يغير سوى موضوع تعصبه [1] .

ولم يكن بولس حقا بالرجل الذي يكتفي بأن « يتلقى » الامور في سلبية . وليس هناك من شك في أن « الانجيل » الذي قال به مدين له بالكثير من الالهامات الخاصة ومن الايحاءات التي نبعت عن طريقة تأدينه لرسالته . وسوف نوضح ذلك فيما بعد . ومع ذلك فهو قد « تلقى » أشياء ، وهو يعترف بها ويقرها . وأن ما تلقاه لهو رصيد عقيدته وايمانه ، تلقاه من هؤلاء أنفسهم الذين صاغوه — ولو بغير ادراك منهم للامر — في الصورة التي استطاعت أن تؤثر فيه وتسيطر عليه ، وهو ما سوف يعمل بدوره في نشاط لا يقهر على التبشير به ونشره ، مع الافاضة في شرحه : دين بكل معنى الكلمة ، دين « خلاص » ، دين عالمي .

---

(١) في كتاب « الحواريون » ، ص ١٨٣ . انظر كذلك كتاب دايسمان، « بولس » ، المطبوع بتوبنجن عام ١٩١١ ، ص ٦٧ وما يليها .

الفصل السادس

عمل بولس الحواري

أ ـ استقلال بولس عن الحواريين الفلسطينيين ـ موقفه الاول تجاههم ـ كيف وجه برنابا نشاطه ـ حياة بولس كمبشر •

ب ـ ما أفاده من تلك الحياة ـ مشكلة دخول غير اليهود في الايمان ـ كيف دفعت هذه المشكلة بالفكرة المسيحية الخاصة بالبعث الى أن تصبح دينا متميزا ـ عقيدة بولس المسيحية تسير في نفس الاتجاه ـ كيف كان يدرك شخصية المسيح ورسالته ـ « المنقذ » و « ابن الله »، والتكفير عن الخطايا ـ جوانب « الغنوصية » في هذه العقيدة •

جـ ـ تأثير طقوس وشعائر المشركين الذين اعتنقوا المسيحية على فكرة التعميد والقربان عند بولس ـ الى أي حد يمكن اعتبار بولس مؤسسا للمسيحية •

ـ أ ـ

تخبرنا مجموعة « أعمال الرسل » بأن المكان الذي تم فيه تحول بولس الى المسيحية كان على طريق دمشق، وأن دمشق كانت مركز نشاطه الاول • ولا يضيرنا تصديق روايتها في هذا • فالامر الذي يهمنا هو ملاحظة أنه لم يتدرب على التبشير بالمسيحية في القدس أو على أيدي الحواريين الاثني عشر ، وأنه لم يعتبر نفسه تابعا لهم • لقد أيقن أن عيسى نفسه ، المسيح المجد ، نصبه حواريا بارادته الخاصة ، لذلك فهو يرفض أن يشكك أحد في هذا التشريف ، كما يشعر بأنه في غير ما حاجة الى ارشاد أو نصح من بشر أيا كان • ولنذكر هنا تصريحاته المترفعة الواردة في « الرسالة الى أهل جلطة » (١/١٠ وما يلي) :
« ••• هل أنا أبشر الانسان أم الله ؟ أم هل أريد أن يعجب بي الانسان؟

لو اني ظللت الى الآن موضوع اعجاب الانسان ، لما كنت خادما للمسيح.
أؤكد لكم اذن ، يا اخوتي ، أن الانجيل الذي أبشر به ليس من الانسان،
فاني لم أتلقاه ولم اتعلمه من الانسان ، بل ألهمه أياي عيسى المصلوب .

« ... عندما شاءت ارادة الذي اصطفاني ، يوم كنت في بطن أمي،
وناداني بفضله ، أن يظهر ابنه في ذاتي ، حتى أبشر بالنبأ الطيب
(لمجيئه) في ديار المشركين ، عندئذ لم أشاور اللحم والدم (بمعنى : لم
أشاور أي انسان) ، ولم أصعد الى القدس نحو (هؤلاء الذين كانوا)
حواريين قبلي ... لم أصعد الى القدس ، للتعرف على بطرس ، الا بعد
ثلاث سنوات » .

ولنلاحظ ، من ناحية أخرى ، أن جوهر التعاليم المسيحية اقتصر
بالتأكيد على مجموعة بسيطة من الجمل ، نرجح أن بولس كان على علم
بأهمها قبل رؤياه الحاسمة ؛ ولذلك لم يجد عنتا في القيام فورا بتدريس
ما أصبح يؤمن به . ولكنه يسهل علينا أن ندرك الحافز الذي دفع
بأهل القدس — دون ان يرتابوا في اخلاصه لدينه الجديد — الى
التحفظ فيما يتعلق بحقيقة ما ادعاه من رسالة ، والى عدم الاقتناع في
يسر بحديثه الواثق عن عيسى وكأنه عرفه مثلما عرفوه وأقام بجواره
مثلما أقاموا ، وهو الذي لم يحظ من ذلك بشيء . فلما رأى ، في أعقاب
سنوات ثلاث ، أن يصعد الى القدس ، لم يجد في مجتمع الحواريين
المحدود بها سوى نظرات الحذر والتشكك ؛ ولولا برنابا لما استطاع
حتى الاتصال بهذا المجتمع : فقد أعجب هذا الحواري بحماس بولس
وقوة يقينه ، فسار به الى بطرس ويعقوب الذين رأيا استقباله والاعتراف
برسالته . ومنذ ذلك الحين كان ولا شك يفترق عن الحواريين في
« الامور الخاصة بعيسى » ، أي أنه كان يتعلق بصورة المسيحية التي
رسمها الهيلينستيون ، والتي كانت أوسع في أبعادها من صورته لدى
الحواريين . وتروي لنا « أعمال الرسل » (٩/٢٩) : أن العروض التي
قدمها لآرائه في معابد القدس ، معابد اليهود التي كان يرتادها
الهيلينستيون ، أثارت ضجة كبرى اضطر بولس بسببها الى الاسراع في
مغادرة المدينة . وارتحل الى الشام والى سيليقيا ، أي الى أنطاكيا

وطرسوس • وفي هذه المدينة الاخيرة جاء اليه برنابا ، بعدما رأى من أمر المسيحية في أنطاكيا وما كشفه له هذا من آفاق المستقبل بالنسبة الى العقيدة الجديدة في العالم اليوناني • وكان برنابا رجلا ألمعيا ، ويا ليتنا نعرف عن حياته المزيد • فالفضل يرجع اليه في اقناع بولس بأن يقوم بنشر كلمة السيد عيسى الطيبة بين أرجاء العالم ، وبأن يبدأ من أجل ذلك حياته العنيفة كمبشر في آسيا الصغرى وفي اليونان ، حتى منعته عن ذلك السلطات الرومانية في القدس ••• كان يرتحل من بلدة الى أخرى، ولا يقيم بضعة أيام في أي منها الا حينما يجد جاليات يهودية هامة • وكان يبدأ بالحديث في المعابد ، فيثير فيها عادة لدى اليهود المخلصين غضبا عنيفا على ما يسميه بـ « انجيله » • وعندما يستطيع أن يهدىء من روعهم ويطمئن اليهم لفترة ما ، نراه يحاول اقناع من يأتي اليه من طلاب المعرفة ، ويتحدث اليهم في بعض البيوت الخاصة • فاذا ما نجح في دعوته الى درجة ترضيه ، أقام بالمكان بضعة أشهر ــ كما فعل بالنسبة الى كورينثيا ــ أو عاد اليه بعد حين ــ كما فعل بالنسبة الى أفسوس • وفي أثناء ذلك كله كان يكاتب سائر الكنائس التي « غرسها » ، في نشاط يزداد أو يقل حسب أهميتها ، بغية تدعيمها في أيمانها وارشادها الى جادة الحق عندما تخرج عنها • وليس من همنا هنا أن نفصل حياة بولس هذه ، العامرة بالنشاط ، الحافلة بالمخاطر والمغامرات ، البالغة الخصوبة ، ولكن علينا أن نحاول ادراك ما تعلمه منها •

ــ ب ــ

علمته هذه الحياة بادىء ذي بدء ، وفي وضوح تام ، حقيقة لم يكن الحواريون الاثنا عشر ليتقبلوها في سهولة ولم يكونوا ليدركوا أبعادها مثل ادراكه • تلك الحقيقة هي : أن « المتقين الله » كانوا يؤمنون في سهولة بفكرة « المسيح » ، بينما غالبية اليهود الخالصين يضعون على آذانهم وقلوبهم غشاء عندما يدعوهم المسيحيون الى ذلك • فهل كان على الاتباع ، والحال هذه ، أن يتركوا اليهود في ضلالهم يعمهون ، ويحملون دعوة الحق خارج ديار بني اسرائيل ؟ والى جانب المريدين من « المتقين الله » ــ الذين امتازوا على الاقل بثقافتهم

اليهودية ـ كان لا بد أن يأتي الى الايمان الجديد وفود من المشركين البسطاء • فهل للمبشرين بالمسيحية أن يقبلوهم فيها ويعدوهم بنصيبهم من مملكة الله ؟ هل يصبح هؤلاء الاجانب ، الذين يجهلون شريعة موسى، أصحاب حق في ميراث أمة «يهوه»؟••لا غرابة ان نرى الحواريين الاثنا عشر ، وهم الذين أشربوا بتعاليم عيسى وظلوا على يهوديتهم العميقة ، يستنكفون كثيرا من مثل هذه النتائج التي توصل اليها بولس ، ويبدون أمامها ترددا قويا • الا انه فرضها عليهم فرضا : اذ استطاع ايجاد البراهين المقنعة بشأنها ، معتمدا على تحليل أوجه النجاح التي لمسها خلال رحلته التبشيرية الاولى في ربوع آسيا الصغرى ؛ ثم ان مجتمع القدس كان يظن أن روحا الهية تسير الحواري الثالث عشر فيما يقوم به من أعمال • وكان هذا المجتمع فقيرا ؛ وكانت كنائس بولس تضم أحيانا بين أتباعها ثراة القوم وكرامهم ؛ وكان الحواري خبيرا بأساليب حثهم على مساعدة الكنيسة الأم • ومن ناحية أخرى ، كيف لا يعترف انسان بفضل تلك القوة التبشيرية بعد أن نشرت اسم المسيح المجد في كل تلك البلدان المختلفة ؟ ولما أصبح مبدأ دخول المشركين في الدين الجديد مقبولا ، وجد أنه من الصالح تيسير تطبيقه • وكان بولس على علم بأن عملية الختان لا يرضي عنها أهل اليونان ؛ وبأن أغلب أحكام الشريعة اليهودية للحياة العملية لا تتفق مع عاداتهم وأساليب تفكيرهم ؛ فلم يلبث أن آمن بأن تعاليم هذه الشريعة قد نسختها تعاليم المسيح ، بل بأن هذا المسيح أتى خصيصا ليبدل عهدا قديما بعهد جديد • وأذعن الاثنا عشر لبولس مرة أخرى ، فتقبلوا فكرة اعفاء الاتباع الجدد في ديار الوثنية منأحكام شريعة اليهود • وكان المعنى الضمني لهذا الاجراء: التفرقة بين المسيحية واليهودية ودفع الاولى الى أن تصبح دينا متميزا •

وصارت هذه النتيجة أمرا محتما بفضل نظريات بولس في المسيحية، تلك النظريات المتأثرة بالفكر الهيلينستي ، والتي غيرت تغييرا عميقا من تصوير الحواريين الاثنا عشر لعيسى ولحياته وموته • ولم يلبث الداعية أن أدرك أن فكرة البعث وحلول مملكة الله لا تهم الاغريق كثيرا ؛ بل لم تكن لتجد لها تفسيرا ودعامة الا بمزجها في عناصر الامل القومي

اليهودي • واذا أريد للمشركين أن يتفهموها ، كان لا بد من توسيع مداها وتقريبها من بعض المفاهيم المعتادة في تعاليم « الأسرار » الوثنية : فيقدم المسيح ، لا على أنه الرجل الذي نفخ فيه « يهوه » من قوته نجده للشعب المختار في محنته وتمكينا له من مضطهديه ، بل على أنه مبعوث الله حقيقة ، أرسل ليحمل الى الناس جميعا « الخلاص » واليقين بحياة أخرى سعيدة تجد فيها الروح ــ على الاخص ــ تحقيقا كاملا لما تطمح اليه من المصير الامثل • وراى بولس بوضوح أيضا : أن الاتباع الجدد من المشركين لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول « فضيحة الصليب » ، وأنه يجب تفسير ميتة عيسى المشينة ــ التي لم يكف الاعداء بطبيعة الحال عن الرجوع اليها ــ تفسيرا مرضيا يجعل منها واقعة ذات مغزى ديني عميق • وأعمل الحواري فكره في هذه المشكلة المزدوجة ، وذلك بطبيعة الحال حسب الاتجاه الذي رسمه له مجتمع المهجر « الهيلينستي » ؛ ووضع لها حلا كان له صدى بالغ المدى : لقد تجاهل فكرة « عيسى الناصري » التي أغرم بها الاثنا عشر ، ولم يتجه الا الى « عيسى المصلوب » ، فتصوره شخصية الهية تسبق العالم نفسه في الوجود ، وتمثل نوعا من التشخيص لروح اله ؛ تصوره « رجلا ••• رجلا سماويا » ، احتفظ به الله الى جانبه أمدا طويلا ، حتى نزل الى الارض لينشىء فيها حقا بشرية جديدة يكون هو « آدمها » • وقد عثر الحواري على العناصر الجوهرية لكل هذه التركيبات الفكرية في مجموعة معينة من التصورات المعتادة في « الاسرار » ؛ عثر عليها ، في غالب الظن ، دون أن يبحث عنها ، وكأنها نتاج طبيعي لتفاعلات في ذاكرته وفي عاداته الفكرية • وان النصوص التي تلقي اليوم أقوى الاضواء على العقيدة المسيحية لبولس ، حسب ما شرحناها به ، لهي النصوص « الباطنية » ، أي : المأخوذة عن « الأسرار » نفسها •

وهذه العقيدة تنتهي ــ اذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير ــ الى ثمرة تبعث كثيرا على الاستغراب ، تلك هي : أن السيد عيسى يصور لنا ابنا لله • ولكن فكرة الله ، بالنسبة الى بولس ، تدخل ضمن ميراثه من العقيدة اليهودية • وقد نتج عن هذا أن التوحيد اليهودي يفرض

نفسه على عقله فرضا مطلقا سابقا لكل الأمور الأخرى • والاله عنده هو « الأعلى » ، المتميز تماما عن الطبيعة والذي لا ينتشر فيها على أية صورة من صور وحدة الوجود • فكيف اذن يتأتى تصور أن يكون له ابن ؟ أو ــ بعبارة أخرى ــ كيف تفهم علاقة البنوة التي يراها بولس بين « السيد » والله ؟

وقد يميل، بادىء ذي بدء، الى الاعتقاد بأن الامر لا يتعدى أسلوب حديث معين أو صورة بلاغية • فاليهود كانوا يطلقون عبارة «خادم يهوه» على كل انسان يظنون لديه « الهاما » منه • والتوراة « السبعينية » كثيرا ما تترجم هذه العبارة الى اليونانية بالكلمات التالية : παῖς τοῦ θεοῦ وكلمة παῖς تعني في نفس الوقت « خادم » أو « طفل » ، تماما كالكلمة اللاتينية puer • وعلى هذا يكون التطور في اللغة اليونانية من παῖς ، أي « طفل » ، الى υἱός ، أي : « ابن » ، أمرا في غاية من البساطة • وقد حدث مثل هذا التطور اللفظي فعلا في النصوص اليهودية ــ المسيحية (كمجموعة « اعمال الرسل ») عندما نقل بعضها الى رسائل بولس [1] • الا أن التحليل الدقيق لكتابات صاحبنا يدل على أنه كان أكثر عمقا في التفكير من أن يتنزل الى مثل هذا التلاعب الهزيل بالالفاظ • ويكفي لاثبات ذلك أن نذكر النص المشهور من « الرسالة الى أهل روما » (٨/٣٢) ، حيث يقول : ان الله « لم يعف ابنه نفسه وضحى به من أجلنا جميعا » • ولكن بولس لم يكن ليدرك في ذلك الوقت كل ما ترتب على مفهوم « ابن الله » بعد ذلك من مشاكل في فلسفة الدين لا تحصى • وهذا أمر يجب أن لا تتناساه أيضا ؛ ويترتب عليه احتمال أنه لا يستخدم التعبير الا بمعنى تقريبي ، يحاول به أن يفصح قدر المستطاع ــ بانشاء مقارنة ضمنية لا تبعد عن الذهن البشري ــ عن علاقة « فوق بشرية » لا يجد لها الاصطلاح الجامع المانع الذي يرضيه •

---

(١) تعبير « ابن الله » لايرد سوى مرة واحدة في « أعمال الرسل » (٩/٢٠ ويقدم لنا في تلك المجموعة باعتباره تعبيرا خاصا ببولس ، وهذا أمر جدير بالملاحظة .

أما ما يجب تجنبه في هذا المجال ، فهو القول بأن هناك خلطا بين « السيد » وبين « الله » ؛ فمثل ذلك الخلط لا يمكن تصوره لدى بولس الذي لم يكن لتخطر على باله فكرة « الثالوث » • أن « السيد »، عنده ، يهيمن عليه الله (انظر « الرسالة الاولى الى أهل كورينثيا » ، ٣/٢٣) ، وهو طوع أمر الله « حتى الموت » (انظر « الرسالة الى أهل فيليبيا » ، ٢/٨) ، وخاضع له تمام الخضوع (انظر « الرسالة الاولى الى أهل كورينثيا » ، ١٥/٢٨) • ولا نجازف بالقول عندما نرى أن نص « الرسالة الاولى الى أهل كورينثيا » (٨/٦) يحكم سائر جوانب المسألة • وفيما يلي هذا النص : « بالنسبة الينا نحن على الاقل ، ليس هناك سوى اله واحد ، هو الآب ، منه كل شيء ونحن فيه ؛ وليس هناك سوى سيد واحد ، هو عيسى المصلوب ، به كل شيء ، ونحن به » • وهكذا ، فمهما بلغ أمر « السيد » من خطورة ووجوب بالنسبة الى عمل الله ، فأنه لا يتساوى معه قط • ولكنه يمثل روحه ؛ و « الرسالة الثانية الى أهل كورينثيا » (٣ / ١٧) تخبرنا بأن «السيد هو الروح » • ولا يستطيع بولس أن يأتي بما يقرب أكثر من هذا بين اللفظين البالغين في السمو أقصى درجاته ، وهما « السيد » و « الله » ؛ وتلك هي بالذات العلاقة الوثيقة التي عبر عنها بلغة البشر عندما قال : ان « السيد » هو « ابن الله » ، دون ان يفترض هذا التعبير ايمانا منه بنظرية النبوة في معناها الحرفي •

واذا أردنا التحديد ، وجب القول بأن بولس كان يرى أن «السيد» يمثل بمفرده « صنفا من أصناف الخليقة » ، يعتبر أقرب صنف الى الله ، ويمكن وصفه بـ « الهي »• ومن ناحية أخرى ، فمن المؤكد لدينا ان الاعتقاد بألوهية المسيح بعد ذلك كان لا بد له من النمو ، اذ بدا تصوير بولس له مشوبا بالكثير من التردد والنقص ، بحيث لم يقدر له مقاومة الزمن • واتجهت تقوى المؤمنين في قوة ، دون ما أدراك للعقبات ، الى تنشيط الايمان بالوحدة بين « السيد » والله •

ولا نريد هنا أن نتحدث تفصيلا عن بعض المفاهيم الخاصة بفلسفة الأديان ، واللاهوت ، فليس هذا مكانها ، فضلا عن أنها بلغت من التعقيد

أعاد الحواري تنظيمها المنطقي حسب سابق تكوينه الفكري كمثقف يهودي • وتحول عيسى بذلك الى رسول لله بعث الى العالم أجمع ، سابق للكون وللزمن ، تتمثل فيه الروح القدس التي تعتبر جوهره الرباني ، ويعمل على تنفيذ خطة الله الكبرى المتعلقة ببعث الانسانية وخلاصها •

وهكذا أصبح موت عيسى واضح المفهوم : ان بني الانسان لينوؤن بثقل خطاياهم ، فلا يجدون سبيلا الى النور الهي • وقد أراد المسيح أن يهديهم السبيل ؛ فحمل عنهم آثامهم وكفر عنها بعذابه وموته • وبالتالي ، كان على البشر أن يتوحدوا فيه ــ بالاطمئنان والحب قبل كل شيء ــ حتى يشاركوا في فضله ويجدوا الرحمة يوم القيامة • وهكذا أيضا أصبحت « الفضيحة الكبرى » المزعومة هي هي : السر الأعظم ، والهدف ، والعلة الاولى لمجيء عيسى برسالته ؛ وليس أدل على ذلك من قول بولس بأن سائر عمله التبشيري لم يكن سوى « حديث للصليب » • ولم يكن هذا الحديث بالذي لا يتأثر به اليونانيون ، بل كان لا بد له من أن يستثير عاطفتهم ؛ ولم يكن أيضا ، في حد ذاته ، ليفرض شيئا لا يرضى عنه الحواريون الاثنا عشر ، ما دام قد حفظ لهم روعة ذكرياتهم الواقعية كلها ، وأضاف سموا واجلالا لم يكونوا بالغيه في صورة أستاذهم • سوى أنه أدى الى تغيير جذري لحدود ومعنى العقائدية الواسعة التي كانت غريبة ، بل مكروهة ، لدى البيئة التي عمل هذا الاستاذ • كما وضع في نفس الوقت أسس تلك التركيبات التي عاش فيها المسيح • وكانت عقيدة بولس مع ذلك أقل تعقيدا وأقرب الى البساطة ــ بل نسمح لانفسنا بالقول بأنها كانت أقل ضربا في الخيال ــ من المذاهب التأليفية الكبرى التي عرفت في القرن الثاني بأسماء أصحابها من أمثال فالنتين أو بازيليد • الا انها مهدت الطريق لهذه المذاهب ؛ فقد أصبحت منذ ذلك الحين نوعا من « الغنوصية » التأليفية و « الهاما » يعتمد على تركيبات معينة •

— ج —

وكان المشركون الذين يأتون الى المسيحية بعد مرور عابر بالمعابد

مبلغا يجعلها في كثير من مناحيها محل جدل لا ينتهي ؛ وقد كتبنا ما فيه الكفاية ليدرك القارىء أبعاد الصورة التي أصبح عليها عيسى الناصري تحت تأثير أساطير الشفاعة والخلاص الشائعة في بيئة بولس ، والتي اليهودية ، أو يجيئون اليها مباشرة بعد تركهم عقائدهم القديمة ، كانوا يعيشون في بيئة لا تتصور دينا مجردا من الطقوس • وكانت أكثر هذه الطقوس اثارة للعواطف ، بالنسبة اليهم ، تلك المتعلقة بفكرة التطهر وبمفهوم التضحية : سواء منها التضحية المكفرة عن الذنوب ، بغية تهدئة الغضب الهي ؛ أو المهداة الى اله ليرضى ؛ أو أضحية التقرب التي من شأنها أن توحد بين الاتباع وبين الههم وتبين أنهم جسم واحد أمامه • وكان الاثنا عشر ، وهم اليهود الأتقياء ، يواظبون على ارتياد المعبد الاكبر ، ولا يخطر ببالهم أنهم بحاجة الى طقوس غير تلك التي كانت تقام به ، الا أنهم كانوا يعلقون أهمية خاصة على شعائر التطهر بالتعميد • ولقد أصبح قبول التعميد ، لدى الكنائس المقامة في ديار الوثنية ، علامة اعتناق المسيحية • وكان الاثنا عشر أيضا ، عندما يلتقون في دار أحد الاخوة ، « يطعمون الخبز جماعة » • واتخذ هذا التقليد الشائع بين بني اسرائيل والذي نرجح أن عيسى كان يقوم به أيضا عند مشاركته للحواريين في الطعام ـ اتخذ في معناه لديهم ثوب رمز للوحدة : وحدة بين أعضاء الجماعة ووحدة بينهم وبين المسيح • غير أن الدلائل كلها تشير الى أنهم ، حتى ذلك الوقت ، لم يكونوا ليربطوا بصلة ما بين « كسرة الخبز » وبين موت المسيح ، ولم يحملوا التقليد في ذاته قيما تبلغ به مستوى الشعائر القدسية ، كما لم يرجعوا أصل وجوده ووجوب القيام به الى تعاليم أستاذهم •

وشعر بولس بضرورة الكشف عن المغزى العميق لتقليد « تناول الخبز جماعة » • ولقد وجد له تفسيرا ربطه برباط لا ينفصم الى عذاب عيسى الذي تحمله لتخليص البشرية ، وغمره غمرا بذلك المفهوم الخصب للتضحية من أجل التكفير ومن أجل التقرب والمشاركة في الذات الهية ، فجعل منه غاية لسر رفيع ، وتذكرة ورمزا حيا ـ أرادهما عيسى نفسه ـ فيما زعم بولس لما لقيه من عذاب الصليب • وتقول « الرسالة الأولى

الى أهل كورينثيا » (١١/٢٣) : « في الليلة التي سلم فيها (الى الرومان) أخذ السيد عيسى خبزا ، وبعد أن شكر الله ، كسر هذا الخبز وقال : « هذا جسدي ، وهو لكم ؛ فلتفعلوا ذلك دائما تذكرة لي » • وهكذا أيضا تناول الكأس ، بعد العشاء ، وقال : « هذه الكأس هي العهد الجديد في دمي • فلتفعلوا ذلك كلما شربتم ، تذكرة لي ؛ ذلك أنكم كلما أكلتم من هذا الخبز وشربتم من الكأس ، كأنما تعلنون موت السيد ، حتى يأتي اليكم » • ولم يكن قد قدر لأي طقس من طقوس « الاسرار » الوثنية أن يذخر بمعاني وفيرة وبآمال جذابة ، مثل ما ذخرت به الطقوس الخاصة بالقربان لدى بولس ، غير أنها كانت من قبيل عائلة الطقوس الوثنية ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودي ؛ ولقد ادخلت في كنيسة الحواريين « قطعة من الوثنية » • ولكن المسيحيين تقبلوها أيضا بصدر رحب لانها أضافت الى أيمانهم درجة أخرى من التسامي ، وأن أصبحت بعد ذلك موضوعا أساسيا لتركيبات لاهوتية واسعة النطاق تولدت عنها عقائد كبرى عديدة •

وفي نفس الوقت اتخذت طقوس الاغتسال للتعميد معنى لا يقل عمقا عما سبق • ذلك أن بولس يقول في « الرسالة الى أهل جلطة » (٣/٢٧) : « أما أنتم الذين عمدتم في المسيح ، فقد ارتديتم المسيح » • وهذا يعني أن المسيحي يتحد بالمسيح بواسطة التعميد • ونحن ، في قولنا هذا ، قد تتجاوز حدود النص الحرفية ؛ فبولس لم يجروء قط على القول بأن التعميد يجعل من المسيحي « مسيحا » ، مثلما تجعل طقوس التضحية بالثور في عبادة سيبيل من المؤمن بها و « الها هو أتيس » ؛ الا أن مفهوم هذا التعميد نابع من نفس وجهة النظر التي يفسر بها مفهوم التضحية بالثور • فبالتعميد « يرتدي المسيحي المسيح » كما يرتدي اللباس المقدس المنجي ؛ وهو ينزل رمزيا الى عالم الأموات بغطوسه في النهر أو في اناء التعميد؛فاذا ما خرج بعد غطسات ثلاث ــ تماما كما خرج المسيح من القبر بعد أيام ثلاث ــ أيقن بأنه سوف يمجد يوما ، أن أراد الله له ذلك ، كما مجد المسيح •

وعلينا أن نؤكد ، وأن نكرر التأكيد ، بأن بولس لم يكن هو

المخترع الفرد لكل هذا ؛ وبأن الكنائس الهيلينستية السابقة له ، ومن قبلها جماعات اليهود النازعين الى التأليف والغنوصية ، قد مهدت جميعا لعمله وأنشأت الموضوعات الأساسية التي دار حولها تفكيره • ولهذا فمن المبالغ فيه القول بأنه هو المؤسس الحقيقي للمسيحية • أما المؤسسون الحقيقيون للمسيحية ، فهم هؤلاء الرجال الذين أقاموا كنيسة أنطاكيا ؛ واننا لا نكاد نلمح اسماءهم ، وقد طواها النسيان • الا أن بولس كان يمتاز عنهم بنشاط أوسع ابعادا وأوفر دقة ؛ فضلا عن تفوقه الذي لا ينازع في أدراك معنى هذا النشاط ومداه • أنه لم يؤسس المسيحية اذا عرفناها بأنها تطويع فكرة الانتصار ومملكة الله اليهودية لفكرة الخلاص الهيلينية • ولكن ، بدون بولس ، كان من المحتمل أن لا توجد المسيحية •

الفصل السابع

المسيحية كدين مستقل

أ ـ الايمان المسيحي لم يستطع تجنب التأثيرات الهيلينية ـ التيار اليوحاني ـ المقاومة اليهودية المسيحية للبولينية ولليوحانية ـ كيف غلبت هذه المقاومة على أمرها شيئا فشيئا ـ أنفصال الايمان عن الشريعة ـ انفصال الكنيسة عن المعبد ـ الموقف على أعتاب القرن الرابع .

ب ـ المهد اليوناني الروماني ـ موضوعات الميتافيزيقا المدرسية ـ الحركة الفكرية في المجال الديني من القرن الاول الى القرن الرابع ـ الديانة الرومانية الرسمية والعاطفة الدينية ـ الدفعة التي اتت من الشرق ـ التأليف الديني الفردي في القرن الثالث ـ كيف ظهرت المسيحية كدين شرقي ، وكيف اتجهت الى الفرد ـ المسيحية لا تقبل التأليف الديني ، ولكن في الظاهر فحسب ـ التقاء المسيحية بالفلسفة .

جـ ـ تأثير الثقافة الهيلينية يدفع الايمان في اتجاهين مختلفين ـ اكتمال تحول المسيحية الى فلسفة الهامية ـ ازدهار الغنوصية ـ دور الفرق في تطور العقيدة ـ أثر الطقوس الوثنية .

د ـ صورة المسيحية في بداية القرن الرابع ـ كيف أصبحت دينا مستقلا معاديا لليهودية ـ شروط الايمان ـ كنيسة الكنائس ـ التعصب المسيحي .

ـ أ ـ

عندما خضع بولس لقوى الواقع ، استطاع أن يطوع هذه القوى لبعقريته الفكرية : فقد كان سباقا الى قبول فكرة انفصال المسيحية عن اليهودية ، ذلك الانفصال الذي أظهر سير الأحداث أن ليس منه بد ؛ ولكنه مهد له بانشاء العقيدة المناسبة.ولم يكن الايمان المسيحي على أي

حال يستطيع تجنب تأثيرات البيئة الهيلينية متى ما خرج من حدود فلسطين . ولقد بينا فيما سبق كيف حدث ذلك قبل مجيء بولس . وكان من المحتم أن يطبق على هذا الايمان ، في العالم الاغريقي ، نفس أساليب التفسير التي أراد بها يهود الاسكندرية أن يوفقوا بها بين شريعة موسى وبين الفلسفة اللادينية . وتتبع أحد الأسيويين المجهولين خطى فيلون في هذا المجال ، ففرض في مقدمة الانجيل الرابع أن عيسى المسيح ظهر على الارض ممثلا ل « اللوغوس » ، أي كلمة الله ومبدأ الفعل لدى يهوه ــ حسب مدرسة الاسكندرية ــ وأنه يشارك الله في خلوده [1] . وكان هذا فرضا يبلغ في مفهومه مبلغا هائلا من الخطورة ، ولا يعني أقل من أن عيسى المصلوب ليس سوى ظاهرة مباشرة لله ، أي أنه ــ اذا أخذنا بتسلسل الفكرة المنطقي ــ ليس سوى الله نفسه . وكان أيضا فرضا يخرج عن نطاق التأدب الديني بالنسبة الى اليهود الذين لم يكونوا ليدركوا قط أن اللانهائية الالهية ــ تلك التي لا يجسرون على النطق بوصف لها خشية الانحراف الى تحديدها ــ يمكن أن تتجسم في الحدود الضيقة للجسد البشري . ولكنه ، الى جانب ذلك ، كان فرضا يسهل التوفيق بينه وبين نظرة بولس للمسيحية ، أو ــ بتعبير أدق ــ فهو فرض ينتمي انتماء وثيقا الى اتجاهات هذه النظرة نفسها اذا أخذنا في الاعتبار ذلك التصريح الأساسي في كتابات الحواري : « السيد هو الروح » ؛ كما كان فرضا بالغ الاغراء بالنسبة الى أهل اليونان، ومنسجما تمام الانسجام مع رغبات الايمان العميقة ، التي لا تنفك تدفع بالمؤمنين الى الازدياد من تمجيد شخصية عيسى ، فتحاول ــ ويكاد ذلك يكون بلا وعي ــ أن تقربها من الله !

ولم يقبل اليهود ــ المسيحيون برضاء تام كل هذه التبديلات ، والاضافات التى أريد فرضها على ايمان الحواريين الاثنا عشر ، وان كانوا

---

(١) ١\٤ : « وتحولت الكلمة الى لحم ، وعاشت بيننا ، ورأينا مجدها ، مجدا كالذي يتخذه الابن الاوحد من ابيه » . والكلمة اليونانية « لوغوس » تترجم في النصوص اللاحقة للتوراة ب « الفعل » ، او « الكلمة » .

لم يدركوا ، بعد ، كل ما سوف يترتب عليها من نتائج ؛ ذلك أن الامتياز الرفيع الذي ظنوه مقصورا عليهم ، امتياز « وراثة مملكة الله » ، كان لا بد له من التلاشي والانهيار بعد مشاركة كل هذه الجموع من الاتباع فيه ؛ ثم لأنهم كانوا يهودا يزعمون البقاء على يهوديتهم ، حيث علموا علم اليقين أن أستاذهم كان يهوديا • فعارضوا بولس معارضة قوية ، حتى بين رحاب الجماعات التي كان له الفضل في انشائها • وحتى بعد أن اعترف الحواريون الاثنا عشر به حواريا مثلهم ، وأحنوا رؤوسهم ظاهريا لكل ما طلبه منهم من تنازلات لصالح الاتباع الجدد الذين اعتنقوا المسيحية على يديه ، حتى بعد هذا ، نراهم يستسلمون الى ضروب من « التوبة » ، وضعته أحيانا في مواقف حرجة • وأصدرت فرق المتعصبين للشريعة كتبا تهاجمه في عنف • وان رسائله الى أهل كورينثيا وجلطة — مهما بدا لنا ، الى اليوم ، من غموض تفاصيلها — لتشير في مجملها أشارة واضحة الى عداء هؤلاء القوم الذين لم يكونوا ليترددوا في اظهاره للناس دعيا خارجا عن الدين ، لو استطاعوا الى ذلك سبيلا • وبعض المؤلفات المتأخرة في التراث المسيحي — مثل الكتب المنسوبة الى كليمان رومان الذي عاش في نهاية القرن الاول—تحمل آثارا من هذه المشاحنات•

والى جانب ذلك ، فقد أثارت النظريات اللاهوتية في المقدمة اليوحانية ، هي الاخرى ، معارضة عنيدة • الا أنه كان من اليسير ، منذ السني الاخيرة لجيل أصحاب عيسى ، أن يتنبأ الناس بالكفة الراجحة في ميزان قوى الدعوة المتصارعة ، بالنسبة الى المستقبل •

فمنذ ذلك الحين ، في الواقع ، بدا واضحا أن عودة « السيد » ، أي ظهوره على الارض من جديد — تلك الظاهرة التي طال أمد انتظارها كثيرا — بدا واضحا انها قد تتأخر عددا لا يمكن حسابه من السنين ؛ فأصبح الحديث عنها ، شيئا فشيئا ، لا يشفي غليلا ، وبدأ مفهومها يخرج من دائرة حياة المؤمنين العملية ، وتضاءلت بالتدريج مكانتها في صدر ايمانهم • وعلى أي حال ، فان صورة القيامة التي تضمنت ملامح هذه الظاهرة المنتظرة ، لم تكن بالصورة التي تجذب الاغريق والرومان بالقدر الذي كانت تستهوي به اليهود • فعقائدهم القديمة الآخذة

بالازدواج ونزعاتهم الى الروحانيات ، كانت تمنعهم من أن يعطفوا تمام العطف على الايمان بالبعث المجسد وبمادية مملكة الله ويوم الانتصار الموعود ، تلك المجالات التي كان التفكير اليهودي يعشق ارتيادها • ولما أصبح الأتباع الجدد من المشركين غالبية بين المؤمنين وصار واضحا أن التبشير بالمسيحية لن يقدر له النجاح الا في ديار الوثنية ، تحتم على ما سوف يعرف فيما بعد بـ « عهد الايمان » ، ان يبرز وينمو مطابقا لصبوات هؤلاء الناس وتطلعاتهم • ولما كانت نظريات بولس وفروض الانجيل الرابع شافية لرغباتهم اللاشعورية ، فقد رجح الاعتقاد بأن التركيبات النظرية في اطار المسيحية ـ تلك التركيبات التي فاقت كثيرا كل ما تصوره الاثنا عشر في ايمانهم الاول ـ لن تنفك تنمو وتتضخم حتى تحتل أكبر مكانة من العقيدة •

وفي نفس الوقت أيضا : تم الانفصال الفعلي بين الكنيسة والمعبد ، وأصبح اتباع عيسى يتحدثون عن اليهود بعبارات لا شك في أنها كانت غريبة كل الغرابة عن تعاليم أستاذهم • ولن يلبث هؤلاء الاتباع حتى يرفضوا الاعتراف لليهود بأي ادراك للحق وبأي فهم للشريعة الموسوية نفسها [1] • ولقد طغت الكنائس الكبرى ، التي احتشد فيها قدامى الوثنيين ، على البقية المتبقية من تلك الجماعات الصغيرة الفقيرة التي أسسها الحواريون وأتباعهم اليهود ، والتي لم تضم في غالبيتها سوى أناس يؤمنون بالعبادات اليهودية ، بالشام ، وبمصر ،وبروما أيضا حسب ما تشير اليه بعض الدلائل •

وكانت هذه الجماعات تجتهد في المحافظة على التعاليم التي تلقتها من رجال عرفوا« السيد » وصاحبوه، فاتهمت بهزال التفكير فيما يخصه، وأوشك ان يأتي اليوم الذي يرفض أغلب المسيحيون لها فيه حق التطلع

---

(١) يبدو ان الرسالة المسماةبـ « رسالة بارنابا »وهي من المؤلفات التي تهاجم اليهود في عنف عنيف ، يبدو وأنها كانت ، على أرجح التقديرات ، كتبت الف بالاسكندرية فيما بين عام ١١٧ وعام ١٣٠ . الا ان احد المؤلفين المسيحيين من سوريا كان يصف اليهود قبل ذلك بخمسين عاما بـ « المنافقين » .

الى قسطها من « الخلاص ».ولقد كتب القديس جوستين : أن المسيحيين الذين يداومون على احترام أحكام اليهودية سوف يصلون ، في رأيه ، الى « الخلاص » ، على شريطة أن يحاولوا فرض شعائرهم على الآخرين . ولكنه أضاف الى ذلك : أن الكثير من المؤمنين سوف يستنكفون من الاتصال بهؤلاء القوم . والواقع أن المسيحيين اليونانيين ـ الرومانيين أصبحوا لا يشعرون برابط يربطهم ببني اسرائيل ، كما أصبحوا يحملون الشريعة اليهودية معنى رمزيا بحتا ، رغم تصريح المسيح فيما مضى : بأنه لن يبدل من هذه الشريعة حرفا .

وفي نفس الوقت أيضا بدأت الجماعات المسيحية ، التي انفصلت عن المعابد تماما ، تنظم صفوفها لتقوى على الحياة ؛ فاختارت باديء ذي بدء رؤساء زمنيين كلفوا بالسهر على مصالحها المادية وعلى استتباب النظام بين رحابها ؛ بينما راح « الملهمون » من الاعضاء بوحي من الروح القدس ، يدعمون وينشرون الايمان . وعندما أحست هذه الروح بالحاجة الى الاستقرار ، بدأت تتشكك في أمر « الملهمين » وما يبدر عنهم من نشاط شخصي ، فبحثت عن السبيل الى اقامة تنظيم أكثر فاعلية لادارة « مصالحها » الروحية . ولعل النظام الملكي بين رجال الكنيسة قد نشأ عند انتهاء الجيل الذي اتصل بالحواريين وعرفهم . ويمكن التأكيد ، على أي حال ، بأنه ، عقب هذا الجيل ، كان وشيك القيام .

وبعبارة أخرى ، فان المسيحية ، في مقتبل القرن الثاني ، تظهر لنا في ثوب دين مستقل ، يدرك أصحابه تماما انفصاله عن اليهودية ، وان كانت عناصره لم تزل بعيدة عن الانسجام ، كما لم تخرج طقوسه وتنظيماته عن الطور البدائي . وكانت هذه المسيحية ، منذ ذلك الوقت ، قد ابتعدت كثيرا عن الافكار التي جاء بها عيسى والحواريون ،وأصبحت تتجه الى بني الانسان جميعا دون تفرقة بين الاجناس او الطبقات الاجتماعية ، لتدعوهم الى حياة الخلود .

ـ ب ـ

عرفنا فيما سبق من الفصول ان العالم اليوناني الروماني ، خلال الفترة التي انتقلت فيها اليه آمال المسيحية ، لم يكن صحراء فكرية

وعقائدية قاحلة ، بل كان يحمل في رحابه نوعا من التفكير الديني • وقد لا يكون هذا التفكير الديني في الواقع متكاملا ـ اذ تعلق ، حسب كل فرد ، بموضوعات مختلفة ، أوحاول ، على العكس من ذلك ، أن يؤلف بين موضوعات غير متشابهة ـ الا أنه كان ، رغم هذا ، تفكيرا لا يقبل أن يتلاشى دون رد فعل • وكان يعتمد لدى الطبقات الجاهلية ـ التـي كثيرا ما تخلصه بالسحر ـ على مجموعة كبيرة من العادات والآراء المتوارثة التي يكاد يستحيل القضاء عليها • أما لدى الطبقات المستنيرة ، فكـان عماده أيضا ثبات التقاليد ، بالاضافة الى التربية الفكرية المعتادة • ففي كل ربوع الامبراطورية كانت المدارس تبث في الاطفال روحا متسقة ، وكانت تعلمهم أساليب منطقية متشابهة وتدعوهم الى معين ثقافي واحد ، ينتظم تفكيرهم الديني بالضرورة طبقا لمقتضياته • ولبرز من الآن عاملا أساسيا في المسألة ، وهو : أن ثقافة هذا العصر كانت مقصورة ، أو تكاد ، على المجال الأدبي • فقد كان أمام طالب العلم الفتى طريقان لاتمام دراساته : الاول منهما منهج البلاغة التي لا يتعلم به سوى فن ترتيب الافكار والكلمات ، والثانية الفلسفة ، التي تريد أن تكشف له أسرار العالم وأن تعطيه تفسيرا للحياة ثم تؤسس لديه مبادىء وأحكام الاخلاق ولم تكن الفلسفة تعتمد في كل ذلك على أي من العلوم العملية : فالنزعة الى البرهان التجريبي ، التي ألفها الفكر العبقري اليوناني قديما ، كانت قد أضيعت وانتهى أمرها ، وشاعت بين الناس خرافات لا يحصى عددها ، رددوها على أنها حقائق ، رغم تهافتها أمام التحليل السليم • لذلك لم يكن علم الطبيعة يعتمد في هذا الزمن الا على نوع من الاستقراء الذي لا أساس له ، وعلى نظريات يدعي أصحابها أنها علمية ، وان كانت لاتمت الى العلم الا ظاهريا • لذلك فان الفلسفة ، رغم خصوبتها في المجـال الاخلاقي الذي أظهر فيه الكثيرون حكمة وبراعة وبلاغة كبيرة ، نراها تتشتت بين مذاهب ميتافيزيقية عديدة ، قد تهمنا بوصفهـا تركيبـات فكرية ، ولكنها تبقى بعد ذلك مذاهب تحكمية بحتة لانها غير مؤسسة على الواقع • وعلى أي حال ، فقد أنشئت هذه المذاهب منذ زمن بعيد بفضل مفكري الاغريق ، ثم تطورت في العصر الذي نتحدث عنه حتى لم تعد

غير « موضوعات » يطرقها الاساتذة ويغيرون فيها ويبدلون ، كل حسب اتجاهات شخصيته الفكرية • ولما كانت هذه الموضوعات غريبة تماما عن العلوم الوضعية ، سهل تطويعها وحشوها باضافات لاتمت بصلة الى مذاهب أصحابها الاول : هكذا مثلا كان فيلون قد جمع بينها وبين الفروض الاساسية للشريعة اليهودية ؛ وهكذا استنبط منها فلاسفة الافلاطونية الحديثة نوعا من الأديان الملهمة ؛ وهكذا أيضا أدخلها علماء الاسكندرية المسيحيون في اطار مفاهيم ايمانهم ، فخرجت من هذا الخليط عقائدية جديدة • وفي حد ذاتها ، لم تكن الموضوعات المذكورة لتستطيع مقاومة أمام مثل هذه النزعات • الا أنها ، من ناحية أخرى ، كانت ضربت بجذورها في أذهان المثقفين وتقبلها الناس جميعا ، حتى العامة منهم ، باعتبارها حقائق لا مماراة فيها ؛ فصار من المحتم ان يحسب حسابها في كل تفسير للعالم والحياة ومصير البشرية ، وفي كل دين يقوم بالبلاد •

ولنلاحظ ، بالاضافة الى ذلك ، أن المسيحية أدخلت في العالم اليوناني الروماني خلال القرن الاول ، فلم تثبت به وتتمكن سوى في القرن الثاني ، ثم لم تنتشر كل الانتشار الا في القرن الثالث • وان ما نسميه اليوم بـ « روح الشعب » وبـ « الرأي العام » ، لم يبق على موقف واحد ، خلال هذه القرون الثلاثة ، تجاه المسائل الخاصة بالفلسفة وبالدين • حقيقة أن موقف الطبقات الممتازةظل مختلفا عن موقف الطبقات الدنيا ، ولكننا نستطيع القول بأن عند كل من الطائفتين كان يتغير بمرور السنين • واذا ما كانت المسيحية قد انتشرت كل هذا الانتشار في القرن الثالث ، فذلك لان التغير تم وفقا لمصالحها •

وفي العهد الذي حلت فيه الامبراطورية محل الجمهورية كانت الديانة الرسمية اليونانية ـ الرومانية قد تطورت الى نوع من التأليف الديني ، الى نوع من التوفيق ـ تم على أعقاب احتلال الرومان للشرق الاغريقي ـ بين آلهة المنتصرين وآلهة المغلوبين • ولم يكن المثقفون من الناس يؤمنون بها ، وان أظهروا احترامهم لها في المجالات العامة ، ولم يستنكفوا من المشاركة في طقوسها عندما تقتضي الظروف مشاركتهم ؛

ذلك انهم آمنوا بضرورتها بالنسبة الى عامة الشعب الذي يحتاج الى ضابط لأطماعه ولغرائزه الفطرية الخطرة ؛ وأنهم لم يتناسوا أن دولتهم القديمة قامت على أطراف منها في قديم الزمن ، وأن أجدادهم اعتمدوا عليها في كفاحهم المتصل ، ثم لأن هذه الديانة لما تمتاز به من صفات رومانية خاصة ـ هي الرابطة الملموسة بين أهل المدينة الكبرى روما . وكانت نزعتهم المتفاوتة من العمق الى الشك تدفعهم نحو مذاهب المدارس الفلسفية المختلفة ، يطلبون منها ، كل حسب حاجته الشخصية ، الغذاء الميتافيزيقي الذي لا يستطيعون عنه غنى . وذهبت غالبيتهم في اتجاهاتها نحو المدارس الرواقية أو الأبيقورية . أما الطبقات الدنيا من الناس فقد ظل أفرادها على تقديسهم لصغار الآلهة وللسحرة .

وبينا الأمر كذلك ، اذا بالديانات ذات الاسرار ، النازعة الى التصوف والحسيات ، والتي كانت قد أتت من الشرق وضربت بجذورها في أرجاء الامبراطورية ، اذا بها تنتشر شيئا فشيئا وتجد الأعداد المتكاثرة من الاتباع . وقد وضع الامبراطور أغسطس مخططا لاصلاح الدولة ضمنه قسما يهدف الى الاحياء الكامل الشامل للديانة الرومانية . ولكنه في عمله هذا انما كان يتيه في دروب غريبة من الخيال ، اذ ظن أنه يستطيع اجبار الناس على تقييد عاطفتهم الدينية ـ ان كانوا من ذوي العاطفة الدينية ـ في نفس الحدود التي رسمت لها في الماضي البعيد ، أو أنه يستطيع اعادة الايمان الى صدور الذين فقدوه . ومهما يكن من أمر تفكيره هذا ، فهو لم ينجح في استعادة الصورة الكاملة لما كان عليه الحال الا فيما يختص بالشعائر وبالمعابد ؛ ولذلك كانت النتيجة الكبرى لعمله هي دعم معنى القومية المتمثل في الشعائر الرسمية ، أصبحت الوطنية ، كما أصبح الاخلاص للحكم ، يفترضان التعبد لاسم أغسطس وللآلهة روما .

كانت هذه الديانة قاصرة على بعض الاحتفالات ، وخالية تماما من كل فقه لاهوتي ومن كل عقيدة حقيقية ؛ كذلك لم تكن لتزعم بعث شيء من الحياة في عاطفة دينية أيا ما كانت . بيد أن العاطفة الدينية عادت لتحتل في الضمير الاغريقي ـ الروماني مكانا يزداد اتساعا بمرور الايام؛

وكان ذلك تحت تأثير نفحات أتت من الشرق ومهد لها الافتقار الى العلوم الوضعية ، وألوان من المحن مر بها القوم من عهد « تيبريوس » الى عهد « نرفا » وزعزعت من نفوسهم ولم تستطع الرواقية أمامها الا حماية فئة طليعية محدودة العدد . ونمت هذه العاطفة وأصبحت لها متطلبات أخذت في الازدياد . وطغى التحمس المتجه الى حياة دينية عميقة ـ حتى بين الطبقات المستنيرة ـ على تيارات الشك ، وتراجعت الرواقية في سرعة سريعة أمام الافلاطونية ، التي فاقتها في المرونة وفي القابلية للتشبع بالعاطفة الدينية .

واذا كان من المبالغ فيه القول بأن مارك أوريل كان آخر الرواقيين، فمن الثابت لدينا أن السنين الأخيرة من حكمه هي الحد الذي بدأ بعده التدهور التام الذي أصاب الرواقية ، تلك الفلسفة التي وصل بها الامبراطور النجيب الى منتهى اشراقها . وكان العالم الوثني بعد ذلك ناضجا تمام النضوج للتقوى . وقد ساعد على نمو تياراتها في سرعة سريعة ما رأيناه ، مع ظهور أباطرة عائلة سيفير ، من تولي أمراء أفريقيا والشام للحكم ، ثم من سيطرة نساء أشربن بالروح الصوفية الشرقية . ومر القرن الثالث بسائر مظاهر هذه التقوى : من أكثرها بدائية ـ تلك المرتبطة ارتباطا وثيقا بالايمان بالسحر ـ الى أرقاها في مدارك الانسان ، صاغتها التأملات الفلسفية التي أصبحت تنشد الاله . وكان دين الدولة، في الصورة التي عرفت بها العصور القديمة كلها ، مقصور على عبادة الامبراطور وذلك بعد توحيد جميع القوميات تحت سيطرة روما ؛ وانصبت سائر العواطف الدينية الحية ، بالتالي ، على فكرة خلاص الانسان .

وهكذا أصبح لكل العقائد والعبادات أتباع يطوعونها لصبوتهم العارمة الى مستقبل كله سعادة خالدة في عالم آخر خفي ؛ وراح كل فرد بتقواه الخاصة يستنبط لنفسه ، من هذه المادة الدينية الضخمة ،أشكالا من الدين توافق طبعه ، ويلجأ في سبيل انشاء عقيدته وحياته الدينية العملية الى التأليف بين نزعات للايمان وصور للطقوس تختلف منابعها .

ولقد ظهرت المسيحية ، منذ القرن الاول ، في ثوب الديانة الشرقية

الجامعة بين الروحانيات وبين الشعائر العملية . اذ كانت تعتمد من ناحية على الالهام الالهي وعلى الوعد بـ « الخلاص » والخلـود عن طريـق شفيع أعظم ، وتسعى من ناحية أخرى الى انشاء « حياة » جديدة عـلى الارض ، حياة كلها حب وفضيلة • فكان من المرجح اذن أن تجد قبولا لدى هؤلاء القوم الذين يتطلعون الى نفس الآمال التي جاءت بها • غير أن ما رآه الناس من تمسك المسيحية بعقيدة لا تميل الى مزجها بمـا يحيط بها من عقائد كان من شأنه في البدء أن يعرقل من انتشارها قبل أن يؤدي في النهاية الى ضمان ومساعدة هذا الانتشار • فقد أبدت المسيحية احجاما ظاهريا عن كل ما من شأنه التأليف بينها وبين الأديان الأخرى • الا أنها كانت لا تزال غاية في البساطة فيما يتعلق بالعقيدة وبالشعائر ؛ أي : كانت لا تزال غاية في المرونة الفتيـة ، بحيث تستطيـع استقبال النزعات الدينية والشعائر المنتشرة انتشارا واسعا التي تلاقيها في العالم اليوناني ــ الروماني فتدمجها في عقيدتها وشعائرها ، ويكاد ذلك يكون دون أدرك منها • وإننا لنمعن في هذا السبيل ، فنقول : ان المسيحيـة لم تكن تستطيع مدافعة أمام هذه النزعات والشعائر السائـدة • واذا كانت قـد انتصرت في القرن الثالث على سائـر ألـوان « التأليف » الديني الوثني ، فذلك لانها كانت قد تطورت هي الاخرى الى تأليف ديني تجتمع فيه سائر العقائد الخصبة والشعائر الجوهرية النابعة مـن العاطفة الدينية الوثنية قامت هي بترتيبها وتركيبهـا وأضفت عليهـا الانسجام الذي تفتقر اليه بحيث استطاعت أن تقف ، بمفردها ، أمـام أشتات المعتقدات والشعائر التي يؤمن بها أعداؤها دون أن تظهر ضعفا أو نقصا عنها في أي من المجالات الهامة •

وتمت ظاهرة التشرب هذه ــ وهي من الظواهر الأساسية فـي تاريخ المسيحية ــ في بطء بطيء ، معتمدة على الاتصال الدائب بتطـور الايمان بين جميع طبقات المجتمع الوثني ، ذلك المجتمع الذي اختلفت فيه صور الايمان باختلاف بيئاته وباختلاف العهود التي مر بها ، كما بينـا فيما سبق من حديثنا • وانها لظاهرة تفسر لنا كيف جاء العصر الـذي استطاعت فيه المسيحية أن تكسب عطفا نشطا بين رحاب العالم اليوناني ــ

الروماني • ولسوف يأخذ الايمان المسيحي بعضا من روح كل طبقة من طبقات المجتمع ، ولسوف يدين لها كمجموعة بالتدرج الهرمي الـذي نجده حتى اليوم في الواقع بين صفوف أعضاء الكنيسة ، ذلك اللـون من التدرج الذي لوحظ منذ بدأ الدين المسيحي ينتظم ، تدرجا يبدأ من « ايمان العجائز » البسيط الساذج، وينتهي الى ايمان المفكرين الفلسفي، في عملية تصاعدية بطيئة ، بل تكاد تكون غير ملحوظة •

كان دعاة المسيحية الاول أناسا من صغار القوم ، فاتجهوا بادىء الامر الى أمثالهم من طبقا تالمجتمع الدنيا • والواقع أن عقيدتهم ـ وهي الداعية الى الصبر والمساواة والتآخي ـ لم تكن لتحظى بأكبر قسط من القبول المطلق الا لدى هذه الطبقات • ولكن علينـا أن لا نغالـي في الادعاء : فقد بشر بولس وأتباعه بالمسيحية في أوساط المريدين لليهودية، ولم يكونوا جميعا من الطبقات الدنيا ، بل عد في صفوفهم نساء مـن علية القوم ، ولا نشك أنه قد انضم اليهم أيضا رجال من ذوي النفـوذ والثراء ، والكثير من الدلائل يشير الى أن بعضهـم آمـن واعتنـق المسيحية • غير أنه من الثابت لدينا أن النبلاء من الناس أو ذوي الشأن بينهم لم يشكلوا قط سوى أقلية قليلة في اطار الكنيسة ، وذلك حتـى عهد الأباطرةمن أسرة انطونينوس• أما العبيد والعمال، فكانوا«الرصيد» الاكبر لها • ولما كان كل مسيحي جديد في هذا العصر يعتبر وحـدة جديدة في قائمة المبشرين بها ، لذلك ظلت المسيحية على رواجها بـين صغار الناس خاصة • ولكنها بدأت أيضا ـ عن طريق العبيد والاماء ـ تنتشر بين المعتقات من النساء وربات البيوت ، بل وجدت في بعض الاحيان اهتماما من طوائف الرجال المثقفين في بحثهم عـن الحقيقـة الالهية • وبفضل النساء تسربت المسيحية الى الطبقات الممتازة مـن المجتمع ؛ وبفضل المفكرين الذين اهتموا بها وجدت خلال القرن الثاني ثغرة للاتصال بالفلسفة ، وكانت لهذا اللقاء نتائج بالغة المدى : كان رجال من أمثال « تاتيان » أو « جوستان » أو « ترتوليان » يفدون الـى المسيحية لأن تحولهم اليها صار نهاية حتمية لأزمات دخلية؛ كانوا يحملون بين جوانحهم رغبات وتساؤلات لم تكفهم عنها الفلسفة ، بينما كـانت

المسيحية تشبع الرغبات وتجيب على التساؤلات • اما وقد اصبحوا مسيحيين ، فلم يكونوا ليستطيعوا التجرد مما تلقوه من تربية ، ومما درجوا عليه من عادات فكرية ومن أساليب منطقية ، ثم من تراث ثقافي وفلسفي تجمع لديهم ، مهما زعموا من التنكر لكل ماضي حياة فكرهم • وسواء أدركوا الامر تمام الادراك أو شعروا به شعورا غامضا فحسب ، فانهم ولا شك رأوا وجوه نقص في الدين الذي تبنوه ، وجوه نقص ، لا في مبادئه ــ فقد اعتبروها عميقة عمق اللانهائية ــ ولكن في صور التعبير عن هذه المبادىء ، لذلك نزعوا ــ عندما أرادوا بدورهم الحديث عن هذا الدين ــ الى اظهاره في اطار فلسفة الهامية ، ولم يستطيعوا في نزعتهم تحكما • ولذلك ايضا راحوا يحشون تبريراته بكل ما اوتوا من الاساليب المدرسية ويدفعون في المعائدة بكل التأملات والتفسيرات التي اوحى بها اليهم ، فيما مضى،تفكيرهم الميتافيزيقي في وقفته امام المسيحية•

ومهما يكن من تفتح آفاقها ومن مرونتها التي اكتسبتها بفضل التفكير البوليني واليوحاني ، فالمسيحية النابعة من الجيل الذي تلا الحواريين لم تقدر مثل هذه التأثيرات ، ولم تدبر الوسيلة لتحليلها وللتحكم فيها ، بسبب ما كانت عليه من تردد وقلق في مجال العقائد • فاجتمعت عليها هذه التأثيرات بادىء ذي بدء في عنف وفي غموض لا حد لهما ، ولم تشعر جماهير المؤمنين ــ وهي البطيئة دائما في ادراك حقيقة الامور ــ لم تشعر الا بعد حين انها كانت تدفع بالايمان في اتجاهين مختلفين كل الاختلاف •

ــ ج ــ

أما الاتجاه الاول فينزع الى الثقافة اليونانية ليستعير منها كل المفاهيم التي من شأنها زيادة للمسيحية الاولى عمقا وجمالا •

ولم يكن أصحاب هذا الاتجاه ، في تطويعهم لتلك المفاهيم ،حذرين كل الحذر ؛ ولم يتفق عملهم دائما مع النصوص أو المنطق وواقع الاحداث ؛ الا أن نيتهم ، على الاقل ، كانت مطمئنة : اذ لم يطلبوا سوى اخضاع أهم أحكام التفكير اليوناني الى مقتضيات فروضهم • واذا كان الامر قد انتهى الى تطوير وتغيير المفاهيم والفروض على حد سواء حتى

أصبحت شيئا آخر غير ما كانت عليه ، فالعزاء يكمن في أن التطور حدث ببطء شديد ، ولم يستثر لدى الناس دهشة أو تافقا ، بل طبقا للرغبات الواضحة أو اللاشعورية لدى جماهير المؤمنين •

ولو جاء النبأ الى الاثني عشر بأن عيسى قد تمثل فيه الله لما فهموه بادىء ذي بدء ، ثم لتصايحوا بالفضيحة والرذيلة المقوتة • ولكن المرجح أنهم لم يعارضوا قول بولس بأن عيسى كان « انسانا سماويا » وأنه تمثلت فيه « روح الله » • فكان ذلك بداية للاضافات التي تطلع اليها ايمان المؤمنين بالحاح ، والتي انتهت في تدرجها ــ بعد التقريب بين الله والمسيح ــ الى التوحيد التام بينهما • ولم تسر هذه النزعة ــ التي خرجت منها الارثوذكسية ــ في خط مستمر واضح ، بل كثيرا ما ترددت وكثيرا ما ضلت طريقها بين النظريات التي لم يقبلها الايمان الجماعي ، وكثيرا ما قامت أمامها الصعوبات الجمة في بحثها عن الفكرة الملائمة أو التعبير المناسب ؛ ولكنها ــ وهذا هو جوهر المسألة ــ لم تحاول قط ، بسبق اصرار وادراك ، أن تؤلف بين الافكار الوثنية ، أيا كانت ، وبين فروض المسيحية ؛ أو ، اذا شئنا التعبير بصورة أخرى : فهي في اختيارها وتنظيمها للاضافات التي استعارتها من الثقافة اليونانية انما اختارت ونظمت طبقا لمقتضيات الفروض المسيحية ، ولم نر منها خروجا عن تلك الحدود ، حتى بين رحاب المدرسة البديعة التي قامت بالاسكندرية وكان أوريجين علمها الاعظم ، تلك المدرسة التي أتمت العمل الكبير : الا وهو تطوير المسيحية الى فلسفة ملهمة وكاملة •

أما الاتجاه الآخر الذي عرفته المسيحية منذ القرن الثاني أو قبله ، فهو ينبع من مبدأ مختلف : انه أيضا يريد أن يتسامى بالافكار البسيطة الاولى وأن يوسع من أبعادها ؛ ولم يستطع الى ذلك سبيلا الا بتركيب هذه الافكار مع معتقدات او نظريات مستعارة من البيئة المحيطة • ولكنه منذ البدء لم يتبع أي حدود في اختياراته ، فراح يجمع بين موضوعات متعددة ومتباينة أشد التباين : من الوثنية اوليمبية ، والاورفية ، والديانات المختلفة ، الى المذاهب الفلسفية ؛ وكان كل شيء غذاء دسما له ؛ ثم انه ، من ناحية أخرى ، لم يكن يهتم بالتوفيق بين ما يستعيره

وبين معطيات التاريخ أو ـ على الاقل ـ معطيات الايمان المعروفة • فهو اتجاه يريد أن يكون صاحب الهام خاص يبرر به أبشع التركيبات التي يقدمها ، تلك التركيبات التي بدت في صورة مذاهب تأليفية كاملة ، لا نلمح فيها المسيحية الا كعنصر قد تغير تغيرا هائلا ، من بين عناصر فلسفة كونية معقدة وميتافيزيقا عسيرة الادراك ، وليس بينه وبين هذه الفلسفة أو تلك الميتافيزيقا صلة تذكر • ومن الطبيعي أن هذه الألوان المختلفة من « الغنوصية » التي ازدهرت في القرن الثاني ، لم يطمئن اليها السذج البسطاء ، ولم يكن مقدرا لها البقاء رغم تحول الكثير منها في النهاية الى طقوس سحرية من تلك التي تغري العامة أكثر مما تغريهم تركيبات ميتافيزيقا الصوفية والرمزية • ومع ذلك فقد كانت مطابقة لمنطق التطور المسيحي ؛ ونعني بذلك أنها تعرض علينا وجها من وجوه ذلك التطور ، يتجاوب مع ما عرفناه من روح العصر الذي نشأت فيه ويساعد على أيضاح جوانبه لنا •

وان ظهور ألوان « الغنوصية » هذه لأمر بالغ الاهمية ، مثله في ذلك مثل ظهور البدع المختلفة التي يصارعها الايمان قبل أن يصل الى مستقر له ، والتي يمكن اعتبارها في غالب الاحيان ، آراء سيئة الحظ وان كانت لا تقل في الاغراب و « البدعة » عن الآراء التي فرضت أو فرضت نفسها• وكان من نتيجة الجدل العنيف الذي ثار حول كل هذه المسائل : أن ثبتت شيئا فشيئا سائر أركان العقيدة المسيحية ، وأتاح للمؤمنين سبيلا الى التأمل في نزعاتهم الفكرية أو العاطفية الخاصة وتحديد اتجاهاتها ؛ كذلك فقد عرف بالمشاكل ، وأبرز الخلافات التي وكل الى علماء اللاهوت بحلها ؛ وكان له فضل آخر يفوق كل هذا في الاهمية ، الا وهو تأكيد رغبة الناس الملحة التي تدعمها الضرورة لايجاد « تنظيم للايمان » ، أي: « قانون » ، ثم « سلطة » تمثل القانون وتحميه • وعلى هذا ، يمكن اعتبار الجدل المذكور ، أنشط العوامل في تنظيم الكنيسة والسلطات الكنسية التي أنشئت خلال القرن الثاني • وهناك عامل آخر يجب البحث عنه في تأثير البيئة اليونانية الرومانية على المسيحية الاولى ؛ وهو تأثير نزع الى ادخال الطقوس الوثنية ، بعضها أو جميعها ، في عبادة كلها « روح وحق » بعد أن هجر أصحابها المعابد اليهودية • ونمت

الشعائر في المسيحية بالتوازي مع العقيدة وبنفس الاساليب ؛ فبدأت بتلك العادات الاولى المبسطة الوافدة من اليهودية : التعميد ، كسرة الخبز ، وضع الأيدي على الرأس ، الصلاة ، الصيام ؛ وحملت هذه العادات معاني لم تنفك تزداد عمقا و « سرية » ، ونميت وأضيفت اليها حركات شائعة لدى الوثنيين ، ثم قرنت بالمفاهيم المتسعة الابعاد التي كانت تدخل مثلا في طقوس « الأسرار » اليونانية والشرقية ، ونفخ فيها ـ اذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير ـ بتلك القوة الرهيبة التي كانت للسحر قديما . وبدأ هذا التفاعل منذ أنتقال أيمان الحواريين من فلسطين الى العالم اليوناني ، وقد لاقيناه وهو في طور متقدم لدى بولس وأتباعه؛ ثم واصل تأثيره طوال تلك الفترة التي كان الدين الجديد يكافح فيها ضد منافسيه من الأديان .

ولعله من العسير أحيانا أن نرجع في كل تأكيد لونا من ألوان الطقوس المسيحية الى الاصل الوثني الذي نبع منه . الا أنه لا مجال للشك في أن الروح الوثنية ، فيما يختص بمظاهر العبادة العملية ، قد فرضت على المسيحية شيئا فشيئا ، حتى أصبحنا نجدها كاملة في احتفالاتها . وزاد التقارب بشكل ملحوظ منذ القرن الرابع ، عندما دعت الضرورة الى القضاء على بعض التقاليد القديمة الصلبة . وكانت سلطة رجال الكنيسة ، من ناحية أخرى ، تعمل على دعم ذلك الحق الذي اكتسبته منذ فترة طويلة والذي انتهت الى التفرد به رغم بعض التردد ، الا وهو : التصرف في القوة السحرية للطقوس التي سميت بـ « الأسرار القدسية » .

ـ د ـ

اذا تأملنا الكنيسة المسيحية في مقتبل القرن الرابع ، فأنه يتعذر علينا أن نجد صورة من صور مجتمع الحواريين ، أو ـ اذا أردنا الحق فأنه يستحيل علينا ذلك فبدلا من جماعة محدودة من اليهود لا يفرق بينهم وبين باقي أمتهم سوى أمل خاص وترحيب بالمتتلمذين عليهم من الوثنيين يفوق ترحيب اليهود عامة ، بدلا من ذلك : نجد مجتمعا دينيا واسع النطاق يدخل فيه ـ دون تمييز لجنس أو لطبقة معينة ـ كل من

يرى في نفسه القدرة الكافية ، مجتمعا يدرك تماما أنه يشكل وحدة متكاملة ، وأنه هو الامة المختارة ، أي : كنيسة المسيح • وتنكرت الكنيسة الجديدة لشعب اسرائيل وشاع فيها القول بأن هذا الشعب قد خرج عن سبل الله وتاه بعيدا عن الحق ، حقيرا محقرا • كما وجدت الوسيلة الناجعة للتخلص من الشعائر العملية التي تفرضها الشريعة اليهودية مع الاحتفاظ بـ « العهد القديم » كتابا مقدسا [1] • وعلى أساس من المبادىء الجوهرية لايمان بني اسرائيل ، أنشأت هذه الكنيسة مجموعة عقائدية جديدة بالغة التعقيد ، اعتمدت في صلبها على شخصية المسيح التي نمت من حولها النظريات حتى تم توحيدها بالله ، واستقت عناصرها من التأملات الخاصة المتغالية في تفسير معطيات الايمان الاولى ، ثم من المذاهب الفلسفية والدينية التي وجدتها في البيئة اليونانية الرومانية • وقد خرجت هذه المجموعة العقائدية على الناس في صورة ما سمي بـ « شروط الايمان » التي أقامها المختصون من ذوي السلطة بناء على الآراء الغالبة ، وأريد لها أن تكون ـ مثلها في ذلك مثل الفلسفة الملهمة الكاملة ـ تفسيرا « ثابتا » للعالم وللحياة ولمصير الانسان ، أخذ علماء اللاهوت يعملون في حماس على توسيع أبعادها ومفاهيمها وعلى ترتيبها في انسجام وتكامل •

ومن ناحية أخرى ، ظهرت لنا الكنيسة على أنها هيئة منظمة • فلقد انتظمت شيئا فشيئا في كنائس خاصة على غرار المعابد اليهودية أو الجماعات الوثنية ، الذين اعتاد قادتهم على التشاور في كل الامور الخاصة بالايمان والآداب العامة والنظام وعلى أن يعبروا عن رأي الاغلبية في قرارات جماعية • ويشرف هذا الاكليروس على طقوس أخذت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن اليهودية أو عن « الاسرار » الوثنية ، ولكنها

---

(١) يبدو أنه كان من صالح المسيحية التخلص أيضا من الشريعة اليهودية ، وقد سعى بعض ذوي النفوذ من المسيحيين ـ مثل مارسيون ـ الى ذلك . ولكنهم لم يوفقوا في مسعاهم ، لان المسيحية الاولى اعتمدت دائما في تبريراتها على نصوص التوراة التي اعتبرت نصوصا منزلة على الانبياء ، فقوى ذلك من قدسية الكتاب لدى اليهود ـ المسيحيين وثبت من صفته الالهية •

ألبست ثياب المسيحية ، وحملت ـ أوحمل الاهم منها على الاقل ـ بتلك القوة السحرية الخفية التي كان يراها رجال هذا العصر في العبـادات السرية ، سواء منها اليونانية أو الشرقية . وبعبارة أخرى : أصبحت المسيحية دينا حقيقيا ، بل أكمل الأديان اذ ذاك لانها تبنت من كل دين خير ما وجدته لديه . وكانت أيضا أكثر الأديان ترحيبا بالوافـدين اليهـا ، وأكثرها ايحاء بالصبر والسلوى ؛ ثم أيضا : أكثرها قربا من الخصائص الفطرية للانسان ، بحيث يجد البسطاء من القوم أنفسهم مندفعين الى الايمان بها وان لم يدركوا مفاهيمها والى اطاعة ذوي السلطة في تنظيمهـا وان لم يحاجوهم في الرأي ، وذلك حتى يضمنوا الخلاص والخلود ؛ كما يجد الفيلسوف في عقائدها مادة لا تنتهي للتأمل والتفكير .

ومع كل ما امتاز به هذا الدين من تيارات تأليفية عميقة ، فأننـا نرى لديه تعصبا قويا عنيفا ، تعصبا لا يقهر : فهو لا يقبل مشاركة أتباعه في دين آخر بأية صورة من الصور ، وهو لا يقبل أية منافسة . وأدت هذه النزعة الجوهرية في طبيعته الى اقامة عقبات بالغة الخطورة أمامه ، ونخص منها بالذكر عداوة الحكام والمجتمع المدني كله ؛ ولكنها انتهت أخيرا الى تثبيت أقدامه وضمان انتصاره .

وقبل أن نحاول تفهم الصراع بين المسيحية وبين الحكام والمجتمع ، ذلك الصراع الحاسم في طبيعته ونموه وأبعاده ونتائجه ، يجب علينا أن نحلل عن كثب وأن ندرس في مجال الواقع ظاهرتين أساسيتين عرضناهما فيما سبق عرضا مبدئيا ، وهما : أن دين المسيح ـ ونعني به الدين الذي يتخذ المسيح إلها خاصا به ـ هذا الدين ، عندما انتظم في الدنيا ، نبعت منه « الكنيسة المسيحية » . ثم أنه ، الى جانب هذا ، قد تطور فأصبح **« مجموعة عقائدية » و « مذهبا للعقيدة » ، بعد أن كان في بدايتـه « أسلـوب حيـاة »** .

الفصل الثامن

تأسيس وتنظيم الكنيسة

أ ـ المسيح لم يؤسس الكنيسة ولم يردها ويبدو أن الحواريين من أهل الجليل لم يفكروا في هذا أيضا ـ صمت النصوص الانجيلية ـ أسطورة سبق بطرس ـ الحواريون مهدوا للكنيسة دون ادراك منهم للامر ـ جماهير المؤمنين وكنيسة الله ـ فكرة بولس عن الكنيسة قبل تنظيمها ـ كيف تحتم هذا التنظيم ـ مفهوم الكنيسة في بداية القرن الثاني •

ب ـ أصل الكنائس الخاصة ـ المثل التي احتذتها في تنظيمها ـ الجماعات الوثنية والمعابد اليهودية ـ ضرورة انشاء الوظائف ـ الاسراع بالتطور ـ التأثيرات المختلفة التي يسرت انشاء الاكليروس وقيام نظام الاساقفة •

ج ـ نظام الأساقفة الملكي ـ أصوله ـ زوال نظام الأساقفة الجماعي : أسبابه ـ مقاومة البدع واحترام السنن المأخوذة عن الحواريين ـ الاسقف كرئيس للكنيسة ـ نظرية ايجناس ـ الأسباب الخارجية التي مهدت لتحقيق هذه النظرية عامة ـ « قوائم » الأساقفة •

د ـ انتخاب الاسقف ـ شروط الأنتخاب ـ سلطات الاسقف ـ حدود هذه السلطات ـ المقاومة داخل الاكليروس ـ انشاء « هيئة الكنيسة » ـ التدرج فيها ـ التمييز في الامة المسيحية بين رجل الدين وبين الرجل العادي •

هـ ـ المفهوم الكاثوليكي للكنيسة ـ العناصر الأساسية لهذا المفهوم ـ دور كنائس الحواريين ـ المركز الفريد لكنيسة روما ـ الكنيسة في بداية القرن الثالث •

ان المسيح لم ينشىء الكنيسة ولم يردها .

ولعل هذه القضية أكثر الامور المحققة ثبوتا لدى أي باحث يدرس النصوص الانجيلية في غير ما تحيز ، بل اننا نؤكد ايضا ان الفرض العكسي لا يمكن ان يوجد له سند تاريخي مقبول ولم يستطع رجال اللاهوت ، بكل ما اوتوا من براعة ، حيال ذلك شيئا . ومهما بلغ من فقر معلوماتنا عن تعاليم المسيح ، فانها لتبدو لنا ، في مجملها ، كرد فعل ضد التعصب الضيق الافق للشريعة الموسوية لدى اليهود ، وضد شعائرهم التي تزيد في صرامتها عن الحد المعقول ، وان كانت الشعائر والشريعة ــ بعد ذلك ــ من الزم اللوازم الاساسية لكل حياة تريد أن تشكل ، حقيقة ، كنيسة . ثم انها لتبدو لنا حافزا قويا من حوافز « الاجتهاد الفردي » . فالانسان يجب أن يرتفع روحيا نحو « أباه » الذي في السماوات ، بالاطمئنان والحب ، ثم بـ « التوبة » أيضا ، أي : الرجوع النهائي عن خطاياه ، بتطهير ضميره والتسامي بارادته . وذلك بالذات هو المبدأ المضاد لفكرة الكنيسة . ولقد ذكرنا فيما سبق ، بالاضافة الى ما نقول به هنا ، ان عيسى كان يترقب حلول مملكة الله الوشيك . ومن شأن هذا الامل أن ينفي من منطقه كل فكرة تتعلق بالتنظيم الدنيوي لاتباعه . ثم أن عيسى كان يهوديا ، خاضعا تمام الخضوع لشريعة بني اسرائيل الدينية ــ وان عارضها ظاهريا في سبيل توسيع مداركها فعليا حسب ما ظن أنه روحها الحقة . لهذا كله ، لا بد لنا من الايقان بأنه لم يكن ليعمل فكره لحظة واحدة في رسم خطوط ما نسميه بـ « الكنيسة » .

واذا ما قلنا بأن المسيح صرح للحواريين الاثني عشر بسلطة ما ــ وهذا محل جدل حتى اليوم ــ فمما لا شك فيه أن الامر لم يتعد منحهم بعض ما أوتي هو من سلطان في التبشير بالتوبة وبحلول مملكة الله ،ولم يصنع منهم « قساوسة » حيث لم يكن في حاجة الى ذلك . وعلى أي حال فأننا عندما ندرس ما قام به هؤلاء الحواريون من أعمال ، لا نجد

أنهم فكروا في انشاء الكنيسة ، اذ ظلوا على اخلاصهم للدين اليهودي وداوموا بكل دقة على شعائره مؤمنين أيضا بأن المستقبل لمملكة الله وليس لكنيسة ما .

والنصوص الانجيلية لم تنسب قط الى المسيح تعبيرا مثل : « كنيستي » ، أو : « كنيسة الأب » ، الا في مناسبة واحدة نقرأ فيها : « انك أنت – لبطرس – (بطرس – صخرة) ، وعلى هذه الصخرة سوف أبني كنيستي » (انجيل متى ، ١٦/١٨ – ١٩) . ولكن هذا الحديث المشهور ، والذي استغل أقصى الاستغلال ، لا يمكن بحال من الاحوال الاعتماد على صحته ، الا أن أعلنا أن المسيح ، في ساعة من ساعات الغفلة والتيه ، قد تنكر لتعاليمه ، ولعمله ، ولرسالته ، بل ولذاته أيضا [1] . وان النصوص والأحداث ، في تسلسلها ، لتدل دلالة قاطعة لا تقبل الجدل على أن أسبقية بطرس الحواري – التي يقال في انجيل متى أن عيسى قد صرح بها – لم يكن لها أي حظ من الواقع ولم توجد قط ، وعلى أن الاتباع الذين تجمعوا حوله وحول حنا ويعقوب لم يقدروه ولم ينصتوا اليه الا باعتباره رجلا شرف بثقة الاستاذ وبمودته .

بيد أن الحواريين قد وضعوا – دون ادراك منهم – الاحجار الاولى لبناء الكنيسة . وعندما نرى « السنن المأخوذة عن الحواريين » تستخدم فيما بعد على أنها القمة العليا المنزهة عن الخطأ في كل ما تقدمه الكنيسة ، فليس ذلك اختراعا كله ولا تأليفا ، وان كان نتيجة لنوع من المبالغة في التقدير . وهذا أمر جدير بالتفسير .

يمكن القول بأن « فكرة الكنيسة » نشأت عن انتقال الامل المسيحي من فلسطين الى ربوع العالم اليوناني ، وأيضا – اذا شئنا – عن تطور هذا الامل الى العالمية . مهما يكن من احتقار الناس للحياة الدنيا ، فلا بد لهم من أن يشعروا بنوع من الوحدة فيما بينهم ومن التضامن الذي

---

(١) – راجع الفصول الثلاثة الاولى من كتاب المؤلف المطبوع بباريس عام ١٩٠٩ : « أسبقية بطرس ورحلته الى روما » .

قد تتفاوت قوة الرباط الناتج عنه ، عندما يتعلقون بأمل واحد للمستقبل ويسعون في سبيله الى التخلص من مظاهر حياتهم الدينية السابقة • غير أن اليهود « الذين أظلمت قلوبهم » لم يلبثوا ان طردوا أتباع المسيحية من معابد المهجر ، سواء منهم من كان يهودي الاصل أو مريدا لليهودية • كذلك ترك الوثنيون الذين آمنوا معابدهم • والتف الجميع حول عبادة واحدة تمجد « السيد عيسى » • وكانت بطبيعة الحال عبادة بدائية ، الا انها انطوت منذ ذلك الحين على فكرة الاجتماع الاخـوي (فالاتباع يطلقون على انفسهم فيما بينهم كلمة « الاخوة ») ، والصلاة الجماعية ، وطقوس المعرفة ، وشعائر التقرب ـ سواء منها شعائر التقرب الخاصة بالاتحاد بين السالكين (وفي هذا المجال نرى الاتباع يسمي بعضهـم بعضا بـ « القديسين » ، وهو تعبير ذا مغـزى) ، أو شعائـر التقرب الخاصة بالاتحاد مع السيد وعلى مائدته وكان هؤلاء القوم الذيـن « يبتهلون باسم سيدنا عيسى المسيح » ويستطيعـون أن يتسموا بـ « قديسي هذا المسيح » بل ويعتبرون أنفسهم « اخوة فيه » مهما تباعدت ديارهم ، كانوا جميعا أعضاء في « كنيسة الله » ؛ أي أنهم مهما تفرقوا اشتاتا في بقاع الارض الشاسعة يظلون لدى الله الصفوة المختارة مـن أمتـــه •

وذلك مفهوم يعبر عنه بولس في وضوح تام • ونعتقد أنه عندما يتحدث عن « كنيسة الله التي في كورنثيا » فانما يعني فقط ـ ان سمح لنا باستخدام هذا التعبير ـ « جزء كنيسة الله العالمية » الذي يقوم بتلك المدينة ، لا جماعة منظمة أو هيئة كنيسية أسست في كورينثيا • ونفسر فكرتنا هذه تفصيلا ، فنقول : ان الفكرة الصوفية للكنيسة « في » الله نشأت من ذاتها « فعلا » وبالضرورة في عقل رجل مثل بولس ، قبل ان تظهر فكرة انشاء تنظيم كنيسي خاص • ففي الوقت الذي يحدثنا فيـه الحواري عن كنيسة الله ، تدل رسائله على ان جماعة كورينثيا تعيش في فوضى داخلية ، ونعني بذلك أنها تركت زمام أمورها الى توجيهـات الملهمين التي لا تسلك خطا تنظيميا محدودا معروفا • وأننا لنعلم عـلم اليقين أن سائر الملهمين يمكن أعتبارهم أعداء الداء لكل اكليروس ؛ ولهذا

السبب لم يكن للجماعة اكليروس بعـد .

ويمكن أن ندرك مفاهيم هذه الحياة التي كانت تعيشها الجماعـات المسيحية خلال عهدها الاول من الحماس والتهيؤات ، يمكن أن ندرك مفاهيمها عندما نتأمل ما يروى لنا ن أن « القديسين كانوا في مساء كـل سبت من أيام الاسبوع يترقبون ، مع فجر النهار التالي ، « عودة » السيد في اليوم الاعظم الموعود ، ذلك الذي تطلعوا اليه بجماع قلوبهم . فلما مضت الاسابيع ، ثم الشهور والسنين دون أن تأتي البشرى بـ «العودة» البهيجة ، ظهرت اضرار الفوضى ومساوئها ، بينما توثقت صلة الاخـوة بين رحاب الجماعة ، وتسامي الامـل في الخـلاص ـ بفضل انفصال « القديسين » عن حياة العالم الدينية العامة ـ الى مستوى الاديـان المستقلة . وعندئذ أصبح من المَحتم التفكير في تنظيم مجتمع الصفـوة المختارة . وبالتالي بدأ الاجراء المقابل لما تم في تفكير بولس ، فتطورت كل طائفة محلية من الاخوة الى كنيسة ، وكنيسة الله هي مجموع تلـك الكنائس الخاصة ، التي تتبادل الرسائل والتضيحة بالثبات ، والتـي تعتمد كل واحدة منها على الأخريات . فهي اذن تنزع « اولا » الـى الخروج عن كونها تعبيرا صوفيا للحقيقة ، لتصبح واقعا ملموسا ؛ ثـم هي « بعد ذلك » تنزع الى البحث لنفسها عن تحقيق مادي ، أي عـن تنظيم وجودها ، من أجل مستقبل بعيد محتوم ، وباعتبارها ـ كمـا ذكرنا آنفا ـ ظاهرة عامة مستقلة .

ونعتقد اننا ، اذا وقفنا على اعتاب القرن الثاني لنتأمل المسيحية ، سوف نجد ان فكرة بولس الخاصة بوحدة المسيحيين جميعا في الله قد ثبتت تمام الثبوت ودعمت بالعقيدة الشائعة بين الناس والتي تقول بأنه ليس هناك في الحقيقة سوى دين صحيح منج واحد يجب البحث عـن أسسه القوية العميقة في « سنن الحواريين » . والفكرة الذائعة عامة هي ان هذه الاسس حفظت في« الكنائس الحوارية »، أي تلك التي يقال انها انشئت بايحاء من احد الحواريين .

ولم تكن « الكنيسة » في الواقع قد بلغت سوى طور « الاخوة » بين المؤمنين المشتتين في مختلف الكنائس الخاصة . الا أنه أتضح أن

المسيحيين لا يميلون الى الفردية في العبادة ، وأنهم ــ سواء في سبيل تدعيم العقيدة أو مقاومة الاعداء يحبون التجمع • وبالتالي فهم لا يفهمون أن تعيش كنيسة ما ــ مهما بلغ من استقلالها وسيطرتها على مقدرات أمورها ــ في عزلة عن بقية الكنائس ؛ كما لا يفهمون أن ينفصل « أخ » عن جماعة الاخوة بالمدينة التي يعيش فيها • بيد أن الاخوة المسيحية الكبرى ، أي كنيسة الله ، لم تكن قد تطورت بعد في تنظيم يبرز كيانها المادي ؛ ولم يكن المراقبون من غير المسيحيين ليروا فيها سوى كنائس خاصة •

ــ ب ــ

ولا تزال نشأة هذه الكنائس الخاصة نفسها غامضة بعض الغموض بالنسبة الى الباحثين • واذا ما أردنا أن ندرسها في شيء من الانصاف ، التي انطوت على كلتاها ، او مشكلة أحقية مريم العذراء في لقب « أم عنهم قواعد الايمان ، لم يكونوا في الواقع على تلك الدرجة من السذاجة التي ظنت بهم • بل أن الامر أخطر من ذلك أ ففي الحياة الدينية لهؤلاء خضعوا ظاهريا لرجال الاكليروس لديهم وأبدوا استعدادهم ليتلقوا

وكانت النماذج التي يمكن ان تحتذى في هذا المجال متوفرة : فقد وجدت منذ زمن بعيد في قسمي الامبراطورية الرومانية ، اللاتيني والروماني ، جماعات أو اتحادات دينية أنشئت من أجل غرض واحد : التعاون في الخير أو الحث على التقوى، وسميت عند اليونان بـ «الاران» أو « التباس » ، وعند الرومان بـ « الكوليجيا » • ونذكر على الاخص من بين ألوان« الكوليجيا » هذه ما أطلق عليه اسم «كوليجيا تنويوروم»، أي : جماعة مؤلفة من صغار الناس • وكان لكل جماعة مديرها المنتخب وصندوقها الذي تموله الاشتراكات ويشرف عليه مندوب خاص •

ومن ناحية أخرى فأننا نعلم ــ وقد سبق لنا شرح ذلك ــ أن يهود المهجر كانوا يتجمعون حيثما التقوا ــ وان لم يزد عددهم على أصابع اليدين حول معبد لهم ؛ وأنهم ، وان اختلفوا أحيانا في التنظيم ، كانوا يأخذون بقواعد وقوانين محددة • لذلك كان المسيحيون ــ سواء منهم الوثني أو اليهودي الاصل ــ على علم بالاساليب المحتملة لاقامة

حكومات تدير جماعاتهم •

ومن المرجح أن كلا التأثيرين ، تأثير الجماعات الوثنية وتأثير النظم اليهودية ، وقعا عليهم في آن واحد ، مع ترجيح اتجاه على الآخر حسب ظروف الزمان والمكان • وقد فرضت الضرورات أنواع الوظائف ، وسمي الموظفون بأسماء أخذت عن اللغة الشائعة مثل :

« بريسبيتيروس » ، أي : شيخ •

و « ايبسكوبوس » ، أي : مشرف •

و « دياكونوس » ، أي : خادم •

وقد تطورت معاني هذه الكلمات فيما بعد الى : قس ، واسقف ، وشماس •

وتغلبت الجماعات ، في كثير أو قليل من البراعة والتوفيق ، على المشاكل الخاصة بتعليم الاتباع الجدد ، والمحافظة على النظام والآداب العامة ، وتدعيم سنن الايمان الصحيحة ، وتأمين شعائر العبادة ، وضمان قوت المعوزين •

ويكفينا ان نطالع « أعمال الرسل » ، و « رسائل » بولس ، ثم تلك الرسائل الثلاث المنسوبة الى بولس — وان كانت لاحقة له ببضع سنين — والمسماة بـ « الباستورال » ، يكفينا هذا لندرك مدى الاسراع في التنظيم منذ البدء فيه • ففي نهاية القرن الاول نلمح — في بعض الكنائس على الاقل — « أسقفا » واحدا ، و « مشرفا » عاما على الجماعة كلها (وهو الشخص الذي سوف يسيطر بعد ذلك على جميع الوظائف) ، ثم الى جانبهما مجموعة من « الشيوخ » تخصصوا في الوظائف الروحية ، ومن « الخدم » الذين أوكلت اليهم الوظائف المادية •

وكان من دعائم هذه التنظيمات الثابتة القوية ، ومن أسباب تحديدها : ما نلحظه بادىء ذي بدء من شك وريبة يزدادان بمرور الزمن — ونرجح أنه كانت لهذا الشك ولهذه الريبة مبرراتهما القوية — في أمر « الملهمين المتجولين » الذين راحوا يجوبون البلاد متخذين القاب « الحواريين » او « الانبياء » او « المبعوثين » • ويبدو انه كان لهم اثر لا يستهان به على الجماعات في اول سني حياتها • وكان من الدعائم

والأسباب أيضا : تدهور نفوذ « الملهمين المحليين » ؛ اذ سئم النـاس من كل ما هو خارق للعادة ومن المعاني التي لا يجدون فيها انسجاما واتساقا. فايمان العامة يتطلع بطبيعته الى الثبات ؛ والثبات لديه مرادف للحقيقة . و « المواهب » التي افاضتها « الروح القدس » حسب ما شاءت عـلى جماهير قد يقل عددها او يكثر من « الاخوة » لم تكن لتضيع بذلـك على القوم بل كان مصيرها المحتوم أن تنصب في روح « الاسقف » فتدعم من سلطته . ثم نجد أن الرغبة في تنظيم الشعائر والطقوس ، ذلك العمل الذي تفرضه البيئة المحيطة والذي يحتم وجود « متخصصين » ، كان لها اثرها في تحديد وتدعيم هذه الوظائف ؛ الى جانب ما وجدته من سند أخير في الفكرة التي سريعا ما تأصلت لـدى المسيحيين من أن الرعاة مسئولون أمام « السيد » عن الرعية التي أسلمهم زمامها ، ومـن ان المسئولية تستلزم السلطة .

واتسعت هذه التأثيرات جميعا في نزعتها الى منح نفس الاشخاص الوظائف التي كانت متميزة فيما مضى ، من تعليم وتبشير وادارة ، أو ـ على الاقل ـ الى تخويل شخص واحد ، هو « الاسقف الامير » ، الاشراف الأعلى على كل الوظائف . وان نشأة وانتصار « الاسقفيـة الملكية » ليعتبران المرحلة الاولى من المراحل الكبرى لتنظيم الكنيسة ، وكان لهما نتائج لا تحصى على كيانها خلال القرون التالية .

ـ ج ـ

سبق لنا القول بأن كلمـة « اسقف » (ايبيسكوبوس) تعنـي « مشرف » . ونضيف هنا أنها كانت تستخدم أحيانا لدى الجماعـات الوثنية كمرادف لكلمة « ايبيميليتس » ، أي : « مندوب » أو « وكيل » او « مدير » في بعض الأحوال ، مع تضمنها دائما لفكرة « الاشراف » . وفي البدء لم يشتغل الاساقفة ـ وكانوا كثرة داخل كل جماعة ـ بالتعليم ولا بالتبشير الا بوصفهم القدوة الطيبة التي يجب أن تحتذى . كـان شغلهم الشاغل اقامة وتدعيم اتجاهات الكنيسة في ممـارسة الاخـلاق الحسنة ومبادىء الايمان الصحيح ؛ وكان لهم الاشراف الأعلى على مـا يمكن أن نسميه بـ « المسائل الزمنية » للجماعة . والنصوص القديمـة

تقرب بينهم وبين « الدياكونوس » لا « البريسبيتيروس » . وهذا امر صغير في حد ذاته ، الا أن له دلالته فيما يتعلق بنشأة الوظائف الاولى وخصائصها .

ولقد نمت سلطاتهم سريعا بعد ان تلاشى النظام الاسقفي الجماعي . ونحن لا نعلم تمام العلم كيف تم هذا التطور ، ولكننا ندرك بصورة اكثر وضوحا الاسباب التي جعلت منه تطورا محتوما . ففي ذلك العصر الذي لم تكن رمزية الايمان قد اثقلت بعد بالعقائد ، والذي نشطت فيه كل النشاط ـ بفعل البيئة ذات الاتجاهات التأليفية ـ تلك النزعة الخطيرة الى الاضافة والاعلاء التي مرت بها أغلب الاديان ، في ذلك العصر كان من الضروري ان تحاط جماهير المؤمنين بسياج دفاعي يصد عنهم « ذئاب » العالم الخارجي ، وان تنظم حمايتهم أيضا في الداخل ، أي : ضد « أصحاب البدع » . ورأى المسيحيون أن دفاعهم لن يزداد الا قوة وبراعة ان تولى أمره زعيم فرد . والسلطات التي من شأنها تدعيم النظام وضمان التراحم الاجتماعي بدت أكثر فاعلية عند تركيزها بين يدي رجل واحد . ومن ناحية أخرى ، كانت الجماعات الوثنية واليهودية تميل عامة الى اتخاذ « رئيس » يؤمن وحدة العمل فيها ويرمز الى الترابط بين أعضائها . أما عند « الاخوة » المسيحيين فقد انتشرت سريعا تلك العقيدة التي تقول بأن الحواريين سبقوا الى التفكير في كل مشاكل الكنيسة المستقبلة وأوجدوا لها الحلول ، وأنهم هم الذين أنشأوا نظام الاساقفة من أجل ذلك . وصورت كل جماعة نفسها على أنها نوع من « التلخيص » لكنيسة السيد الكبرى ، رأسها الشرعي الاسقف الذي يتخذ في ذلك قدوة من المسيح رأس كنيسة « الله الكبرى » . وأخيرا ، قد أصبح الاسقف ، على أثر نمو الطقوس الدينية ، رئيسا للعبادات الجماعية ، وكان ذلك تطويعا حتميا ـ وان لم يكن طبيعيا في بعض جوانبه ـ لمفهوم « القس الاكبر » عند اليهود .

وهكذا نرى عوامل متعددة ، وذات أصول واتجاهات متباينة ، تعمل على تركيز السلطات الاسقفية بين يدي أسقف واحد . ولكن الاسقف لم يصبح حاكما بأمره في كنيسته عقب تفرده بتلك الوظيفة مباشرة ؛ بل

نراه ، خلال فترة قد تطول أو تختصر حسب ظروف البيئة المحيطة ، رئيسا لـ « البريسبيتريون » ، أي ذلك المجلس الذي يتكون من مجموع « البريسبيتريوس » في كل كنيسة • الا أن تلك كانت مرحلة من المراحل فحسب في تاريخ الكنائس الخاصة ؛ وقد تخطتها بعض كنائس آسيا منذ بداية القرن الثاني • ففي هذا القرن ، كان ايجناس الأنطاكي يعلن أن الاسقف هو ممثل الله في الكنيسة ، ولا يصح لاحد أن يأتمر بأمر غيره فيها ، ومخالفة ذلك رجز من وحي الشيطان • وكانت الفكرة الضمنية المتعارف عليها بطبيعة الحال : أن الاسقف لا يقوم بعمل الا بالاتفاق مع هيئة « البريسبيتروس » و « الدياكونوس »• ولكن ايجناس يقول في نهاية حديثه : « لتكن أعينكم معلقة بالاسقف حتى ينظر اليكم الله » ؛ ويقول : « عليكم بتمجيد الله والأسقف » ! ••• ومن العسير أن يبلغ أنسان في هذا الاتجاه شوطا يفوق ما تقدمه لنا نصوص ايجناس من معاني •

وفرض النظام الأسقفي الملكي نفسه بالتدريج على سائر الكنائس فيما بين عام ١٣٠ وعام ١٥٠ على وجه الترجيح • ودعمت انتصاره الازمات العديدة التي مرت بها الكنيسة بعد ذلك : من اضطهادات تشتت « الرعية » وتقضي على جموع كبيرة منها ، ثم ــ وهذا أهم ما نراه من آثار ــ عودة مرتدين كثيرين يرغبون في العودة الى رحاب الكنيسة التي لم تكن لتقبلهم من جديد الا بعد اتخاذ الحيطة اللازمة ؛ ومن بدع ترتبت خاصة على التركيبات التأليفية لفروض الايمان الاساسية مع أساطير شرقية قديمة ونظريات فلسفية يونانية ، واتضح خطرها البالغ حيث كانت عامل اغراء لـ « المفكرين » من « الأخوة » ثم لأهل التصوف من بعدهم ، أو على العكس لكل هؤلاء الذين يفتنهم المظهر العملي الفعال للطقوس السحرية • وعلى أي حال فقد اقتدت الكنائس ببعضها البعض ، بحيث تلاشت سريعا مظاهر المقاومة التي أبديت أحيانا تجاه تطور النظام الاسقفي • وصار المسيحيون ، في بداية القرن الثالث أو حوالي ذلك ، يؤمنون عامة بأن وحدة التنظيم يجب أن تكون موازية لوحدة الايمان وأن لا تقل أهمية عنها •

ومنذ ذلك الحين ، بدأ العمل النشط في سبيل تبرير الامر الواقع •

فشاع الاعتقاد بأن النظام الاسقفي الملكي انما أنشأه الحواريون أنفسهم؛ وتقدمت كل كنيسة بقائمة للأساقفة ترجع بها الى الحواري الذي أنشأها ، أو ، ان لم يتيسر لها الاعتماد على حواري ، فالى تابع من أتباعه أو مندوب من كنيسة حوارية كان له الفضل الاول في تأسيسها • واتخذ لسلطة الاسقف رمزا من ذلك الكرسي (« الكاتيدرا ») الذي زعموا أن قد جلس عليه سائر الخلفاء • فاذا ما قيل مثلا : « كرسي بولس » ، فأنما يعني ذلك : « سلطة أسقف روما » • وعلة هذه السلطة هي « سنن الحواريين » ، مثلها في ذلك مثل « شروط الايمان » • ولن يبحث الباحثون عن تبريرات انجيلية للنظام الاسقفي الملكي الا في عهد متأخر ؛ ولقد وجدوها في انجيل متى خاصة (١٦/١٩) : « ولاعطينك مفاتيح مملكة السماوات • ولسوف يعقد أيضا في السماوات كل أمر تعقده في الارض • ولسوف يحل أيضا في السماوات كل أمر تحله في الارض » •

ـ د ـ

كان الاسقف ينتخب بواسطة الشعب ، ثم كان ينصب عضوا في السلك الكنسي بواسطة الأساقفة المجاورين • وكان للشعب ، نظريا ، الحق في اختيار من يشاء • غير أننا نلمس منذ ذلك الحين محاولات تهدف الى تجريده من هذا الحق ، فضلا عما كان يتلقاه من ايحاءات وتوجيهات من طرف « البريسبيتيروس » و « الدياكونوس » في هذا الشأن ، ايحاءات وتوجيهات لا تخرج عن حدود الشرعية وتترتب عليها في أغلب الاحوال آثار هامة • وقد نرى أسقفا يعين خليفة له ، أو مجموعة من الاساقفة يقومون بملء وظيفة شاغرة بمطلق ارادتهم الجماعية • ولكن هذه الأمثلة لم تكن بعد سوى حالات استثنائية أملت التصرف فيها ظروف خاصة •

وكانت شروط الانتخاب ما تزال مرنة واسعة : بطلب من الاسقف المرشح ان يقدم دليلا على أخلاقه الطيبة ، وضمان ذلك ان يكون متزوجا أو أرمل ؛ ويطلب منه كذلك ان يكون ذا أيمان قوي ، أي أن لا يكون

من الوافدين الجدد على المسيحية • أما المؤهلات الثقافية فكانت مسائل ثانوية ؛ وأما السن فلم يكن بعد قد اتخذ مكانه كشرط هام ؛ الا ان القوة الجسمية العامة كانت من مستلزمات الوظيفة ، وان تسامح أولو الامر بعض التسامح في هذا الشرط • ولم تكن قد فرضت بعد أي شروط تتعلق بالوظائف المسابقة في الكنيسة ، أي أنه كان باستطاعة الشعب أن يختار لوظيفة الاسقف « أخا » بسيطا من الاخوة • غير أن الاساقفة ــ على الاقل ــ بدأوا يتجهون الى المطالبة باختيار المرشحين من بين الذين تدرجوا قبل هذا في وظائف كنسية أخرى ؛ وتلك حيطة لا بأس بها •

ومنذ ذلك العهد الاول السحيق ، ورغم تعرض صاحب الوظيفة في بعض الأحيان للمخاطر ، بل للتهلكة ، نجد التنافس والتآمر للحصول عليها يزيدان عن الحد ؛ ذلك أنها كانت اغراء قويا لتلك الروح المتأصلة في الانسان ، روح السيطرة ، التي لم يستطع المسيح نفسه ، حسب ما ترويه لنا الاناجيل ، أن بقي منها الحواريين • وكان المفروض في الاسقف أنه المسئول أمام الله عن أيمان وخلق وطاعة كنيسته ، غير أن هذه المسئولية المروعة في حد ذاتها لم تكن الا لترفع من صورة صاحبها في أعين قومه بل وفي عينه هو أيضا • والواقع أن الادارة الدينية والاخلاقية للجماعة كانت له ، وكذلك أصبحت له سلطة التنظيم والعقاب التي كانت من قبل لمجلس الأخوة • وكان له أيضا أن يعزل كل مخطىء يقوم في رأيه بعمل غير لائق ، فلا يقبله في طقوس القربان وينفيه بذلك نفيا خارج حدود الجماعة • وكان يدير الكتبة ، ويشرف على المسائل المالية ، وينظم المعونات والصدقات المقدمة الى الفقراء ، ويقوم اذا لزم الامر بدور القاضي بين رعيته • وكانت وظيفته تعتمد خاصة على اقامة الطقوس القدسية ، فهو يعمّد ويسمح بالربان ، وتلك هي الصلاحية التي جلبت له ، من بين كل صلاحياته ، أكثر قسط من التقدير والنفوذ • وأن أهميته في هذه الناحية لسوف تزداد بعد ذلك بتأصل المفهوم السحري لطقوس الاسرار الفعالة في شعائر العبادة • فاذا أضفنا الى كل ذلك ما فرض على الاسقف من عيادة المرضى وحث الناس على الصبر وبعث الامل لديهم ،

لأدركنا أبعاد دوره وجوانب سلطاته المختلفة •

ولم يكن لهذه السلطات من حدود ، في الحقيقة ، سوى استغلال الاسقف لها ، مما أثار بعض ألوان المقاومة لدى صغار الموظفين ولدى الاتباع ، بل أدى ، عندما قضت الضرورة بذلك ، الى أنواع من « الاضراب » والاحتجاج ، كانت تضطر الذي خرج عن جادة الصواب الى التنازل عن منصبه ، أو تضطر زملاءه من الاساقفة الذين أقاموه في هذا المنصب الى عزله •

ومهما كان من نفوذ الاسقف بين جماعته ، فهو لا يعدو أن يكون « أخا » من الأخوة بالنسبة الى الجماعات المجاورة ، اذ يستقبل فيها بالاحترام الواجب له ، ولكنه لا يستطيع حتى أن يتحدث الى مجلسها ان لم يسمح له الاسقف المحلي ، صراحة ، بذلك • وكانت كل كنيسة ، قانونا ، لا تزال صاحبة الامر المطلق والحرية التامة في تنظيم أيمانها ولوائحها كما تشاء • غير أن خطورة هذا الاستقلال الانعزالي بدأت تظهر بوضوح • ولو دام الحال كما كان عليه لما قامت للكنيسة الكاثوليكية قائمة ، ولتفرق المسيحيون في شيع ضئيلة الشأن مشتتة • ولحسن الحظ ، أصلح المراس العملي للحياة الدينية من ثغرات القانون : فقد اهتمت كل كنيسة في بادىء الامر بأحوال جاراتها ؛ واتخذت الكنائس الصغرى ، على الاخص ، قدوة لها من الكبرى ؛ وتنقل المؤمنون في الكنائس المختلفة ، رابطين بينها احيانا بأواصر صلات قوية ثابتة ؛ وتزاور الاساقفة المتجاورون ، واهتموا على الاخص بالتراسل ، بل أصبحوا يجتمعون في ندوات صغيرة ليتشاوروا في الامور التي تثير حيرتهم • وهكذا بدت سلطة الاسقف الملك ، في القانون والواقع على حد سواء ، دعامة التنظيم الكاثوليكي الجوهرية ، وذلك قبل أن تنبت فكرة البابوية بزمن طويل •

ولقد انتصر الاسقف في يسر على المدنيين من غير رجال الكنيسة ، فجردهم من الصلاحيات التي كانوا يمارسونها في رحاب الجماعة الاولى• الا أن صراعه كان أقسى مع موظفي الكنيسة الدينيين من « البريسبيروس » و « الدياكونوس » • ولدينا دلائل تشير الى ألوان

من المقاومة العنيدة • ولكن هذه المقاومة لم تغن شيئا حيث لم يتحد أصحابها ولم ينسقوا أهدافهم ، ثم ــ وهذا هو السبب الاساسي ــ لانها لم تجد لها سندا من مبادىء أو تبريرات يمكنها أن تقف في مواجهة تلك التي اعتمد عليها نظام الاسقفية الملكية •

وبعد انتصار الاسقف النهائي ، انتظم موظفو الكنيسة الآخرون ــ الذين لم يعرفوا بـ « الاكليروس » الا في القرن الثالث ــ انتظموا الى جانبه في « هيئة » ، أي : في طائفة خاصة متميزة بين جمهور المؤمنين • وأصبح الدخول في هذه الهيئة بـ « التنصيب » ، الذي يتصرف فيه الاسقف تصرفا مطلقا • والتنصيب لم يكن بعد سوى تسليم الموظف مهام وظيفته ؛ ثم صاحب ذلك الاجراء تدريجيا نوع من الطقوس الخاصة يختلف باختلاف الوظيفة ، وامتزجت به فكرة تحقيق المواهب التي أصبحت مفهوما قدسيا في الهيئة • الا أن تلك الامور كانت لا تزال في طي الغيب في القرن الثاني الذي نتحدث عنه •

وفي هيئة الاكليروس هذه (« اورد وكليريكاليس ») ، نجد طائفة « الدياكونوس » الذين يجب ذكرهم أيضا بعد ذكر الاسقف لأنهم هم عون له ، ويعتبرون أعينا تنظر وتجمع المعلومات ، وسواعد تعمل من أجله • ولسوف تمثل العلاقة بين الاسقف وبين الطائفة فيما بعد بتلك التي كانت بين موسى وهارون • ولم يلبث أن ظهر في الكنائس الكبرى موظف جديد ، ليرأس مجموعة « الدياكونوس »؛ وفي خلال القرن الرابع نرى أفراد هذه الطائفة أحيانا يرفضون الخضوع الوظيفي للقسس ، وهم في ذلك على حق من حيث المبدأ ، اذ أن وظائفهم لم تكن في أصل نشأتها أقل أهمية من وظائف « البريسبيتيروس » ، بل كانت ذات طبيعة مختلفة، وكان الواجب أن ينظر الى الطائفتين بالتوازي لا أن يبحث أمر خضوع احداهما للأخرى • بيد أن الزمن محا شيئا فشيئا هاتيك الاختلافات الاساسية ، بحيث ذهبت المؤتمرات الكنسيّة في القرن الرابع الى الحكم بالخطأ والاثارة الفاضحة على موقف « الدياكونوس » الذين يرفضون التبعية للقسس في الصلاة وفي طقوس القربان •

أما القسس « البريسبيتيروس » ، فيبدو أن أصل نشأتهم يرجع

الى نظام « مجلس القدماء » (« سانهيدران ») في المعبد اليهودي • وكانوا يشكلون في أول الامر ، مجلس الجماعة الذي يدير امورها في الواقع • ثم اقتصرت وظائفهم تدريجيا على المجال الروحي ، وأصبحوا بعد قيام الاسقفية الملكية مندوبين للاسقف ، أو اذا اقتضت الضرورة نوابا عنه في الوظائف الخاصة بالمسائل الروحية • ولهذا فهم يعتبرون أنفسهم أعلى درجة من « الدياكونوس » الذين ظلت صلاحياتهم محددة في البداية بالاعمال الادارية المادية •

ولما نمت معالم الحياة الكنيسية واتخذت مراسم الشعائر فيها مكانا ممتازا ، أضيفت شيئا فشيئا ألوان جديدة من الوظائف الثانوية المتخصصة الى هيئة الاكليروس بجانب القساوسة و « الدياكونوس » ؛ فنجد منذ بداية القرن الثالث أو حوالي ذلك ، « حراسا لباب الكنيسة » و « قراءا » وغير ذلك من الموظفين • وكان أمر اختيارهم متروكا للاسقف ؛ واستقر التقليد بالتدريج على اعتبار هذه الوظائف المساعدة تجربة تمتحن فيها « المواهب » وتدعم لتتجه بعد ذلك وجهتها الاصيلة في أعمال « الدياكونوس » أو القسس ، بل الاساقفة أيضا • وكان المفروض بطبيعة الحال في هؤلاء الموظفين الصغار ان يتميزوا بأخلاق قوية وسمعة طيبة ، الا أنه كان يسمح لهم بالزواج ، حتى بعد اجراء « التنصيب » •

وكان الاكليروس في هذا العصر يشتمل أيضا على مجموعات من النساء ، أطلق عليهن الاسم المؤنث من « دياكونوس » ، أو لقب « عذارى » أو « أرامل » ؛ الا أننا لا نستطيع ان نميز بوضوح بين الوظائف المعينة المقابلة ولا شك لكل درجة من هذه الدرجات ، ولا أن نحدد اختصاصات أي منها • ونفهم فقط أن هاتيك النساء الملحقات بالكنيسة ، لم يطلب منهن القيام بالتعليم ولكن بالخدمة • ويبدو أنهن كن أيضا معاونات للاسقف في اتصالاته بـ « الاخوات » في نطاق الجماعة • ويبدو أن الحذر من فتنة الجنس كانت شديدة بين المسيحيين ، وناشئة عن التجربة ، ولذلك اتخذت الحيطة اللازمة للحفاظ على الموظفين من تلك الفتنة ، وان تم ذلك أحيانا بكثير من السذاجة الصبيانية •

وكان كل هؤلاء الموظفين يعيشون ، من حيث المبدأ ، على الرزق الذي يجدونه في « مذبح » الكنيسة ، من هدايا وتبرعات الاتباع ؛ ولكنهم في الواقع اقتدوا بما فعله بولس الحواري ، فراح العدد الوفير منهم يعمل الى جانب وظيفته في بعض الصناعات اللائقة .

وظلت الجماعات المسيحية فترة طويلة تنتظم في مجتمعات مصغرة ـ على غرار جماعات اليهود في بلاد الوثنية ـ يتمتع فيها سائر الاعضاء بالمساواة الدينية التامة ، فيجدون بالتالي أن قيام بعضهم بالوظائف الكنيسية لا يفرق بينهم وبين بقية « الاخوة » من حيث « الجوهر » ، وان ميزهم من حيث الشكليات . ولكن ذلك تغير شيئا فشيئا . ففي العهد الذي سادت فيه الشعائر ، والعادات ، والفكر ، والتنظيم ، بل وبالمبدأ العام للقيادة الموحدة ـ في انتظار تكوين الهيئة التي تحتم انشاؤها بعد ذلك والتي سوف توضح هذا المبدأ وتطبقه مستقبلا .

ويبدو أن المفهوم الكاثوليكي اجمالا ، ينبع أساسا من عنصرين جوهريين : احدهما نستطيع أن نستخلصه من الحياة العملية ، والآخر من ميدان النظريات .

فمنذ القرن الثاني كان«ترتوليان » يعبر عن العقيدة السائدة بقوله:ان « المسيحيين جسد واحد » ، يجب على أعضائه أن يظلوا متحدين لصالح المجموع ولتثبيت الحق . ولم تكن هذه الوحدة الاخوية ، على أي حال ، لتعتمد الا على الايمان بـ « وجوبها » هي نفسها وعلى الارادة الجماعية الخالصة . ولم يكن القوم يبحثون عندئذ في اخضاع كنائس معينة لاخرى ، وهو الاجراء الذي كان من شأنه تيسير المشكلة ان لم يؤد الى حلها. ولا أزيد على ذلك مثلا سوى موقف القديس سيبريان أسقف قرطاجنة في القرن الثالث ـ وكان من كبار الدعاة الى الوفاق ـ تجاه اتيين أسقف روما . فقد أثار سيبريان جميع أساقفة افريقيا ضد هذا الاخير بشأن مشكلة من مشاكل التنظيم ، معتمدا في قوة على الحق المطلق الدائم الذي تتمتع به كل كنيسة في أن تحكم بما تشاء بين رعيتها ومؤكدا لهذا الحق . ولقد نشأت فكرة « الوحدة المسيحية » في الواقع من الاتصال المتكرر بين الجماعات المختلفة ، ومن الاحاديث بين الاساقفة ،

ومن تبادلهم للرسائل بشأن المشاكل التي تهم الجميع كتحديد موعد الاحتفال بعيد الفصح او الاتفاق على موقف موحد بالنسبة الى مذهب جديد أو بدعة معينة •

وذلك هو العنصر الجوهري الاول الذي أشرنا اليه •

أما العنصر الثاني ، فهو « فكرة الإيمان الكاثوليكي » ، وهي تعني أولا : الايمان المشترك العام المقابل للايمان الفردي الخاص ، أي : للبدعة • وسبق لنا القول بأن هذا الايمان « الطبيعي » كان ـ في العقيدة الشائعة ـ هو هو ايمان الحواريين ، حفظته الكنائس التي أنشأوها في سنن كتب لها الدوام • ورأينا الكنائس تعلن ، كنتيجة حتمية للرأي المذكور ، أن لا خلاص بغير هذا الايمان • وينمى القديس ايرينيه ـ أسقف مدينة ليون في الربع الاخير من القرن الثاني ـ ذلك الرأي الذي كان من آثاره العملية تدعيم فكرة الاولوية الشرفية للكنائس الحوارية، أي أنه بدأ يحدد ما يمكن أن نسميه بالاطارات الادارية المستقبلة للكاثوركية • ولم يظهر « المطارنة » بصورة رسمية الا في بداية القرن الرابع ، ولكنهم وجدوا بالفعل قبل ذلك بزمن طويل • وبعبارة أخرى نستطيع القول بأن الكنائس الكبرى ، أي كنائس المدن الضخمة ، بدأت شيئا فشيئا تؤثر على الجماعات الصغرى المجاورة لها بشكل يشبه السيطرة • ولم يكن على المؤتمرات الكنسية بعد ذلك سوى أن توافق وأن تعطي الصفة القانونية الرسمية لما كان قد تم فعلا ، وذلك عندما اعترفت في القرن الرابع بسلطات الاساقفة المطارنة (المركزيين) •

ولو فكرنا قليلا في الظروف المواتية التي اجتمعت لكنيسة روما فسمحت لها بأن تسيطر على كنائس الغرب ، لما استغربنا أن نراها تحقق هذا الهدف في يوم من الايام •

لقد قيل عن هذه الكنيسة أنها أبنة بطرس الحواري ورغم أن بها كرسيه وقبره • وزارها بولس الحواري ، ومات بسيف الجلاد على مقربة من أحد أبواب المدينة ، فكان استشهاده تدعيما لعمل بطرس • وكانت كنيسة روما ، منذ السنين الاولى من نشأتها ، معروفة بكثرة أعضائها وبغناها ، وتشهد مقابرها بذلك ؛ كما أن وفرة صدقاتها على

الكنائس الاخرى وكرمها جعلا ايجناس يصفها بأنها « قائدة الرحمة » •
وكان نفوذها يتخذ له سندا من نفوذ عاصمة الامبراطورية الرومانية •
ولم تعارض كنائس الغرب الاخرى ـ التي كانت كنيسة روما آما لها في كثير من الاحيان ، ولعلها كانت اقدمها قاطبة في الوجود ـ لم تعارض في منحها الاسبقية الشرفية التي تحتمت لها ، وذلك قبل أن تفكر هي في استغلال مختلف النصوص الانجيلية لتبرير أسبقيتها شرعا •

وهكذا نرى ، منذ بداية القرن الثالث ، أن الكنائس وصلت الى التنظيم الذي سوف تحتفظ منه ـ على أقل تقدير ـ بالاطارات ، وأنها أتجهت الى فكرة الدوام في هذا التنظيم • كذلك نرى الكنيسة العالمية تخرج من مجال التجريد والاحلام لتحقق ذاتها في الاتحاد والتعاهد بين الكنائس الخاصة ،ولن يكون على المستقبل بعد هذا الا ان ينمي المبادىء والمقدمات التي انشئت منذ ذلك العصر •

ولنذكر منذ الآن أن هذا التنسيق للمسيحيين في جماعات منظمة مغلقة ، ثم هذه النزعة التي ذكرناها نحو الكاثوليكية ـ (العالمية) ، كان من شأنهما ،ظاهريا : أن يفسحا المجال للتعصب المسيحي ، وأن يبرزا موقف المؤمن في معارضته للكافر وكراهية المجتمع المسيحي لمختلف المجتمعات الاخرى • ولكننا ، اذا فحصنا الامور عن كثب ، نرى أن شيئا من ذلك لم يكن ، فالكنائس ، على عكس ما تدعي ، لا تعيش منعزلة عن الوسط الذي يحيط بها ، بل تعيش فيه ، وتعيش به ومنه ، وتعتبر منظمات بديعة تهضم في اتجاهاتها التأليفية كل ما تجده من قيم دينية ذات بال في الديانات المجاورة ، هذا بالاضافة الى أن النزعة الى الكاثوليكية تساعد على الموازنة والتنسيق في وحدة منسجمة بين العناصر الخاصة المتباينة •

ومنذ ذلك العصر ، نستطيع أن نلمح في أعماق الكنيسة الاسباب الجوهرية التي تفسر التغير الجذري الذي طرأ على موقف الدولة والمجتمع منها في القرن الرابع •

الفصل التاسع

تأسيس العقيدة والتنظيم

أ ــ كيف كان المرء يدخل في المسيحية في بداية القرن الثانــي : التعميد ، خصائصه ومغزاه ــ النظريات الفلسفية في المسيحية ؛ أنماط ثلاث منها : البولينية ، اليوحانية ــ الدوسيتية ــ النزعة المشتركة ــ مصير هذه النزعة لدى عامة المؤمنين ــ متطلبات الايمان الاخلاقية ــ حيــاة الشعائــر •

ب ــ نمو الشعائر : هذا النمو يجعل الدخول في الكنيسة عسيرا ــ اعتناق المسيحية ونظام « التدريب » ــ انشاء الاجراءات الخاصة باعتناق المسيحية ــ المريدون للتعميد ــ التعقيد في طقوس التعميد •

ج ــ تنمية الايمان ؛ التأثير المزدوج الذي يهيمن عليه : تأثــير البسطاء وتأثير الفلاسفة ــ خرافة الثبــات و « شروط الايمــان » ــ تاريخهما ــ كيف تعرض مشكلة الثالوث ــ نموها في القرن الثاني ــ ألوان من المقاومة التي واجهها التطور العقائدي : الا بيونيت والالوج •

د ــ تنمية الحياة الكنيسية ــ النزعة الى فرض الطقوس عــلى سائر أوجه حياة المؤمن ــ أصل « القــداس » المعنــى الــذي تنزع طقوس القربان الى التطور نحوه ــ تحول الخبز والخمر المقدسان الى لحم ودم المسيح •

هـ ــ التوبة ــ خصائصها ــ تنظيم طقوس التوبة لم يزل بدائيا ــ ليس هناك أنواع أخرى من « الاسرار » في بداية القرن الثالث ــ خاتمة •

ــ أ ــ

فصلنا فيما سبق كيف كان العالم اليوناني ــ الروماني ، في ذلــك

العهد الذي استقلت فيه المسيحية كدين بانفصالها عن اليهودية ، يرفض الديانات التي لا تصاحبها الطقوس والاحتفالات . كذلك لم يكن الناس في هذا العالم اليوناني ـ الروماني يتصورون أن لا ينتظم الايمان المسيحي ـ وهو الذي يزعم أنه وحي منزل ـ في فروض ميتافيزيقية تعرف بـ « العقائد » (دوجما) . وكما بحثنا فيما سبق السبل التي سلكتها المسيحية في انشاء اطارات وتنظيمات خاصة بحياتها العملية ، خلال القرن الاول والقرن الثاني ، نريد الان أن تتحقق من تلك التي سارت عليها ، في نفس الوقت ، فيما يتعلق بالشعائر والعقيدة ، وما انتهت اليه من نتائج .

واذا ما توقفنا في نهاية العهد الحواري عند منحدر القرن الاول ، لوجدنا أنه كان من السهل الميسور على الانسان أن يعتنق المسيحية : كان يكفيه لذلك الشهادة بأن عيسى المصلوب هو المسيح الذي وعد الله به أمته ، وبأنه مات من أجل خطاياها ، وبأنه سوف يعود في الاجل القريب ليقضي بين الأحياء والأموات ولينشىء مملكة الله حيث يعيش الصالحون عيشة ملؤها السعادة بعد أن تبعث أجسادهم ويمجدون، وكان الامر قاصرا على ذلك أو يكاد ، فاذا ما آمن الانسان به ، أقيمت له مراسم التعميد ؛ وهي طقوس يهودية الاصل ، تبناها المسيحيون ؛ وتعني ـ في « السر » الذي أنشأه بولس والذي يحمل طاقة كبيرة من الرمزية ومن الواقعية التأليفيتان ـ تعني موت وبعث « السيد » وتجديد هذا الموت وهذا البعث بالنسبة الى المريد . أما لدى عامة الاتباع ، فهي ترمز على الاقل الى التوبة والى تغيير أسلوب الحياة ، وتؤكدهما ؛ كما تضمن محو الآثام والخطايا محوا تاما . فالتعميد يعتبر « خاتم » اليد ، يعرف به المؤمن ، وبصاحبه « اشراق » هو فيض من فضل الروح القدس . وكانت الفكرة الشائعة أن التعميد هو المراسم النهائية اللازمة لاتمام التحول الى المسيحية ، وأنه لا يفترض ـ من حيث المبدأ ـ احتفالا كبيرا ؛ اذ يمكن أن يقوم بطقوسه أي مسيحي ولا يستلزم من المريد اعدادا مطولا : فهو ـ ان سمح لنا بهذا التعبير ـ عمل ايماني ، وأعمال الروح لا تخضع للزمن . ولعله كان على المريد منذ ذلك العهد ان يقرأ

نصا مختصرا ينطوي على المبادىء الأساسية لدينه الجديد •

ونحن نعلم أن هذه المبادىء الاساسية لم تكن في نهاية الامر سوى فروضا قليلة التعقيد • ولكن المريد ، متى ما دخل الكنيسة ، وجد نفسه أمام نظريات قد لا يتقبلها الناس جميعا ، ولكنها تثير لدى الجميع اهتماما بالغ العنف • كانت شخصية المسيح،بطبيعة الحال ، موضوعها الجوهري• فعندما تلاشت تلك الفئة القليلة من الناس الذين عرفوه « لحما ودما » ، لم يعد هناك أي اعتبار تاريخي يحدد أو ينظم من التجارب ومن الاضافات في الايمان ، لذلك نراها تنمو وتزداد في تصورات ثلاث رئيسية لـ « السيد » قابلة للبحث وللتنقيب •

الاولى ــ منها هي تَصور بولس لـه ، ونـذكر القارىء هنا بخطوطه الاساسية :

ــ كان عيسى انسانا سماويا ، أي : انسانا سبقت عناصره الروحية في الوجود وجوده الجسدي ، وكانت من قبل في السماء • ومبدأ حياته ــ اذ سمح لنا بهذا التعبير ــ هو الروح الالهي نفسها ، « فعيسى هو الروح » •

ــ وجاء عيسى الى الارض لينشىء انسانية جديدة ، هو آدمها ، انسانية يحررها من أثقال الخطايا بقبوله ، في سبيل « شرائهـا » ، أن يعيش عيشة الانسان المحقر وان يموت ميتة الآثم المشينة • « أنه صورة الله الخفية ، وهو أول الخلق ، ففيه خلقت سائر الكائنات في السماء والارض ، المرئي منها والخافي على الاعين • وكل الكائنات خلقت بـه وفيه • وهو سابق للكائنات جميعا وكلها موجودة فيه » •

ــ فشخصه اذن هو « المكان الميتافيزيقي الذي يجتمع فيه الله والخليقة » ، على حد التعبير البديع الذي أطلقه الكاتب ساباتييه ؛ وبعثه وتمجيده يضمنان للمؤمن انتصاره هو الآخر على الموت •

ولقد سبق لنا القول بأن هذه النظرية الخاصة بعيسى والتي ظهرت فيها آثـار التيارات التأليفيـة المحيطة ، كانت اولـى « الغنوصيات » المسيحية • وهي لم تأت بثمارها في أول عهدها ؛ بل أسيء فهمها وتناساها الناس سريعا أول الامر ، حتى بين رحاب تلك الكنائس التي أنشأهـا

الحواري • الا أنها كانت حية قوية بين دفتي « الرسائل » ؛ فوجدهـا القوم فيما بعد ، وظنوها وحيا والهاما ، حتى أصبحت دعامة من الدعائم التي اعتمد عليها التفكير الهيليني ــ المسيحي •

أما التصور الثاني ، فهو الذي تبرز فيه ، فيما يختص بالمسيح ، النظرية « اليوحانية » التي تعتمد على تعريف « السيد » بـ « اللوغوس » ؛ الامر الذي يبدو ، لاول وهلة ، قريبا من عبارة بولس القائلة بأن « السيد هو الروح » ؛ ولكن هذا التصور ينطوي في الحقيقة على مفهوم ميتافيزيقي اكثر عمقا : حيث أن « اللوغوس » وهو فيض الله يمكن في نهاية البحث أن يكون تعبيرا عن الله ، والقول بأن « السيد هو اللوغوس » يكاد يكون مرادفا للقول بأن « السيد هو الله » • ونكرر هنا أن ذلك كان أمرا هائلا وفاضحا بالنسبة الى اليهود ؛ وان كان ــ بالتوازي ــ سهل القبول لدى اليونانيين الذين يميلون الى القول بالتدرج في الآلهة ؛ هذا بالاضافة الى اتجاهه نحو عين السبل التي يطرقها الايمان الحي الذي يصبو بفطرته الى الاعلاء دائما من شخص « السيد » •

ويأتي التصور الاخير لشخصية المسيح ، وهو المعروف بـ « الظاهري » (δόκησις = ظهور) ، والذي يقول بأن « السيد » لم يكن انسانا الا ظاهريا ، وبأنه لم يمتحن ولم يمت الا في الظاهر ، وكانت « الظاهرية » تحاول بهذا الرأي الملتوي أن تفلت من ضرورة فرض الملازم المشين بين الكائن الالهي وبين الجسد وما يصدر عنه ، ولكنها بذلك حتمت التدرج الى نظرية للخلاص تختلف تمام الاختلاف عن تلك المعتمدة في ايمان الجماعة ، وان الصور التي قدمت لهذه النظرية لتختلف كثيرا عن بعضها البعض باختلاف الغنوصية التي تبنتهـا •

ومن الواضح رغم الاختلاف في الأسس المبدئية وفي روح القائلين بها ، أن هذه النظريات الثلاث في شخص عيسى ، تهدف الى نتيجة واحدة، هي الخروج بالمسيح عن نطاق البشرية بتقريبه من الله ، وتلك عملية عسيرة في حد ذاتها ، حيث أن المسيحية قد أخذت عن الدين اليهودي ،

الذي أنشئت على أسسه ، فكرة توحيد الغير قابل للجدل ، واذا ما تقبلت القول بأن « السيد » هوحقيقة ، كائن سماوي ، فلا مناص لها ، فيما يبدو لنا ، من أن تجعله خاضعا لله ، تماما كما كان « المنقذ » في « الاسرار » خاضعا للاله الاعم • وقبل ان يتجه التفكير المسيحي نحو مفهوم ثالوث الشخصيات الالهية المتحدة في جوهر فرد ، أي في الكون الالهي بذاته ، قبل ذلك بزمن بعيد جرب الناس تركيبات عديدة مختلفة ، لم يترك الكثير منها سوى آثار غامضة مبهمة • الا أنه لم يكن قد طلب بعد من عامة المؤمنين أن يتعلقوا بأي منها ؛ بل لم يطلب منهم « الايمان » الا بفروض لا تحتم مجهودا فكريا يذكر •

أما ما طلب منهم « العمل به » ، فقد اقتصر على حسن السلوك في الحياة ؛ أي : الحرص حرصا شديدا على عدم الوقوع في الاخطاء الاخلاقية التي يعتبرها الناس عامة آثاما ، وأن يجتهدوا على الدوام في تجنب الغرائز الجسدية الشائنة ، معتمدين في ذلك على الاطمئنان المطلق الى فضل الآب السماوي والى شفاعة السيد عيسى المسيح • وقد احتفظ القوم بشعائر اليهودية من صلاة متكررة وصيام • وكانت الطقوس الجماعية ، في حياتهم الدينية ، تقتصر على اجتماع القربان ــ أي : فرض العبادة الذي يقام من مساء السبت الى فجر الاحد كل أسبوع ــ ذلك الاجتماع الذي تمجد فيه الاصناف الالهية ، من خبز وخمر ، ثم يتناولها الناس • ولا نرجح من ناحية أخرى أن كل الجماعات كانت على اتفاق فيما يختص بمعنى طقوس القربان : كانت الغالبية لا ترى فيها سوى تذكرة بعذاب المسيح ومأدبة للوحدة الاخوية ؛ وكان البعض يعتبرها وسيلة فعالة للمشاركة في ذات « السيد » باحياء هذا العمل الجوهري من أعماله الدنيوية ، أي بتكملة وتجديد فضل التعميد • وأننا لا نكاد نجد أو نستشف لدى المسيحيين أي شيء من العملية الاخرى مثل المسح بالزيت الذي تصاحبه لمسات يدوية معينة ، والذي توصي الرسالة المنسوبة الى يعقوب باستخدامه لشفاء المرضى ، فهذا التقليد ، في الواقع ، تقليد من تقاليد اليهود الاساسية •

تلك كانت ، في بداية القرن الثاني أو حوالي ذلك ، سبل اعتناق

المسيحية ومفاهيم عقيدتها وطقوس عادتها .

أنها لحياة فكرية وعملية تبلغ الغاية من البساطة ، ولكنها ، الى جانب ذلك ، تبلغ ايضا الغاية في المرونة وأننا لنجد المؤثرات الدينية الهيلينية تتفاعل فيها — على أساس من لبادىء اليهودية الواضحة كل الوضوح — مع المفاهيم الفلسفية اليونانية التي نزلت الى مستوى العامة بطرق غير مباشرة وان كانت لا تخفى على الباحثين .

ولنحاول الآن ان نتبين كيف تعقدت على الناس ، بعد ذلك ، سبل الدخول الى الكنيسة ومفاهيم العقيدة وطقوس العبادة العملية .

— ب —

تعقد الدخول في الكنيسة المسيحية بفعل نمو الطقوس التي شملت شيئا فشيئا جميع المجالات الدينية عندما تم استغلالها في انتظام ، والتي يبدو من ناحية اخرى أنها ملازمة لحياة كل هيئة كنيسية حقيقية .ويجب أيضا أن نحسب حساب ذلك الخوف الذي ينتشر بين المؤمنين من دخول اصحاب الخيانة بين الأخوة ومن سوء ستخدامهم لـ « الاسرار » ان ألقي بها اليهم في غير تدبر وحذر . لذلك أخذ الناس بألوان من الحيطة اللازمة لمواجهة النية السيئة . ولقد ظن الباحثون خلال عصور طويلة أن هذه الالوان من الحيطة قد رتبت في النهاية في أطار النظام المسمى بـ « نظام السر » ، الذي قيل انه يحصر في مراحل متتالية درجات تعليم وتعريف المريد للمسيحية ، فلا يصل الى غاية « السر » الا في المرحلة الاخيرة وبعد امتحانات تبين حقيقة نيته . وأننا لنلمح شيئا من هذا القبيل في واقع الامور بعد انشاء نظام « التدريب » ، أي : فرض درس منتظم لتعريف طلاب التعميد بالمسيحية . ولكن « نظام السر » في هذه الحالة لا يمكن ان يكون سوى وهما وتمثيلا في الطقوس ، وذلك لسبب لا يخفي على أحد ، وهو : أن غاية « السر » النهائية هي هي عين السبب الذي يدفع الى اعتناق الدين الجديد ، وهي هي أيضا علة هذا الاعتناق الاولى ، والكشف التدريجي لن يتعدى بعد ذلك أن يكون رمزا من الرموز ، اذ المريد على معرفة تامة منذ البداية بما سوف يتلقاه

في النهاية • ويمكن القول بأن « نظام السر » كان لا مغزى له قبل انشاء « نظام التدريب » ثم اصبح ولا جدوى عملية كبيرة له مـن بعد قيام « نظام التدريب » •

بيد أن مجرد اتجاه النية الى اتخاذ بعض الحيطة للمحافظة علـى الدين من الدخلاء ــ وطلب الدخول في الدين الجديد أمر لا يمكن رفضه لانسان ــ او على الاقل للمحافظة على ما سوف نسميه منذ الآن بـ « الطقوس القدسية » ، هذا الاتجاه يؤدي بالضرورة الى انشاء فتـرة تدريب لمريدي المسيحية • وهذا هو بالذات ما سمي بـ « الكاتبشوميناه (=xaTηxέω = أنا أعلم) » ، وهو النظام الـذي نجـد أول النصوص الدالة على وجوده في مؤلفات « تيرتوليان » والذي يبدو أنه تأسس قرب نهاية القرن الثاني دون أن يتخذ صورة موحدة في كل مكان• الا أنه يمثل لدى سائر الجماعات نوعا من التربية والمراقبة لايمان المريد باشراف ذوي السلطة من هذه الجماعات • وكان المريد يدخل في هذه المرحلة التدريبية عن طريق التسجيل في قائمة خاصة والمـرور ببعض الطقوس التمهيدية ؛ ثم يجد نفسه ، بعد فترة قد تطول وقـد تختصر من الدرس والامتحان ، طالبا بين مجموعة الطالبين للتعميد الذي يقـوم به الاسقف بمناسبة بعض الاعياد الكبرى مثل الفصح أو القيامة •

وأصبح التعميد نفسه احتفالا معقدا ، يشتمل على أقل تقدير عـلى مجموعة من التعليمات الخاصة ، وعلى الغسل بالماء الذي يكرر ثلاثا ، وعلى اجراء اللمس باليد الذي يصاحبه المسح بالزيت المقدس ، ثـم ينتهي الى طقوس القربان الاول • وأصبح من المعتمد بعد ذلك أن المريد البسيط قد يكون من المحتمل نجاته ووصوله الى الخلاص • أما جماع الفيض الذي يتمتع به المسيحي فلا يكون الا لذلك الذي تم تعميده ؛ والتعميد وحده هو الذي يعقد بين « السيد » وبين المؤمن تلك الاواصر الخفية التي تجعل الاخير من أمة الاول الخاصة • وليس من العسير علينا أن نكشف عن روح « الاسرار » الهيلينية في هذا التعليم التدريجي وفي هذه الطقوس الفعالة ثم في المعاني التي حملت بها مراحلها • فقد رأى الناس ان اجراءات التعميد أصبحت مشحونة بمجموعة هائلـة مـن

الارتباطات الوثيقة ، وأن عدم الوفاء بما يأخذه منها المرء على نفسه من مواثيق قد يؤدي الى التهلكة ؛ مما حدا ببعض الذين يؤمنون بالمسيحية في أعماق قلوبهم الى الامتناع عن التعميد حتى تأتيهم سكرات الموت فيطلبونه ، وذلك حرصا منهم وحذرا • وتلك عادة يبدو أنها انتشرت انتشارا واسعا ــ رغم معارضة الاكليروس ــ في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع ، وعلى الاخص بين الطبقات الرفيعة من مجتمعات المسيحيين •

ــ ج ــ

أما العقيدة فقد وجدت غذاءها في الايمان الذي طورها ونماها ، وازدهرت في ذلك الوسط الذي عرفناه مشربا بالمذاهب والنظريات الدينية ، فوقعت تحت لونين من التأثيرات : الاول منهما تأثير عامة الناس البسطاء الذين لا يستطيعون التسامي عما اعتادوا عليه من تركيبات واضافات لا عمق فيها ولا عبقرية ، ويحلمون بالثبات على الحق ولكنهم لا يقدرون على الحفاظ عليه • وانهم لهم أنفسهم الذين قبلوا ثم فرضوا منذ البداية كل النظريات التي تؤرق المسيحيين اليوم وتعتبر خطرا على دينهم ، قبلوها وفرضوها لانها تعلي وتضخم من صورة « السيد » • والواقع أن الاتباع أتوا من العالم الهيليني بعد أن عمرت أذهانهم بفروض الاورفية أو الاسرار ، لم يكونوا ليتخلوا بسهولة عن هذه الفروض عند دخولهم المسيحية ؛ بل كانوا على العكس يبحثون عنها في دينهم الجديد ويريدون ان يستعيدوها بين عقائده ، فيتدرجوا ــ في غير ادراك منهم ولكن بدفعة عاطفية لا تقهر ــ الى ادخالها عليه • ثم علينا بعد ذلك أن نحسب حساب تأثير الفلاسفة ، ونعني بهم هؤلاء الرجال المثقفين والذين هم ، بفضل ثقافتهم ، على استعداد لان يعملوا فكرهم في مسائل الايمان ولان يصبحوا من الباحثين في علوم اللاهوت • ولا جدال في أن المسيحية زعمت منذ البداية أنها تنطوي على الحقيقة كلها ؛ وبذلك لا يكون هناك أي سبب تستند اليه الفلسفة التي تبحث عن الحقيقة في تعليل وجودها ؛ ولم يغفل بعض العلماء ، من أمثال«ترتوليان»

أو « أرنوب » أو « لاكتانس »عن اعلان هذا وتأكيده ٠غير أن اغراء الفكر اليوناني ظل يؤثر على هؤلاء الذين كانوا قد عرفوه قبل خضوعهم للنزعة الجارفة التي جاءت بهم الى الايمان المسيحي ٠ وهم ايضا رجال لم يجدوا الارادة الكافية او لم يستطيعوا ، وان أخلصوا النية ، أن يتناسوا القوانين الاساسية وأساليب التفكير التي علموها في المدارس ، فراحوا يطبقونها على مبادىء الايمان وعلى النظريات التي أوحت بها العاطفة الدينية للسذج البسطاء ٠ ونشأت عقائد معقدة مثل : التثليث ؛ وأخرى تريد ان تكون ذكية بل غاية في الذكاء مثل : تحول الخبز والخمر بطقوس القربان الى لحم ودم المسيح ؛ نشأت وانتظمت بفضل الاضافات والبراهين التي أتى بها « الفلاسفة » في سعيهم الى تحليل الفروض التي يتقدم بها العامة من الناس والتي قد تكون متعارضة [١] ٠

وفي كلتا الحالتين ، ننتهي الى أن الايمان هو الذي يتسامى دائما بالعقيدة ويزودها بالاضافات ، وأنه هو الذي يستعير في كل الاحوال من بيئته الدينية السابقة العناصر التي يصوغها في دينه الجديد ٠

وكان من الطبيعي ، عند بلوغ المسيحية لنهاية هذه المرحلة الاولى من تاريخها التي كان الايمان فيها يسير اجمالا وفق ايحاءات « الروح »، كان من الطبيعي ان يشعر المسيحيون بالمخاطر التي يمكن ان تؤدي « الذاتية » بهم اليها ؛ ونعني بالذاتية : أهواء الافراد كل حسب روحه الخاصة ٠ ومن ناحية أخرى ، نراهم قد تأثروا بذلك الوهم الازلي الذي نجده في كل الأديان الموحي بها والذي يزعم : ان الحقيقة « واحدة » وأنها ، بالتالي ، « ثابتة » ؛ ثم ما لبثوا ان أيقنوا بأن دعوة الحواريين تنطوي على هذه الحقيقة جميعها ؛ واتجهوا من أجل تأمينها ، وأيضا من أجل منع تشتت العقائد و « المزايدة » الساذجة فيها ، الى انشاء

---

(١) كان لعلماء الاسكندرية المسيحيين على الاخص فضل كبير في تدعيم هذا الاثر « الخصب » للفلسفة اليونانية على معطيات الايمان ٠ وابرز هؤلاء العلماء هو أوريجين الذي عاش في القرن الثالث ، والذي انتهى الى التعبير عن « الحقائق الحوارية » بلغة أفلاطون ، اي : انه كرر بالنسبة الى المسيحية ما قام به افلوطين قديما من تفسير لليهودية على اساس من الافلاطونية والرواقية ٠

« شريعة للايمان (ريجولا فيدي) » يفترضون فيها الثبات . ويعبر « ترتوليان » عن هذا الاتجاه تمام التعبير في قوله : « الايمان كائن في شريعة واحدة . ولن يجد حولا له ولا نجاة الا في التمسك بأهداب شريعة واحدة » .

وتشير بعض الدلائل الى أن تعاليم معينة مختصرة قد وضعت منذ القرن الاول ليستذكرها ويحفظها المريدون عند طلبهم للتعميد . وان ما يسمى حتى يومنا هذا بـ « رمزية الحواريين » ، ليس سوى شريعة ايمان يرجع تاريخها الى عهد سحيق ، اذ يبدو أنها ، في صورتها الاولى ، أنشئت في روما حوالي عام ١٥٠ ، ونسبت الى الحواريين حتى يسهل على جميع الكنائس قبولها . ولم تكن هي الوحيدة من نوعها على أي حال ، فنصوص القرنين الثاني والثالث تذكر لنا بعض الوثائق التي تتفاوت في درجة مشابهة لها . وتبرهن لنا هذه النصوص على أن بعض الاختلافات ظلت قائمة بين الرموز التي قبلتها الكنائس المختلفة ، بل تبرهن على أن كل رمز من هذه الرموز ظل مرنا بعض المرونة لفترة طويلة [1] . وهي تدل الى جانب ذلك على أن كل كنيسة من الكنائس كان لها منذ ذلك العصر « شريعة ايمان » و « رمز تعميد » . وهذا أمر بالغ الاهمية لأن العبارات المتضمنة للرموز المذكورة كانت تستخدم كموضوعات لتأمل الايمان المسيحي ، وكان يكفي أن يتعمق فيها التفكير اللاهوتي لتتفجر منها العقائد .

وكان محور هذه التآليف جميعا ، بطبيعة الحال ، مفهوم المسيحية الذي يتطور كل شيء وفقا لتطوره . ولا نريد هنا أن نتدرج في تفاصيل لا جدوى منها ، لذلك نكتفي بذكر المسائل الاساسية الثلاث التالية :

١) لم يكن الايمان ، من حيث المبدأ ، يقبل أي جدل في عقيدته الاساسية الخاصة بالتوحيد .

٢) كانت النهاية المنطقية لكل الاضافات الايمانية الخاصة

---

(١) حورت بعض جوانب « رمزية الرسل » هذه في مناسبات متعددة من أجل معارضة فتن مختلفة . ولا أدل على « المرونة » التي نتحدث عنها من مقارنة النصوص المختلفة لترتوليان .

بشخصية ودور عيسى المسيح ، هي تقريبه من الله الى درجة الوحدة .

٣) كانت هناك نزعة عكسية تسعى الى ابراز الألفاظ من رمز الآب والابن والروح في شخصيات ثلاث تتحدد معالمها — أي تتميز — يوما بعد يوم . وهذا يعني في النهاية القول بأن الايمان كان يتعلق في قوة متزايدة بأهداب فروض متعارضة .

ولم يكن للعقول الراجحة أن أرادت الخروج من المأزق سوى الاختيار بين حلين : أما التخلي صراحة عن التوحيد والتسليم بالتثليث ؛ واما التخلي عن التمييز بين الشخصيات الثلاث في الله والقول بأن كل من هذه الشخصيات ليس سوى جانب جوهري من جوانب الذات الالهية الواحدة . ولكن غالبية المسيحيين رفضت الاختيار بين الامرين ، وأرادت أن تبقي ، في نفس الوقت ، على وحدة الله التي لا تتجزأ ، وعلى وجود شخصيات ثلاثة متميزة فيه . وعن هذا الفرض الذي يتعارض طرفاه نشأت مناقشات لا تحصى كان من شأنها أثارة مشاكل تراكمت على مشاكل وصعوبات ترتبت عليها صعوبات متجددة ، فسببت للكنيسة فتنا هائلة لم يهدأ أوارها تقريبا الا في القرن الخامس حيث توغلت في دروب من التعبيرات والنظريات اللاهوتية لم يعد المنطق يستطيع ادراك معالمها .

ومنذ القرن الثاني أصبح من المبادىء المعتمدة : أن عيسى هو ابن الله ، ينتسب اليه نسبة مباشرة وان كانت من نوع خاص ؛ ثم أنه أيضا هو الله ، وهو منظم العالم بارادة الآب وبمعونة الروح القدس . وبدأ المذهب الخاص بالصلة بين الأبن والأب يتألف برفضه في آن واحد لمفاهيم ثلاثة مختلفة تتعلق بهذه الصلة :

١) نظرية التبني التي عبر عنها تيودوز بوضوح في روما ، عند نهاية القرن الثاني ، والتي تقول بأن عيسى الانسان « تبناه » الله ، في نوع من التقمص لـ « اللوغوس » اكتسبه المسيح بفضائله الخاصة .

٢) نظرية الأشكال ، وهي التي تفترض ان الله جوهر واحد ، يظهر في وظائف مختلفة ، منها : وظيفة الخالق أو المنقذ او الملهم ؛ ولا يكف في ذلك عن كونه ذاته . وعليه نستطيع الزعم بأن الأب قد صلب عندما صلب الأبن ، وكذلك الروح القدس . وقد راح احد المفكرين ، ويدعى

براكسياس ، يشرح ذلك في روما حوالي عام ١٩٠ .

٣) النظرية الغنوصية ، وهي ذات صور تبلغ من التعدد مبلغـا يستحيل معه تلخيصها في عبارة واحدة ، ولكن يمكن القول مع ذلـك انها كانت ترسم المسيح كشخصية الهية ، بل كنوع من القوة الأزليـة الغير محدودة هي وسط الكمال الالهي وبين الطبيعة البشرية الناقصة . وكانت الفرق الغنوصية عامة تأخذ بـ « الظاهرية » في تصورها للمسيح، أي : تقول بأن حياته الدنيوية وتقمصه الجسد البشري لم يكونا الا ظاهريـا .

وأن الجدل الذي أثارته هذه الخلافات حول التصورات الخاصة بذات المسيح ليبدو على درجة من الابهام ومن البعد عما تعودنا اعتباره جدلا منطقيا معقولا ، يتهيأ معها أحيانا للقارىء أنه مجرد تبادل خزعبلات لا جد فيها . ولكن علينا ان نقف عند هذا الحد من تأملنا ، فقد كـان للجدل المذكور أهمية كبرى ، اذ فرض على الايمان العـام ان يحـدد معالمه وأن يكشف عن قواه الحية . وعلينا أن لا ننسى أيضا كيف نشأت أغلب العقائد من الفروض الهادمة لغيرها ومن المزاعم القاطعة ببطلان كل ما عداها : فالرأي الذي يغلب ويثبت ، هو ذلك الذي لا تقضي عليـه آراء أخرى ، أو هو الرأي المضاد للذي يرفضه الناس . وكانت أساليب الجدل المستخدمة في العصر الذي تتحدث عنه هي أساليب السفسطائيين وأهل المنطق من الاغريق . كما أن المفاهيم التي تراكمت شيئا فشيئا على عناصر الايمان الاولى فحولتها الى عقائد ، كانت نابعة من الميتافيزيقـا الهيلينية وتستخدم مصطلحاتها في التعبير عن قضاياها .

ولاقى هذا التطور ، بطبيعة الحال ، ألوانا من المعارضة . فبعض الناس تعلقوا بالصور القديمة لايمان الحواريين وبسنن اليهوديـة ـ المسيحية الاولى . وكان هؤلاء، في غالب الظن ، الخلفاء المباشرين للاتباع الاول من أهل فلسطين ، حيث نجدهم يعيشون على الاخص ولفتـرة طويلة شمالي نهر الاردن في المنطقة التي لجأ اليها مسيحيو القـدس عندما هربوا من تلك المدينة على أثر الثورة اليهودية الكبرى عام ٦٦ . ولم تلبث الكنائس الهيلينية ان اتهمتهم بـ « فقر » تفكيرهم فيما يتعلق

بـ « السيد » ، وأطلقت عليهم اسم « الفقراء » تحقيرا لهم • وقـد شرحنا فيما سبق كيف بدأ الشك ، منذ عهد جوستين ، في أمر نجاتهم ، وكيف جاءت الساعة التي كان لا بد فيها للناس من أن يعتبروهم بدعة في كنيسة الله الكبرى • والحق يقال أنهم كانوا فئة من المتأخرين ، أرادوا في عناد بالغ ان يحتفظوا بمعتقدات عفا عليها الزمن وأصبحت لا تتفـق مع البيئة اليونانية • وأننا لنلمح أيضا ألوانا اخرى عنيفة من المقاومـة لمذهب « اللوغوس » الذي مهد لعقيدة الثالوث ومكنها مـن الثبات • ولكن الذين ثاروا على هذا المذهب لم يكن لهم من النجاح حظ اكبر من حظ « الفقراء » في ايقاف التيار الذي دفع بالايمان المسيحي الى انشاء ميتافيزيقا عقائدية تنمو وتتعقد يوما بعد يوم ، وتبتعد بذلك عن دعـوة الحواريـين •

ولم يكن هذا العمل الخاص بانشاء العقائد ، عند نهاية القـرن الثاني ، سوى محاولات بدائية ، الا أن اتجاهاته كانت واضحة كـل الوضوح ، وهي لن تتغير بعد ذلك تغيرا جوهريا ، فـ « الامل المسيحي » أصبح منذ ذلك الحين « دين المسيحية » ، أي : الدين الذي جعـل من عيسى المسيح آلهه الحقيقي ، وانفصل تمام الانفصال عن اليهودية ، بل تنكر لها ولعنها باعتبارها ألد أعداء الحق ، بدلا من أن يظهر نحوها عاطفة البنوة الواجبـة •

ـ د ـ

وهناك ظاهرة اخرى تبرز هذا الاستقرار للمسيحية في صورة الدين المستقل المتعصب لمبادئه ، ذلك هو النمو الرأسي والافقي المضطرد فـي الحياة الكنيسية • ونعني بهذا : نزعة الفرد المتزايدة يوما بعد يوم ، من وجهة النظر الدينية ، الى التلاشي في الجماعة والى اخضاع سائر الاعمال الجوهرية من الحياة لاشراف ، أو على الاقل لتأثير ، أشخاص هم السلطة المنظمة في الكنيسة ، ثم اخضاعها للشعائر والطقوس التي تعبر عن فعـل وجود « السيد » وسط اتباعه وتوحد بينهم حقيقة في ذاته • ويجب علينا آذ لا نسبق الزمن بالحديث عن « الشعائر القدسية » بمعناها المتعارف

عليه ، ولا أن نطبق هذا التعبير في غير تدبر على سائر التقاليد العملية في الكنيسة القديمة ، مثل تلك التي كانت تفرض بواسطة الاسقف في مناسبة زواج أو موت أحد الاتباع • ولكن الواقع أن هذه التقاليد ، بدخول الطقوس المحددة فيها ، أصبحت تتجه الى أن تكون « شعائر قدسية » ، أي عمليات سرية ينبع منها فيض من الفضل الخاص •

ولقد أوضحنا فيما سبق كيف تعقد التعميد في طقوسه ، وكيف تحدد ووضح في شعائره القدسية • وانا لنرى تقليدين قديمين من تقاليد الحياة الكنيسية يتطوران نفس التطور في كثير من النشاط ، وان لم يبلغا الهدف بمثل ما بلغه به التعميد من سرعة ؛ هذين التقليدين هما : القربان والتوبة •

فاجتماع القربان ــ الذي عرفته الجماعة الاولى ــ أصبح ، منذ القرن الثاني ، « قداسا » ، أي سلسلة منتظمة من القراءات والصلوات الجماعية والدروس والتراتيل ، تجد قمتها العليا في تقديس الاصناف الالهية وفي تناول القربان • ولم تتفق الآراء تمام الاتفاق على تحديد المعاني العميقة والخصائص الحقيقية التي كانت لهذه الطقوس في ذلك العهد البعيد من الحياة المسيحية ؛ وثارت قديما مناقشات مطولة حول القطعة من أثاث الكنيسة التي كانت تستخدم لتقديس الاصناف ، هل كانت مائدة كالعهد بها أول الامر أم اتخذت شكل المذبح ••• والظاهرة المؤكدة لدينا على أي حال هي أن القربان كان يعتبر منذ ذلك الحين « سرا » ويمكن الاتباع من المشاركة في « السيد » وفقا للمفهوم الذي سبقت له الغلبة في عقيدة بولس : فأصناف القربان ، من خبز وخمر ، ينظر اليها على أنها طعام معجز ، يجب اعداد النفس قبل تناوله اعدادا دينيا خاصا ، والا كان المآل الى التهلكة •

وفي هذه الطقوس نرى ذكرى موت الاله والايقان بفاعلية الموت في انقاذ المؤمن ، ملازمان للفكرة الاساسية القديمة التي تقول بالمشاركة في الذات الالهية بتشرب الاله ؛ لذلك كان لا بد لفكرة التضحية بدورها من أن ترتبط بها وأن تتداخل في مراسمها • كان لا بد لها من هذا لان جميع ديانات البيئة التي تكونت فيها المسيحية تأخذ بمبدأ التضحية ،

ومن العسير القضاء على مفهوم بلغ مثل هذا المبلغ من الانتشار بين الناس ، وكان لا بد لها من هذا ايضا لان فكرة التجدد الصوفي لموت الاله فكرة قد تغلغت ــ بأشكالها العديدة ــ في عبادات الغالبية من آلهة الخلاص • وكان من المتعارف عليه أن الامر لم يعد يتعلق في الحقيقة بـ « ذكرى » التضحية الاولى من أجل انقاذ البشر ، تلك التي تمت على طريق الآلام وعلى الصليب بالقدس ؛ فلو لم يكن القربان الا ذلك لما تعدى في معناه ان يكون رمزا من الرموز بل انها لتضحية حقيقية، يعود فيها الاله الى ما كان عليه ، أي : ضحية بارادته ، رغم ما يتلقاه من فروض التمجيد والتقرب • ونتيجة هذه التضحية : افاضة قوة سحرية تتولد عنها مزايا صوفية لا تحد بالنسبة الى جميع المشاركين • ولقد قيل أن هذا التصوير للقربان انما يعني ادخال « قطعة من الوثنية » في الدين المسيحي ، وعلينا ان نفهم من ذلك بطبيعة الحال : أنها قطعة من « وثنية الاسرار » •

وأدى الامر الى نتائج عملية وعقائدية تبلغ الدرجة الاولى من الاهمية • ففي العبادات الشرقية الخاصة بالآلهة الذين يموتون ثم يبعثون ، نجد أن التركيز في الطقوس يتجه حينا الى الاحتفال بموت المنقذ ، ويذهب حينا آخر الى تمجيد بعثه ؛ ولكن الاهتمام ــ على حد علمنا ــ قلما كان يوزع بالتساوي بين المرحلتين من تاريخ الاله • وفي المسيحية الاولى ، مسيحية الاثنا عشر ، كان البعث يحتل المكانة الاولى ، لأنه بدا ضمانا للأمل الاكبر ، الامل في عودة المسيح وفي انشاء مملكة الله • فلما تأخر « الظهور » واصبح تحقيق الامل غير وشيك في تفكير الاتباع ، تطورت فكرة « بعث السيد » في الايمان من ضمان لقرب حلول المملكة الموعودة الى ضمان لبعث المؤمنين يوم القيامة • وكان بولس السابق الى ذلك في عقيدته [1] • ومقابل هذا نرى القربان يسمو في معناه بازدياد التأمل وبانشاء النظريات في التجسيد وفي الخلاص عن طريق محنة صلب المسيح • وهكذا يأت بولس ــ وهو الذي يعبر عن

---

(١) انظر « الرسالة الى أهل كورينثيا » (١٥\١٢ وما يلي) .

مجمل دعوته بأنها « حديث للصليب » ــ بالاضافات الاساسية على السنن الاصلية الخاصة بآخر مأدبة لعيسى ، فيجعل منها تحقيقا مسبقا لذلك السر الذي أفصح عنه الاستاذ من خلال تعذيبه والذي فرض في القربان أن يصوره بدوره الى ما لا نهاية . وبهذا يكون القربان : العمل الشعائري المركزي في العبادات المسيحية ، والمنبع الجوهري الذي يفيض منه فضل السيد على الجماعة التي « تهتف باسمه » .

ولم يتطور القربان نحو هذه المعاني كلها الا لان عقيدتين من العقائد أخذتا بلب المسيحيين وتغلغلتا في ضميرهم : الاولى تقول بأن السيد « موجود حقيقة » في وسط الاجتماع القرباني ، وعلى اتصال مباشر ومشاركة فعلية بعباده . والثانية هي ذلك المفهوم الذي نسميه بـ « التحول » [1] والذي يعني : تحول الخبز والخمر ــ بفضل طقوس التقديس ــ الى لحم ودم عيسى ، بحيث يصبح تناول الاصناف المقدسة « تجسدا » ماديا وروحيا معا للسيد في المسيحي ، بالصورة التي أشار اليها هو نفسه باعتبارها الصورة الصالحة لاتمام السر .

ولا شك أن هذه الاحكام العقائدية لم تجد اطارها التعبيري النهائي الا بعد لأي . وأن النصوص الاولى [1] التي نلمحها فيها لا تخلو من التردد والغموض ، ولو حدث عكس ذلك ، لكان أمرا مستغربا . الا أن نظرية التحول ، في نهاية القرن الثاني ، كانت قد وحدت الحدود الاساسية لاتجاهاتها العامة ، وان لم تكتمل فيها بعد صور الاعجاز التي سوف تستخلص عناصرها من هذه الاتجاهات العامة .

---

(١) انظر في ذلك « الرسالة الاولى الى اهل كورينثيا » (١١/٢٣ وما يلي) . ولا نقول بأن بولس نفسه هو مخترع العبارة التي تنطوي في آن واحد على كل الاحكام التالية : ان الخبز المقدس هو الجسد « الذي أسلم من أجلكم » ، وأن الكأس « هي العهد الجديد في دمي » ، وانه يجب « اقامة ذلك » أي تكرار نفس الحركات والكلمات على الاصناف من خبز وخمر « تذكرة بي » . وانما نعتقد ان الاضافة الاساسية في نظرية التحول، التي تحملها هذه العبارة ، كانت من عمل المجتمع الهيلبني حيث نشأ الحواري ، وانه تلقاها باعتبارها « كلمة السيد » .

(١) جمع العلامة راوشن هذه النصوص في كتابه « التحول والتوبة »، المطبوع بباريس عام ١٩١٠ .

أما التوبة ، فمفهومها لم يتقدم ، بطبيعة الحال ، مثل هذا التقدم السريع في تلك الفترة، وان برزت أيضا واتضحت معاني ومعالم تطورها.

والامر هنا لا يتعلق بالتوبة التي قد يقيمها الآثم في خاصة نفسه عند الندم على خطاياه ، ولا بالتأدب الاخلاقي الذي يترتب لديه على ذلك ، فهذا واجب على كل المسيحيين ، بل هو الاساس الاول لاخلاقهم العملية منذ قيام عيسى بدعوته . ولكن خروجهم عن جادة الفضيلة ما لم يفتضح ويصبح أمره معلوما للمجتمع فهو من خاصة الضمائر ولا يعني الا أصحابه . والامر يختلف كل الاختلاف عندما يظهر المؤمن على الملأ من اخوانه خطايا تنم عن ضعف النفس وتثير الشك في أمر نجاته كما تعتبر قدوة سيئة لهؤلاء الذين لم يستقر الايمان في نفوسهم كل الاستقرار . لذلك شعرت الجماعة في زمن مبكر بأنها ملزمة بواجب مزدوج تجاه الآثم الذي يظهر أثمه : واجب الارشاد بالنصيحة الاخوية ، ثم واجب اتخاذ الحيطة حتى لا يظلم هذا الآثم سوى نفسه . وترتب على ذلك : الالتزام بانشاء تنظيم كنسي يضمن اصلاح الامر في حالة الآثم الظاهر ، وفصل الآثم المفضوح عن المجتمع ثم استعادته عندما يأتي بالدليل المرضي على صلاحه من جديد . وما لبث هذا التنظيم ان اتخذ صورة سلسلة من الطقوس ، سائرا في ذلك وفق النزعة العامة التي نزعتها جميع أعمال الكنيسة . وكان من المحتم أن تتطور اجراءاته نحو الاشتمال على معاني وقيم الشعائر القدسية ، بسبب الاهمية التي أضفيت عليه شيئا فشيئا في الحياة المسيحية بالنسبة الى المذنب والمجتمع على حد سواء ؛ فأصبح فرضا محتما على التائب من الذنب يتيح له استعادة قدرته على أن يتلقى من جديد ذلك الفيض المنجي الذي هو دعامة مجتمع « القديسين » .

وفي نهاية القرن الثاني بلغ تنظيم طقوس التوبة من النمو والتحديد مبلغا كبيرا . الا أنه يبدو أن مفاهيمها اللاهوتية القدسية لم تكن قد أخذت بعد في البروز حقيقة . ولكنه من المؤكد لدينا أنها اصبحت منذ ذلك الحين أمرا لازما في نظر المسيحيين ، وأنها كانت موجودة ضمنا في الطقوس التي اتخذتها السلطات الكنيسية لـ « الحل » أو « العقد »

على الارض وفي السماء على حد سواء .

وأن النصوص التي ترجع الى بداية القرن الثالث ، والتي درسناها في غير تحيز ، لا تشير البتة الى أثر للشعائر القدسية الاربعة الاخرى التي سوف تتحدد في الكنيسة بمرور الزمن ، وهي : التثبيت (في الدين) والتنصيب (في الوظيفة الكنسية) ، والزواج ، والمسحة الاخيرة بالزيت المقدس (للموتى) . ولا نعني أنه يستحيل علينا ، نحن ، أن نلمح بذور هذه الشعائر بين مختلف التقاليد التي اتخذت منذ ذلك العصر في طقوس الكنيسة ؛ ولكن المسيحيين لم يكونوا ليدركوا بعد مفاهيمها .

ومنذ ذلك العصر والمسيحية دين أصيل : له عقائده ومراسمه وتنظيماته ، التي تحددت أسسها الجوهرية واتجاهاتها العامة المستقبلة ، وان لم تكن قد خرجت بعد من طورها البدائي . وتلك العقائد والمراسم والتنظيمات لم تنشأ بفعل قوة ذاتية مفطورة فيها ، بل هي على العكس تكونت بفضل نوع من التأليف تعاونت عبادات الشرق – من يهودية وأديان ذات اسرار – مع الفكر اليوناني في تزويده بجميع عناصره. وانها ايضا لعقائد ومراسم وتنظيمات سوف تتطور ، حسب ما يفرضه عليها المستقبل ، بنفس الاسلوب التأليفي . وسوف تستقي وتتغذى يوما بعد يوم ودون انقطاع من كل ما يحويه العالم اليوناني – الروماني من اتجاهات دينية حية باقية ، وأن تم ذلك في كثير من التردد عند الاختيار ومن الجدل عند التطويع . وكانت هذه العملية عملية « لاشعورية » بالتأكيد ، ولكنها استمرت في صبر ومثابرة ، حتى أتى يوم اتضح فيه للعيان تهافت سائر الجماعات الدينية التي امتص منها الايمان المسيحي والشعائر المسيحية جوهر ما كانت تعتمد عليه من قيم ومفاهيم .

الفصل العاشر

النزاع بين المسيحية وبين الحكام والمجتمع

أ ــ كيف عرقل هذا النزاع من انتشار المسيحية ــ المسئوليات ــ ما رفضه المسيحيون وما فرضه عليهم الحكام ــ التعارض بين المسيحية وبين المجتمع ــ المسيحيون أمام الرأي العام ــ أهمية الرأي العام بالنسبة الى المسيحية من الناحية العملية •

ب ــ وجهة نظر الحكام تتضح وتثبت خلال القرن الثالث : المسيحية تعتبر ضربا من ضروب الفوضوية ــ الاباطرة الذين اضطهدوا المسيحية ــ لماذا فشل الاضطهاد ــ كيف مهد هذا الاضطهاد السبيل للتحول الحاسم في الدولة وفي المجتمع ــ الحل الوسط الذي جاء به قسطنطين ومرسوم ميلانو ــ الاسباب ــ الشروط المفروضة وما تميزت به من عدم استقرار •

ج ــ تنازلات الكنيسة ــ حدودها ــ موقف قسطنطين لم يكن بالموقف الذي يمكن التمسك به والثبات عليه ــ أسباب ذلك ــ كنيسة الدولة في نهاية القرن الرابع ــ تهافت الوثنية ــ مقاومة الطبقات الارستقراطية أهل الريف وكيف كانت مسيحيتهم ظاهرية فحسب •

ــ أ ــ

تأخر انتشار المسيحية فترة ما ، وبدت الديانة الجديدة وكأنها آخذة في سبيل التدهور بسبب العداوة العنيفة التي أظهرها تجاهها المجتمع الوثني وحكومة روما ، تلك العداوة التي اتخذت لها ثوبا مما

نسميه بـ « الاضطهادات [1] » .

وكان لكل من الطرفين في النزاع بين الكنيسة والدولة قسطه من المسئولية . فمسيحيو العهد الاول آمنوا بأن نهاية العالم وشيكة الوقوع، وتطلعوا بآمالهم الى يوم القيامة ؛ فقل بطبيعة الحال اهتمامهم بواجبات وهموم الحياة الدنيوية ، وأصبح حب مملكة القدس السماوية في قلوبهم يضر بمصالح الوطن الروماني بصورة واضحة : كانت الخدمة العسكرية مثلا بغيضة اليهم لانها تنطوي على فروض وثنية ، ثم لانهم كرهوا الحرب وما يعاني الناس منها ؛ وبدت لهم مشاركتهم في الخدمة المدنية وكأنها شيء لا جدوى فيه . ثم أصبحوا يرفضون في عناد ــ على الاخص ــ الاسهام في كل مظاهر التأييد التي كانت تطلبها حكومة الامبراطورية احتجاجا على طابعها الديني الوثني العام . وكان ضميرهم الديني حساسا بالغ الحساسية يضطرهم الى الرد بـ « عدم الاستطاعة » على الكثير من المتطلبات العادية للحياة المدنية العامة . ولم تكن الدولة الوثنية لتستطيع التسامح ازاء موقف هؤلاء القوم الذين ازداد عددهم يوما بعد يوم ، والذين أصبحوا وكأنهم يتخذون شعارا لهم من عبارة ترتوليان المشهورة : « اني قد اعتزلت المجتمع » .

ولا ندعي هنا أن المؤمنين جميعا وقفوا من واجبات الحياة العامة ذلك الموقف المتعصب الشديد التعصب الذي وقفه اناس من أمثال ترتوليان ؛ فهذا الداعية العنيف من دعاة المسيحية يعترف في كتاباته بوجود مسيحيين بين الجد وفي وظائف الدولة ؛ غير أن اخلاص هؤلاء الصامت لم يكن ، في نظر الحاكمين ، ليغفر لذنوب المسيحيين المتحمسين ولتصريحاتهم التي لم تتصف بالتعقل ، ثم لمظاهراتهم السافرة ولاعلانهم موقفهم الذي اتخذوه في غير ما ترو أو مهاودة ؛ فكانوا العنوان السيء للجماعة كلها ، لان الحكام لم يروا غيرهم ولم يواجهوا في المحاكم الا أنماطا منهم .

---

(١) كانت الاضطهادات التي لاقاها المسيحيون موضوع دراسات عديدة . وعلينا ان نشير في هذا الصدد الى ان كتاب «تاريخ الاضطهادات»، لمؤلفه بول الازار ، يفتقد الى روح النقد العلمي ، وان كان ذائع الصيت بين الاوساط المسيحية الكاثوليكية .

ومن ناحية اخرى ، كانت الدولة متسامحة حقيقة وبصورة واسعة تجاه الديانات غير الرسمية ؛ الا أنها كانت تضع لهذا التسامح حدودا تراها ضرورية من أجل الحفاظ على مقومات الحكم . مثال ذلك ما فرضته على سائر تلك الديانات من الاحترام لدين الدولة ؛ بحيث تستطيع أن تطلب من كل مواطن ، في أي مناسبة ، الابانة عن وطنيته في يمين علني باسم الامبراطور المؤله ، وبالمشاركة في القرابين المقدسة الى « مقامه الاعلى » . ثم كانت على حذر شديد من الخرافات التي « تضلل نفوس البشر الضعيفة » .وقد رأت في المسيحية خرافة من هذه الخرافات، وصفها يلين بأنها « لا صورة لها ولا حدود » ؛ اذ جاءت الى العالم الروماني من الشرق ، حماسية وصوفية غريبة كل الغرابة عن سائر ما تعود الرومان أن يسموه بالديانات ، لا معابد لها ولا أصنام . وكانت الدولة ، اخيرا ، تتوجس خيفة من الجماعات السرية ؛ وكان القائمون بأمور الأمن فيها يعلمون تمام العلم أن المسيحيين يجتمعون ليلا دون طلب الاذن اللازم لذلك .

أما المسيحيون ، فكانوا لا يقبلون أن يعتبر الناس جرما ما يقومون به من التحايل على كيد الشيطان الذي يتخذ مظاهر الاصنام ، أو مقاومة ما يوحى به ، ومن التضحية بكل شيء في سبيل الله والاجتماع من أجل تمجيده والصلاة له . وكان ضميرهم يعارض بقوة قاهرة ما تطلبه الدولة من التزامات وما يفرضه القانون من واجبات . وعبر « ترتوليان »أيضاعن شعور صفوتهم في قوله : « ليس الانسان ملزما باحترام شريعة ظالمة » . وكان الضمير المسيحي ، بطبيعة الحال ، هو الحكم في صلاحية كل قانون . ولم تكن الدولة لتتقبل مثل هذا التحرر .

وظهر التعارض بين وجهات النظر في علاقات المسيحيين بالمجتمع مثلما ظهر في علاقاتهم بالدولة : فهم لم يحترموا لهذا المجتمع ما كان يتمسك به من آراء ثابتة ومن تقاليد ، بل ومن مبادىء . وكان رجل مثل ترتوليان (الذي عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث) يصور الزواج والتكاثر على أنهما ضعف يرثي له أمام الغرائز الجسدية ؛ ولم يكن يجد خيرا الا في القيم الروحية ، مهاجما للملذات الدنيوية ،

محطما للفروق الاجتماعية ، جامعا بين السيد والعبد في ايمان واحد ، ملقيا على سائر أوجه هذه الحياة الدنيا بجماع احتقاره .

ولم تخل جماعة المسيحيين بطبيعة الحال من قوم مسالمين ، يبدون الاستعداد الكافي للتوفيق بين عقيدتهم وبين الحياة الاجتماعية العامة ، ولا تنطوي ضلوعهم على حب التضحية والاستشهاد . غير أن عامة الشعب كانت ، على عادتها ، لا ترى من الكنيسة الا هؤلاء الاشخاص الذين يفرضون أنفسهم على الجمهور بالضجيج والمعاندة . وكان الوثنيون من الطبقات الممتازة يرون في تصريحاتهم الثورية خطرا على أنفسهم وعلى ما يتمتعون به من امتيازات .

ولهذا نرى الدولة والمجتمع على حد سواء لا يستطيعان ادراكا لما انطوى عليه التعصب المسيحي من سمو ، فيشعران تجاهه بالغضب الشديد ، ويذهب الشعب الى اظهار كراهيته العنيفة فيلقي على طائفة المسيحيين بكل ما اعتاد أن يلقيه على اليهود من مسبة ، بينما يعمل أصحاب السلطان على اضطهادها . وفي نهاية القرن الثاني أصبحت المشكلة في وضع لا يمكن فيه الوصول الى حل لها الا بالقضاء على أحد طرفيها . وبدت المسيحية حقيقة وكأنها لا تستطيع دفاعا أمام هجمات السلطات الحاكمة بكل ما يدفعها ويدعمها من رأي عام يكاد يكون ممثلا لجميع فئات الشعب : فالمثقفون كانوا يحتقرون المسيحيين ، سواء رأوا فيهم يهودا منحرفين أنكرتهم معابدهم ، أو أصحاب عقيدة لا تستحق تحمل مشقة دراستها . وعامة الناس كانوا يكرهونهم لغرابة أسلوب حياتهم ولبشاعة ما أشيع عن اجتماعاتهم من اخبار [1] .

وكانت هذه الكراهية التي اتخذت صورا عنيفة السبب الاول الاساسي للاضطهادات . وكانت السلطات تتدخل لتهدئة الشعب ولارضاء عواطف الجماهير العمياء ، فتقدم للمحاكمة اناسا لم تكن لتهتم بأمرهم لولا ذلك حيث كانت تعلم تمام العلم أن خطرهم ليس بذي بال ، وأن

---

(١) كان أصحاب النيات السيئة يلقون عليهم بالتهم التي وجهت من قبل الى اليهودية : من التضحية بالاطفال ومن اجتماعات سرية تهدف الى التحلل الخليع وتصاحبها أعمال مشينة مقززة .

تعصبهم الديني لا تصحبه طقوس دموية ولا فضائح خلقية كالتي تنسبها اليهم الاشاعات المهولة ، وان كانوا يستحقون اللوم والتأنيب على هذا التعصب • غير أن رفض المسيحيين أقامة الشعائر « باسم ألوهية الامبراطور » وامتناعهم عن تمجيد صورته باحراق البخور أمامها ، أدبا الى اتهامهم بالتآمر عليه ، وهو اتهام كان الحكم فيه ، اذا ثبت : القتل • لذلك نقرأ عن بعض الشهداء خلال القرن الثاني ، وخاصة في آسيا الصغرى في عهد تراجان ، وفي مدينة ليون تحت حكم مارك أوربل عام ١٧٦ [٢] •

— ب —

ولم تتنبه الدولة كل التنبه الى الخطر الاجتماعي الذي تشكله المسيحية الا خلال القرن الثالث • ولكنها صارت تنظر اليها عندئذ على انها نوع من الفوضوية • ولقد ظهرت أعنف أنواع العداوة للكنائس المسيحية لدى أحكم الأباطرة وأكثرهم اخلاصا لواجبات منصبهم ، أي — حسب التعبير الحديث — أكثرهم وطنية • فنجد رجال من امثال : ديس ، وفاليريان ، وجالير ، وديوكليسيان ، يعقدون النية الصريحة ، في النصف الثاني من ذلك القرن ، على القضاء قضاء مبرما على الكنيسة والاكليروس وكل أثر للدين الجديد ، فيحملون الناس على الأرتداد عنه ، مستخدمين التعذيب أو التهديد به • ولم يتورعوا في سبيل تحقيق اهدافهم عن أقسى وسائل العنف ، بل وعن القتل في كثير من الاحيان • وكانت هناك تهم مدنية عديدة توجه في آن واحد الى المؤمنين لتهويل الامر عليهم نذكر منها : الانتساب الى دين غير مشروع ، والانتماء لجماعات سرية ،والتآمر على الحاكم ، ورفض اطاعة الاوامر — ان كانوا جندا — ، والتهرب من واجبات الحياة العامة والخاصة ،بل وممارسة السحر • وعلى أي حال ، فأن سائر التهم كانت تتميز بقابليتها للتلاشي التام عندما يعلن المتهم

---

(١) وانا لنترك جانبا ما سمي ب « اضطهادات نيرون » ، اذ يبدو انها لم تكن سوى نوع استثنائي من استخدام عواطف الجماهير لتحويل شبهة احراق روما ، عام ٦٤ ، عن الامبراطور .

المسيحي تخليه عن عقيدته . وهذا يدل دلالة صريحة على أن الغـرض من كل الاجراءات القضائية لم يكن في الواقع سوى القضاء على الديانة المسيحية ذاتها ولا شيء غيرها . وقد ظن البعض أن هذه الديانة حرمت بقانون خاص منذ عهد نيرون تحريما قطعيا لا لبس فيه ، وثار جدل حول ذلك . ولكن الامر لا يزال في حاجة الى الدليل الشافي ، وان كنـا لا نستبعد امكان وقوعه . وفي الحقيقة ، كانت الاجراءات تسير وكـأن الاعتراف باعتناق المسيحية يفترض في حد ذاته جرائم يعاقب عليهـا بالقتل . وكانت الاساليب القضائية لدى الرومان تتصف على وجـه عام بالقسوة . وبلغت في ذلك أبعد حد بالنسبة الى قضايا المسيحية ، لان القضاة كانت لهم اليد المطلقة في تقدير العقاب على من تثبت عليه تهمة التآمر ضد الحاكم . وقد استخدمت اكثر وسائل التعذيب وحشية لحث المسيحيين على الارتداد . وكان لمزاج القضاة الشخصي بطبيعـة الحال أثره في تخفيف ألوان التعذيب أو ، على العكس ، في الزيادة من عنفهـا .

ولحسن حظ المسيحيين ، اتصفت مجهودات الحكام ضدهم دائما بعدم التناسق وبالتردد في بعض الاحيان ، ولم تكن شاملة لكل أنحـاء الامبراطورية ، حتى في أحلك أيام عهد ديوكليسيان ، وكذلك لم تطـل الفترات التي اشتدت فيها ، بحيث استطاعت الكنيسة دائما ان تلم شعثا على أعقاب كل محنة من المحن التي مرت بها . وكان للاضطهاد ولا شك آثاره التي تجلت في كثرة الشهداء ، بين صفوف الجماهير المسيحية المؤمنة لم يحقق الا ضروبا من الردة المؤقتة ، وكان ينتهي أحيانا الـى حماس ديني ينتشر بين الناس . وكثيرا ما ترددت كلمة « ترتوليان » المشهورة التي رمى بها تحديا في وجه المضطهدين : « بذور المسيحية في دم الشهداء المراق » وقد تحققت هـذه النبوءة في الواقـع ، وان سير الشهـداء التي حفظت حتى عصرنا هذا لتصور لنا حالات كثيرة غريبة من التحمس الديني الجماعي . وكانت الكنيسة وعلى الاخص في الفترات التي تتخلل أزماتها ، تستغل في نشر دعوتها مفهوم استشهاد الشهداء من بينها .

وفي بداية القرن الرابع ، عقب فشل الاضطهادات التي قام بهـا ديوكليسيان ، استطاعت الدولة أن تدرك أن المسيحيين أصبحوا كثرة

لا جدوى للعنف في القضاء عليها • ومن ناحية اخرى كانت المشكلة ــ أن بحثت بحثا صحيحا ــ قد اتخذت وضعا يختلف في نظر هذه الدولة عن وضعها خلال القرن الثاني • ذلك أن المسيحية لم تعد في هذا العصر دين صغار الناس والطبقات الدنيا من المجتمع : فلقد أنضم اليها أشخاص من مختلف الطوائف والمستويات الاجتماعية • وبازدياد جماهير المؤمنين نشأ نوع من التوازن المطمئن في رحاب الكنيسة ، اذ كف اعضاؤها عن ترقب نهاية العالم بين نهارهم وليلهم ، وأصبحوا يطوعون أنفسهم على قبول العادات بل والآراء الشائعة،ودخلوا أفواجا في الجيش وفي الوظائف العامة ، دون أن يعارض الاكليروس في ذلك • ورأى الناس أن الخلق والصبر المسيحيان يدعمان من سائر المبادىء الاجتماعية • وقبل كل هذا ، كانت جماعة المسيحيين تظهر للدولة فيصورة تسر الناظرين ،صورة الهيئة الموحدة المنتظمة ، التي يقودها رؤساء ذو نفوذ مطلق ، ويتمثل فيها النظام المؤسس على حكومة معتمدة منسقة ، كما تظهر لديها الروح السياسية • وأخيرا ، فقد تلاشت شيئا فشيئا الآراء المسبقة التي شاعت بين العامة خلال القرنين الاول والثاني ضد الحياة المسيحية ، بعد أن اتسعت الكنيسة ــ بفضل بعض عهود التسامح ــ فأصبحت مضطرة أكثر من ذي قبل الى ان تحيا جوانبا من حياتها في وضح النهار •

وأصبح من المحتمل بعد ذلك أن يفكر الناس في سبل التوفيق بين أطراف النزاع •

وهيأت الظروف الحل الوسط ، كما ساعدت على الاسراع به : فقد انتهى الامر بالامبراطور جالير ــ وكان أشد المضطهدين للمسيحية حماسا ــ عام ٣١١ ، أن تكشف له عقم جهوده ، فاضطر الى التراجع أمام العقبات التي أثارها لحكمه عناد الكنيسة الهائل ، واستسلم لفكرة التسامح مع المسيحيين ، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة • ورأي المسيحيون ــ وكانوا على حق فيما رأوا ــ أن تصريحه بالتسامح معهم كان اعلانا لانتصار جماعتهم • ثم اصبح موته مجالا لتنافس عدد كبير من طالبي الحكم الذين حاول كل منهم استرضاء الانصار وكسب أكبر قدر من التأييد بين طوائف الشعب المختلفة • وكانت تلك فرصة ذهبية

للكنيسة تستطيع أن تبيع تأييدها ، معتمدة على ما تملكه من قوى وعلى عالميتها التي تجعل منها حليفا يعتز به كل طالب للحكم . وكان أحد المتنافسين على العرش ، وهو قسطنطين ، رجلا موثوقا به لديها ، بل رجلا سبق له تقديم الدلائل على نيته الحسنة تجاه المسيحية . ولم يكن قسطنطين قد تحول بعد الى المسيحية . غير أنه كان ذا فكر تأليفي واسع الآفاق ؛ وكان ــ مثله في ذلك مثل أبيه قسطنطين كلوروس الذي يروي أنه تجاهل ، خلال ولايته لبلاد الجول ، آخر قوانين الاضطهاد ــ كان يوفق في رحاب ضميره بين احترامه لدين الاجداد العتيق وبين خوفه من اله المسيحيين . ثم كان ، بالاضافة الى ذلك ، يصل الكثير من القسس الذين اعتادوا التردد على أبيه ، ويدرك مدى استعدادهم لمؤازرة الحكام، ويعرف تمام المعرفة أنهم ليسوا بالذين يرفضون ــ في الواقع العملي ــ التنازل للدولة عن أهم ما تطلب منهم التنازل عنه في سبيل الحفاظ على مقومات الحكم ، وان تمسكوا في قوة بعد ذلك بالمبادىء التي أنشئت عليها المسيحية القديمة . ولاحظ ان الاضطهادات لم تفشل فحسب ، وانما أدت الى اضطراب خطير في الحياة العامة : فالعداوة التي أظهرها الشعب في سابق العهود تجاه المسيحيين لم تعد بذات موضوع بعد أن تكاثروا وتعافوا بالمجتمع وأصبحوا يعيشون عيشة الناس جميعا . وعلم بثاقب فكره أن الكنيسة تشكل قوة نشطة غاية في النشاط ، وأن سائر الحكام الذين قاوموها قد وقعوا في شر أعمالهم . وأخيرا ، فقد نمى اليه أن منافسه « ماكسانس » كان يدعم قوى جنده الوافر العدد الشديد البأس بتأييد سائر الآلهة الوثنية الذين أقام لهم الصلوات وذبح لهم الاضاحي ؛ بل ونمى اليه أيضا أن هذا الامير نفسه كان يستعين بالسحر والسحرة .

فلم يبق لقسطنطين الا أن يستعين بالمسيح .

ولعل الرغبات التي صبت اليها نفسه والآمال التي عقدتها قد تجسمت له جميعا في صورة رؤى أو تهيؤات تحددت معالمها بعد ذلك عندما أراد روايتها للناس . وعلى أي حال ، فقد انتصر على منافسيه ، وظن أن في انتصاره فضل للمسيح . واجتمع له من عرفان الجميل والايمان وحسن التدبير السياسي ما أوحى اليه عام ٣١٣ بمرسوم ميلانو،

ذلك المرسوم الذي افسح مكانا لاله المسيحيين بين آلهة الدولة المعترف بهم ، والذي أراد أن يجعل جميع الاديان متساوية في الدولة ، على أساس حرية الضمير • غير أن الكنيسة ، في الواقع ، لم تكن لترضي بمثل هذا الحل ، ولم تكن الدولة لتستطيع الصمود على موقفها الذي أراده لها قسطنطين بمرسوم ميلانو •

— ج —

وكانت الكنيسة المسيحية قد اضطرت،بحكم تطور الظروف وبحكم شعورها العملي بواقع الحياة ، الى التنازل عن شيء من تعصبها وحزمها• أمام متطلبات المجتمع • غير أنها لم تتنكرفيسبيل ذلك لمبادئها : فقد كانت تظن نفسها مودعا للحقيقة الالهية وتنظر الى كل وثني وكأنه عميل للشيطان • لذلك بدت لها فكرة المساواة مع الوثنية مسبة ليس بعدها مسبة ، ولم تخضع لها الا مضطرة كارهة • وعلى أي حال ، فلم يكن هناك داع يدعوها الى أن تكف عما دأبت عليه من امتصاص لباب العقائد الوثنية وافراغها منه ، ما دامت تجد في ذلك صلاح امرها • وكانت الدولة من ناحيتها لا تستطيع التخلص من التقليد القديم الذي يفرض الارتباط بين الوطن وبين الدين • وكذلك كان الصالح العام يبدو وكأنه يستلزم سيطرة الحكومة التامة على الخلافات التي لا بد لها من أن تنشأ عن تنازع الاديان ، وأن يكون عدم تحيزها مرتبطا بحياد مطلق • غير أن الحكام لم يكونوا محايدين ، بل لم تلبث قوى المسيحية ، التي ضاعفها الانتصار ، أن جرفتهم في تيارها وملكت عليهم امورها ؛ وأغراهم رجال الاكليروس بالتدخل في شئون الكنيسة الخاصة رغم معارضتهم بعض المعارضة ، وحصلوا منهم على امتيازات عديدة ، وأشركوهم في الاهتمام بنجاح دعوتهم •

ومنذ نهاية عهد قسطنطين أصبح من المحتمل وقوع الاتحاد بين الكنيسة والدولة ، وتغلب المسيحية التام على الوثنية ، والقضاء على الثانية برضاء الدولة ، بل وبمساعدتها ان اقتضته الظروف ذلك • الا أن هذا الامر الذي تم تحقيقه خلال القرن الرابع ، تأخرت بعض مراحله :

ولم يكن السبب في ذلك راجعا الى الكنيسة التي لم تلبث ان تعودت على وجوب معاونة الدولة لها في معركتها ضد البدع والوثنية ، غير مدركة أنها كانت تدفع بنفسها الى طريق الخضوع هي الاخرى لسلطان الحاكمين المطلق ؛ ولكن التأخر أتى من تولي بعض الاباطرة ــ أمثال جوليان الذي كره المسيحية ، أو فالنتينيان الذي أراد في اخلاص حفظ التوازن بين المسيحية وبين الأديان الاخرى ــ فقاوموا تيارها المندفع . وفي عهد تيودوز وصلت المسيحية الى نهاية الشوط من أغراضها ، اذ أصبحت دين الدولة الوحيد ، وذلك بفضل جهود القديس امبرواز أسقف ميلانو وهو أول رجل عرفته الكنيسة [١] .

ولا شك أن الوثنية لم تتلاش دفعة واحدة ، ولكنها لم تظهر سوى مقاومة هزيلة غير منسقة أمام هجمات الكنيسة المتوالية في انتظام وأمام الحماس الصاخب لدى بعض الاساقفة والقسس الذين خصصوا كل حياتهم لمطاردتها أنى وجدت . وضعف أمر الوثنية لانها فقدت تأييد الحاكمين فافتقرت الى القيادة الموحدة وتشتت أنصارها فرقا اختصت كل واحدة منها بعبادة معينة ؛ ثم صنعت أيضا ، وعلى الاخص ، لان أكثر أنصارها عنادا كانوا يختلفون في نظرتهم اليها اختلافا كبيرا في غالب الاحيان ، فلا يشعرون بروح التضامن فيما بينهم عند محاولة الدفاع عنها .

وكانت الطبقات الارستقراطية في المدن الرومانية القديمة ، وعلى الاخص روما نفسها ، تتعلق بالشعائر العملية من أديانها أكثر من تعلقها بالمعتقدات ذاتها ، معتبرة أن تلك الشعائر عنصر من عناصر التقاليد العائلية الموروثة لا يمكن فصله عنها . ولم يكن الاعجاب بماضي الوطن واحترامه ليقعا حقيقة الا في الاطار نفسه الذي شاهد وقائع هذا الماضي المجيد . وكانت هاتان العاطفتان تشكلان نوعا من الديانات القوية ، اذ كانتا مرتبطتان بشرف النسب وشرف سلالة أبطال العهود الماضية ؛ ثم كانتا ، في حد ذاتهما عاطفتين جديرتين بالتقدير ، ولا يمكن

---

(١) انظر كتاب بواسيه : « نهاية الوثنية » ، المطبوع بباريس عام ١٨٩٤ في جزئين .

النيل منهما مباشرة • هكذا مثلا كنا نرى أميرا مثل توكسوسيوس ، الذي تزوج من باولا ، يؤمن بأنه يجب عليه التمسك بوثنيته لزعمه الانتساب الى اينيوس جد الرومان •

وكانت جوانح الكثير من هؤلاء الارستقراطيين تنطوي على عقيدة تبلغ من العمق والاخلاص مبلغا بعيدا • وقد عبر عنها أحدهم ، وهو المحافظ سيماك ، في تقرير له يطلب به ، عام ٣٨٤ ، اعادة اقامة تمثال قديم لآلهة النصر كان الامبراطور جراسيان رفعه في العام السابق من قاعة اجتماعات مجلس الشورى الروماني • وتلك العقيدة هي القائلة بأنه من الخير للناس عدم التنكر لتقاليد دينية أثبت الزمن فاعليتها • وكان سيماك يشرح في تقريره المذكور كيف عاشت الجمهورية حياة خصب وأزدهار في ظل آلهة الاجداد، ثم كيف طرأت عليها الفتن والمحن وتهددتها المخاطر عندما ضعف أيمان الناس بآلهة وطنهم • وهذا برهان ضعيف المنطق ولا شك ، الا أنه كان برهانا عاطفيا لا يحتاج الى قوة المنطق ليقنع الناس • فلما استولى ألاريك على روما عام ٤١٠ ، ارتفعت من صفوف الوثنيين الذين حافظوا على قوميتهم صرخة قوية ضد المسيحية ؛ وحاول القديس أغوسطين بكل جهده أن يهدىء من آثار تلك الثورة ، وكتب في سبيل ذلك مؤلفه المعروف « مدينة الله » •

ولنضف هنا أن المبدأ الاصيل في المسيحية ، مبدأ المساواة ، لم يكن ، مهما اتخذ من حيلة في مراحل تطبيقه ، لم يكن ليغري في قليل أو كثير رجالا حافظوا على شيء من الاعتداد القديم بـ « العائلات » المؤصلة الكبيرة ؛ وكانت اطاعة الاسقف« الذي قد يأتي من أدنى طبقات الناس »، بالنسبة اليهم ، أمرا عجبا •

غير أن هذه المقاومة انهارت شيئا فشيئا لاسباب عدة ، منها : أن طوائف الاريستقراطية • وأعني بذلك أنها كانت تظهر اعجابا ، تتغلب فيه أمام تنكر الحاكمين المتزايد لاصحابها ؛ وأن الايمان بالتقاليد الموروثة أيسر انهزاما في النهاية من العقيدة الدينية الحقيقية ــ ولم تعد مثل هذه العقيدة الدينية الوثنية توجد لدى هؤلاء الارستقراطيين الا بصفة

استثنائية [1] ، ثم أن محن الدهر ، وخاصة خلال القرن الخامس ، دعت بالكثير منهم الى حياة الزهد ، تلك الحياة التي تتفق كل الاتفاق مع المسيحية وان لم تختص بها ، والتي أزدهرت ونمت خلال ذلك العصر بالذات في صورة الترهب ؛ وأخيرا : فأن السيدات من طبقة النبلاء لم يلبثن أن جذبتهن اليها روح التصوف والزهد التي شرحها لهن رهبان امتازوا بالحماس وحسن الحديث.وانا لنجد اسمى الامثلة من المسيحيين بروما ، حوالي نهاية القرن الرابع، في شخصيات : ميلاني ، وياولا وبناتها، وكن من صفوة سيدات المجتمع الرفيع ، دفعهن ايمانهن الملتهب الى الابتعاد عن هذه الحياة الدنيا ليعشن حياة الزهد ثم ليرحلن في النهاية الى فلسطين ، الاولى برفقة الراهب روفين ، والاخريات يصحبهن الراهب جيروم .

وبالاضافة الى اريستقراطية الدم ، كانت هناك اريستوقراطية الفكر التي رفضت رفضا طال أمده أن تنضم الى المسيحية ، بل تظاهرت بتجاهلها لهذا الدين في كثير من الاحيان . وكان الايمان بالتراث الهيليني يحل لديها محل التقاليد العائلية التي اعتمدت عليها الطائفة الاولى من الطوائف الارستقراطية ، ان لم تنتظم في حزب سياسي ، فلا قوة لها العاطفية على الروح الجمالية ، بالادب والفكر اليوناني . ولما كانت الثقافة الهيلينية في الواقع مشربة تماما بالوثنية ، فلا غرو ان بدت لهم مرتبطة ارتباطا لا انفصام له بالاحترام التقليدي للأساطير القديمة وآلهة الاجداد. وعلى أي حال فأن الفلسفة الافلاطونية الجديدة كانت قد تطورت تحت تأثير بورفير وجامبليك على الاخص ـ الى نوع من التأليف الواسع النطاق ، تتجاور فيه الميتافيزيقا مع علم اللاهوت وتعاليم « الاسرار » ، فييسر للفكر جميع الاساليب اللازمة لتفسير الاساطير أو الاعلاء من مفهوم الآلهة . وان « الاسرار » نفسها ، التي لم تنقرض العبادات الخاصة بها ، قد أضفت على هذا التأليف المتسع الابعاد عاطفيتها الحسية

---

(1) وانا لنرى ان أجدر هذه الاستثناءات بالاهتمام هو المثل الذي تعرضه علينا شخصية برتيكستاتوس ، وكان موظفا من كبار الموظفين خلال النصف الثاني من القرن الذي نتحدث عنه ، وعالما مقتنعا بعلم اللاهوت ، وقسا مخلصا لعبادات متعددة .

وآمالها وسلواها • غير أن وفرة العناصر الخصبة تؤدي في بعض الاحيان الى الخسران عندما ينوء كاهل الانسان بكل تلك المفاهيم فلا يستطيع التمتع بها ان لم يسيطر عليها • وفي حالتنا هذه : اختلط الامر على الناس فلم يعودوا يميزون بين العدد العديد من التصورات ، والعقائد والنظريات ، والرموز ، والعبادات العملية ، والتقاليد ، ولم يقدروا على جمعها في دين واحد صحيح • وقد حاول البعض ذلك ، مثل الامبراطور جوليان ، فلم يصلوا الا الى ضرب من ضروب التقوى الشاملة ، لا نشك في اخلاصهم لها ، ولكن لا مناص لنا من وصفها بالغموض والابهام وبأنها كانت تقوي شخصية فحسب لا يمكن القيام بنشرها بين الناس ، حيث كان كل فرد يختارمن المادة الدينية المتراكمة أمامه ما يناسب مزاجه، ليصنع منه الدين الذي يراه • وأقصى ما وصل اليه الامر كان انشاء « مدارس » فلسفية • ولكن تلك المدارس لم يكن لها من الانسجام ولا من التهاب الايمان المنتشر ما كان للكنائس المسيحية • لذلك لم يلق الامبراطور جوليان أي قسط من النجاح عندما حاول خلال عهده القصير (من عام ٣٦٠ الى عام ٣٦٣) ، أن يحيي العبادات القديمة •

وكان « المرتد » (أي جوليان) ، تقيا مخلصا لتقواه ، وهيلينيا متعصبا للتراث اليوناني ، ولكنه كان بعد ذلك فيلسوفا غامض الفكر لا تستطيع نظرياته التأليفية أن تفرض نفسها كمقيدة قوية ، وهي التي جمعت من أشتات لا انسجام بينها حول عقيدة تأليه الشمس باعتبارها مركز الكون • وقد عبر بنفسه في حماس دافق وفي شيء كثير من البراعة الفكرية عن كراهيته العنيفة لـ « الناصريين » • الا أن روحه السفسطائية كانت قاصرة عن لم شعث معتقداته في صورة يستطيع بها القضاء على التفكير المسيحي ، وكذلك كان تدبيره السياسي قاصرا ، رغم جهوده المتعددة ، عن استخلاص كنيسة كبرى وهيئة اكليروس قوية من بين أشتات رجال الدين والعبادات المتباينة في كل تلك الديانات التي أراد توحيدها ، بل اضطرته الظروف الى محاولة تأسي خطى المسيحية ، ولكنه لم يبلغ في ذلك شوطا بعيدا ، اذ كانت ديانة المسيح في ذلك الحين قد أتنهت من تأليف جميع العواطف الدينية الحية والتقاليد التي تفترضها ،

وأصبحت هي المعبرة الكبرى عنها . لذلك يمكننا القول بأن محاولة جوليان قامت في زمن غير مناسب لها ، وأنها لم تتصف بالذكاء وان صاحبها الاخلاص فجعلها جديرة بالتقدير . وقد تظاهر موظفو الامبراطورية باحترام اقتراحات الحاكم الذي كان يشكو قلة اخلاصهم . أما المسيحيون فقد صمدوا له وتمسكوا بدينهم . ولكن الوقت لم يسمح لجوليان بالرجوع الى وسائل القسر والقمع التي استخدمها ديوكليسيان، ولا نشك ايضا في أنه كان عازفا عن تلك الوسائل . لذلك لم يصب الكنيسة منه سوى بعض مضايقات غير ذات شأن ، وان لم يقتصد رجالها في اظهار كراهيتهم له والحمل عليه في عنف عنيف .

وانا لنرى الثقافة الهيلينية تضعف يوما بعد يوم ، اذ لم تعد تنتج للناس انتاجها السابق القوي ، وأصبحت تعيش على الماضي ؛ ثم لان العقيدة المسيحية راحت تمتص في صبر كل جوهر ظل حيا للفكر اليوناني . وكلما أزدادت هذه الثقافة ضعفا،كلما تلاشت مقاومة المفكرين فأقبلوا على أعتناق المسيحية . وكان جدلهم فيها من قبل ، ذلك الجدل الذي لم يهتم بأمره سوى أصحاب الثقافات الرفيعة ، يلجأ مضطرا الى الاساليب الهادئة حتى لا يثير غضب السلطات الحاكمة ؛ وكان لا جدوى فيه امام « وباء » الايمان المنتشر ومدافعة المسيحيين المتعددة الجوانب في توثبها الدائم . وظهرت، خلال القرن الرابع والقرن الخامس ، مؤلفات جدلية لتدعيم المسيحية لا حصر لها تهدف الى هدم كل ما يأتيه أصحاب الوثنية من برهان . وأننا لا نجد بين طياتها براهين أقوى أو أضعف من تلك التي قدمها المشركون ، الا أنها امتازت بتجنب الوقوع في مواقف التخلف ، وبمسايرة ظروف العصر ومقتضياته : فقد زعم المسيحيون المحافظة على كل ما يجدر المحافظةعليه من تراث الماضيفي سائر المجالات، ولكنهم بعد ذلك وضعوا هذا التراث في اطار التيار الديني الاكبر والعاطفة الايمانية العامة ، وهما التيار والعاطفة اللذان لم يكن لهما بد من أن يجرفا رجال هذا العصر بين ثناياهما .

وجاءت أكثر ألوان المقاومة عنادا من أهل الـريف [1] المتعلقـين بآلهتهم المحلية الصغيرة الخاصة بهم ، وبتقاليدهم العتيقة التي يدعمهـا أيمانهم بالسحر • وكان جفاء طبعهم الفطري عاملا خطرا في محـاولات تبشيرهم ، بل كان من العسير اقناعهم الا اذا استثيرت عقولهم بأعمـال عنف جريئة ضد معابدهم وأصنامهم او اشجارهم المقدسة وينابيعهـم السحرية • وبعد أن انتشر الايمان في المدن ، وجد أن عونه الاكبر في المناطق الريفية يكمن في تلك الاديرة التي انشئت في مراكز تيسر لهـا العمل المباشر النشط ، وفي الكثير من الاحوال فرضت المسيحية نفسها عن طريق التسرب اليومي البطيء المترتب على الصلات بين المدينـة والقرى ، وفي بعض الحالات الاخـرى ، اتسم انتشارهـا بأعمـال مفاجئة مثل تبشير قرية بأكملها أو مجموعة قرى في يوم واحد ، وكانت في غالب الامر تسير على اسلوب « الابدال » ، أي تحول لصالحها مـن الاساطير والخرافات السائدة ، معتمدة على عبادة القديسين لديها ، تلك العبادة التي يسرت كثيرا من مهمتها التبشرية : فتقيم تماثيل قديسيهـا محل الشخصيات الالهية الصغيرة التي اعتادها الفلاحون وأحبوهـا حبا جما لاعتقادهم بأنها تؤدي لهم العديد من الخدمات اليومية التي يطلبونها منها ، وهكذا بدت القرى وكأنها آخذة بأهداب المسيحية ؛ وتقدم العمل التبشيري فيها كثيرا في نهاية القرن الخامس •

وعلى أي حال ، فقد كان من الممكن ، منذ البداية ، التنبؤ بمـا آلت اليه معركة العقائد التي ثارت في الربع الاخير من القرن الرابع •

والنجاح الدائب للايمان المسيحي في المـدن الكبـرى والاوساط الرسمية ، وتنظيم الكنيسة في مواجهة الاشتات المتفرقة من أعدائها ، ثمـ

---

(١) كلمة « باجانوس » اللاتينية تعني أصلا : « رجل الريف » . وقد اثبتت الادلة ان عداء اهل الريف للمسيحية كان السبب في تحول معنـى كلمة « باجانوس » هذه من « رجل الريف » الى « الوثني » . ويبدو أن المعنى الأخير للكلمة نشأ في النصف الاول من القرن الرابع وانتشر خـلال النصف الثاني منه .

وعلى الاخص ـ ذلك الحماس الحي الذي حملته المسيحية بين طياتها بينما الديانات الوثنية القديمة تسير مندفعة في طريق الفناء ، كل ذلك لم يكن سوى مجموعة من الظواهر تعلن انتصار الدين المسيحيي وتمهد له .

الفصل الحادي عشر

معنى الانتصار

أ ــ ثمن انتصار المسيحية ــ الكنيسة هي المنتصرة ــ الاتجاه من تنظيم الاكليروس ــ نمو الكهنوتية وعلم اللاهوت ــ الارثوذكسية والخلافات العقائدية ــ التيارات التأليفية في المسائل الاساسية والتأثيرات الشكلية ــ أثر البسطاء من الناس ــ الرهبنة ودورها ــ المراحل الاولى في التطور المسيحي : المفارقات وعناصر الدوام •

ب ــ كيف انتقل أمل المسيحية الاول الى مستوى جديد ــ نتائج ذلك ــ كيف زاد الانتصار من خطر هذه النتائج ــ كيف يمكن القول بأن الانتصار ليس الا ظاهريا ــ مسئولية الكنيسة ــ الكنيسة تصبح عنصرا من عناصر الدولة الرومانية ــ وراثتها لهذه الدولة في القرن الخامس ــ المزايا المادية التي جنتها والعقبات الفكرية ــ كيف تغلغلت في الكنيسة فكرة التمييز بين « المؤمن » وبين « الكامل » ، وكيف أصبحت واقعا ملموسا ــ أهمية ذلك من الناحية العملية •

ج ــ انتصار المسيحية من وجهة نظر تاريخ الاديان ــ الغرب أمام المسيحية الاولى ــ كيف تمثل هذه المسيحية نوعا من التأليف الذي نشأ من تطلعات الشرق الدينية ــ منافسو المسيحية : مبشرا ، الافلاطونية الجديدة ، المانوية •

د ــ الاديان الثلاث التي تقابلت في القرن الرابع ــ أوجه التشابه بينها ــ ضعف الافلاطونية الجديدة من الناحية العملية ــ مركز المانوية وثباتها النسبي ــ لماذا حرمت الدولة الرومانية المانوية ــ كيف استطاعت الكنيسة ان تواجهها وتنتصر عليها ــ استمرار وجود الافلاطونية

الجديدة والمانوية بعد انتصار المسيحية ــ أثرهما في المستقبل •

ــ أ ــ

كان هذا الانتصار ، الذي يشهد به على الاخص تحول الدولة الرومانية الى الدين الجديد في القرن الرابع ، مرحلة هامة من مراحل تطور المسيحية • والواقع أن المسيحيين كانوا قد دفعوا ثمن الانتصار ؛ دفعوه غاليا ، بحيث نستطيع القول في شيء كثير من الجزم ، بأن مؤمني عصر الحواريين لم يكونوا لينظروا الى هذا الانتصار ، لو قدر لهم ذلك ، الا على أنه نكبة كبرى • وعذر مسيحيو عهد قسطنطين أنه لم يكن بيدهم اختيار الظروف والشروط •

والنظرة الاولى الى أحوال المسيحية تكفي لان تبين لنا أن الانتصار على عداء الدولة ودفعها الى اتجاه جديد ، لم يكونا من نصيب أتباع المسيح حقيقة وانما كان من نصيب حكامهم ، أي الكنيسة • وأن تلك الامتيازات التي تمتع بها المؤمنون عامة على أعقاب الحل الوسط الذي اتخذه قسطنطين ، لم تأتهم سوى نتيجة لاتفاق بين قوتين ، بل بين حكومتين ، تبحث كل منهما اولا وقبل كل شيء عن مصلحتها الخاصة •

وانتهى الاكليروس ، وقد اطمأن للمستقبل ، من انشاء تنظيماته خلال القرن الرابع • وكان لاقامة الاساقفة المركزيين والبطاركة أثرا ملموسا في تنسيق التدرج الوظيفي بالكنيسة التي اتجهت بذلك شيئا فشيئا نحو الملكية البابوية • كما كان لعقد المجالس والمؤتمرات الكنسية المتعددة أثره في تدعيم وتوضيح مفهوم « الكاثوليكية » (١) للايمان لدى هذا الاكليروس ، وسمح له في نفس الوقت بتوحيد نظمه وتوسيع أبعاد عقائده اكثر فأكثر • وسارت تلك الهيئة المسيحية الكبرى بدفعة هائلة من النشاط ، فبدت وكأنها تجذب اليها لتستوعب كل ما احتفظ به العالم الوثني من جوهر حي ؛ وحتى الطقوس والمراسم ، التي اتشح بها الاكليروس وازدان ، نراها تتضخم وتزداد بريقا ، فهي قد تبنت كل

(١) بمعنى « العالمية » .

زخارف العبادات القديمة التي لا تتنافى تمام المنافاة مع مبادىء الايمان الاساسيــة •

ومن زاوية أخرى ، نلحظ ان الكنيسة المسيحية ـ وهي الممثلــة للشعب المسيحي كله بالنسبة الى الدولة ـ تميل الى تشكيل تنظيماتها الادارية على غرار تنظيمات الدولة نفسها ، والى اتخاذ الاطارات الرسمية حدودا لها ، بل نلحظ أنها توشك أن تكون واحدا من الفرعين الاساسيين للادارة العامة ، مع حفظ حرياتها وامتيازاتها المكتسبة التي تستطيــع الدفاع عنها عندما تقتضي الضرورة ذلك • وتنمو روح الحكم فيها كما تنمو الاجهزة الادارية ، تحت تأثير الطمع ، الذي لم يكن منه بد ، في الوظائف من كل جنس ، وكرد فعل لما حققته من مكاسب في صفــوف الارستقراطية ؛ وبذلك نزعت الى الانفصال يوما بعد يوم عن جمهور المؤمنين البسطاء ، والى التدخل المتزايد في التدبيرات السياسية • الا أنها باتخاذها هذه الوجهة ، لم تفقد استقلالها فحسب ، بل تشربت شيئا فشيئا بمشاغل الحياة الدنيا ، حتى أبهمت عليها في بعض الاحيان مفاهيم رسالتها وأسباب وجودها •

وان الشيء الذي يثير بادىء ذي بدء انتبــاه أي باحث في مجال انتصار المسيحية ، هو أولا : قوة الوظائف القدسية وسيطرتها ، اذ يتبين له أن حياة كنيسة المسيح جميعها قد انطوت عليها ضمائر الاساقفة ؛ ثم هو ، ثانيا : نمو علم اللاهوت نموا هائلا • ولقد ظل الفكر اليوناني خميرة لكل نظريات هذا العلم ، يؤثر تأثيرا قويا على الايمان ، كما أثرت روح العصر على العادات والتقاليد وكما أثرت الدولة على الكنيســة • فالمسيحيون ينهلون من ذلك النبع الدافق للافكار الميتافيزيقية ســواء بطريقة مباشرة : في كتيب فلاسفة الافلاطونية الجديدة الذين يتتبعون خطاهم وان أظهروا لهم الاحتقار ؛ او غير مباشرة : في كتب اوريجين الذي أعجب به البعض بينما لعنه الاخرون والذي استغله اعداؤه المثقفــون مثلما استغله انصاره • فالقرنين الرابع والخامس حافلين اذن بوقائــع أعجب نزاع بين العقائد التصاعدية التي راحت تتقاطع أو تهدم بعضها البعض او تلتقي في تآلف ، بينما ذهب تفكير مجموعة من كبار العلماء ،

وسط هذه المعمعة الحامية الوطيس ، الى محاولة ارشاد المترددين والجهال . فنجد الصراع مثلا يدور حول مشكلة تحديد العلاقة الطبيعية بين الابن والاب في نطاق الثالوث ، او مشكلة الصورة التي بها تنسجم الخصائص الآلهية مع الخصائص البشرية في شخصية المسيح التي انطوت على كلتاها ،أو مشكلة حقبة مريم العذراء في لقب « أم الله » . وكانت الارثوذوكسية ، في الواقع ، هي ذلك الرأي الذي تجمع عليه الاغلبية من أعضاء المؤتمرات الكنسية . غير أن هذه الاغلبية لم يكن لها في اكثر الاحيان من القوة ما تستطيع به أن تفرض حلا سريعا حاسما على سائر الكنائس ؛ ولم تكن قراراتها عادة لتثبت الا بعد ألوان مختلفة من القلق يجد لها بسطاء الناس أصداء جبيثة في انفسهم وهم الذين يؤمنون ـ كما نعلم ـ بأن الحقيقة واحدة وخالدة ، أي ، بالتالي: ثابتة لا تتغير .

والجديد في هذه الخلافات العقائدية ، التي ثارت القرنين الخامس والسادس ، لم يكن الاختلاف في حد ذاته ولا أصالة الموضوعات التي طرحت للبحث . فالاختلاف كان ، خلال القرون الثلاث الاولى ، شرط تقدم الايمان وغذائه ، كما كانت الكثير من المسائل التي آشرنا اليها مادة للبحث منذ زمن بعيد . ان الجديد في الامر ليس هذا ، وانما هو : اتساع أبعاد الصراع وعنفه ودوامه . فالمنطق كان يعرض المشاكل المتوالية التي تتبع كل واحدة منها عن الاخرى . والواقع أن تلك المرحلة التي نعرض لها كانت مرحلة حتمية في تطور العقيدة المسيحية التي لم يوفيها القرن الثالث حقها من البحث فلم تكتنف بها حياة الايمان السائرة بطبعها الى الامام قدما . وكان لا بد من الاختبار في مجالات متعددة بين نزعات متباينة لم تتحدد بعد كل التحديد ، بل هي مختلفة كل الاختلاف . وكلما حاول القوم فحص معالمها وتحديدها ، كلما ثارت النزاعات . وكلما ازدات أهمية الموضوع ، كلما حمي وطيس الخلاف وبلغ من العنف مبلغه . وعلى أي حال فقد كان الامل في الوصول الى الوفاق يبعديوما بعد يوم بتراكم التعقيدات فيمجال النظريات العقائدية. ولم يكن شيئا غريبا على الناس ان يفقد المتنافسون كل اتزان في العمل

والحديث ، وانها لصور غريبة حقا تلك التي نلمحها من خلال دراستنا لتطورات الخلافات الخاصة بـ « الاريانية » أو بـ « المونوفيزية » . وان رجالا من أمثال اوزيبيوس النيكوميدي ، أو الامبراطور قنسطانس المسيحي ، أو أساقفة الاسكندرية الثلاث الذين امتازوا بالعنف الشديد: تيوفيل وكيريللوس وديوسكور ، هؤلاء الرجال لا تبعث سيرهم على الايمان بأنهم ارتبطوا ارتباطا وثيقا بوصية الانجيل الكبرى التي رأى فيها عيسى ــ على حد ما يروي ــ كل « شريعة المسيحية » ، وبالتالي ــ على ما نعتقد ــ كل لاهوتها ، وتلك الوصية هي : أن يحب المرء قبل كل شيء الهه وأخيه .

ولكأن الكنيسة في هذا العصر راحت تستخدم في النيل من نفسها بنفسها كل القوى التي لم تعد الاضطهادات تجبرها على استخدامها لتأمين حياتها ... ولكنها كانت في الواقع تمر بأزمة نمو ، سوف تنبثق منها الارثوذكسية في النهاية،تلك الارثوذكسية التي دعمت انتصار الجماعة على الفرد وشرعت باسم الله التعصب اللازم لذلك . وأن علم اللاهوت، وهو الذي اختص بالمعاني البالغة الغموض وبأساليب التوفيق ، ليتغذى من كل هذا الجدل فيتخذ في رحاب الكنيسة مكانة هائلة ، ويدفع الدين الى ان يصبح اختصاص علمائه ويفرض ذلك بقوة ، فتضعف العاطفة الدينية ، وتصبح الانشاءات الفردية متهمة بالبدعة والضلال . ومنذ ذلك الحين هيمنت النظريات المدرسية على الايمان . وان هذا لامر أساسي في تاريخ الحياة المسيحية .

وعلينا بعد ذلك أن نذكر مسألة هامة ، وهي : أن المناقشات العقائدية الكبرى التي ثارت خلال هذين القرنين وعكرت صفوهما ، قد نمت جميعا في الشرق . أما الغرب فلم يفهم لها مغزى ، ولم يهتم بها أو يأخذ نصيبه منها الا عندما بدت وكأنها تهدد الوحدة الكاثوليكية أو تضرب« سنة الحواريين » . ولم يلتفت الناس في غرب الامبراطورية الا لمشاكل عملية ، مثل : ماهية تكوين الطبيعة الاخلاقية للانسان والنتاج المأمول منها ، وماهية الاثم ووسيلة الخلاص منه ، وماهية العون المأمول من الفضل الالهي ومدى ضرورته لنجاة الانسان ؟ وهل الانسان حر في ارادته أم هو خلق ليريد ما أراده الله ؟ ... وقد نبعت البدعتان اللتان

اطلق عليهما « البريسيليانية » (في القرن الرابع) ، و « البلاجيانية » (في القرن الخامس) ، من هذه التساؤلات التي اختصت بالجانب الاخلاقي أكثر منها بالجانب اللاهوتي •

ومع ذلك فقد راحت فكرة الكاثوليكية تفرض نفسها في وضوح يزداد يوما بعد يوم ؛ وذهبت الى تدعيم القول بأنه لا يوجد هناك سوى « ايمان واحد » ، تماما كما لا توجد سوى كنيسة واحدة • وبالتوازي مع ذلك تأكدت أكثر فأكثر الفكرة القائلة بأنه لا نجاة للانسان خارج هذه الكنيسة ، وأن عليه أن يأتيها لا مستسلما خاضعا خضوع الابن المختار ومؤتمرا بتوجيهات سلطاتها الرشيدة فحسب ، بل أيضا وهو مقتنع بعقيدتها اقتناعا داخليا كاملا • ومن الواضح أن تلك العقيدة التي سارت فيطريق التقنين والتحديدشيئا فشيئا في تردد وقلق وبين الخلافات العنيفة ، من الواضح أنها لم تزل في طور عملية التأليف اللاهوتي ، أي : تطعيم معطيات ايمان الحواريين بمفاهيم دينية وفلسفية مختلفة الاسس استعيرت من البيئات المتباينة التي عاشت فيها المسيحية ؛ ثم : محاولة التوفيق بين أطراف النظريات بواسطة مجموعة من البراهين قريبة من براهين السفسطائية الاغريقية ، تكسى بعبارات تتفاوت درجة البراعة فيها وان كان غالبها، في حقيقة الامر ، لا يغني ولا يشفي غليلا • وان تلك لهي الظاهرة التي يتمثل فيها بوضوح تأثير طبقات أرستقراطية الفكر من مثقفين وفلاسفة ، التي دخلت المسيحية ، فلم تتخل اذ دخلتها — كما سبق أن أوضحنا ذلك — عن جوهر بل وعن أساليب وأشكال التفكير الذي درج عليه أصحابها حتى تحولهم هذا • ولقد حاول الدارسون في السنين الاخيرة من عصرنا ، ووفقوا كل التوفيق في محاولتهم ، ان يبينوا كيف كان كبار المؤلفين المسيحيين من اليونانيين ، خلال القرن الرابع ، يفكرون ويبرهنون ويتحدثون ويكتبون حسب قواعد وطرق وعادات البلاغة الوثنية التي كانت تلقن في مدارس العالم اليوناني • بل انه لمن العجب العجاب أن تتبين من خلال الدراسات الحديثة كيف كان هؤلاء المؤلفين يخضعون خضوعا مطلقا لنفس القشور الزائفة التي صرحوا في كل مناسبة باحتقارهم وانكارهم لها : فالمادة التي استغلوها

في سبيل تطويع المسيحية لمتطلباتهم الفكرية لا تختلف في أصلها عن الشكل الذي عبروا عنها والذي لم يستطيعوا التخلص منه ؛ فكلاهما ، أي الشكل والمادة ، يرجع أساسا الى المدارس الفلسفية التي تعودوها من قبل .

غير أن تحقيق الامر الى أن جمهور المؤمنين البسطاء وان خضعوا ظاهريا لرجال الاكليروس لديهم وأبدوا استعدادهم ليتلقوا عنهم قواعد الايمان . لم يكونوا في الواقع على تلك الدرجة من السلبية التي طفت بهم . بل ان الامر اخطر من ذلك : ففي الحياة الدينية لهؤلاء المؤمنين البسطاء يجب البحث عن أغلب التطورات التي مرت بها المسيحية . لقد كانوا رجالا لا يميلون الى أعمال الفكر والمنطق ؛ ولا يبالون بألوان التعارض بل وبالخرافات التي تقابلهم ؛ رجالا أخذت الاحساسات والعواطف منهم كل مأخذ ، فنزع ايمانهم الفطري الدافق في قوة لا تقهر ، الى طلب الاضافات والاعلاء ، والى التهويل في تصوير الموضوعات وتنميتها من حيث الكم . ولم يكونوا يقدرون على الخلاص من ايحاءات الوسط الذي يعيشون فيه ، ولا على التخلي في حياتهم عن تراثهم العتيق . ولما كانت سائر أوجه معيشتهم لا تزال مشبعة بالوثنية ، فقد طلبوا الاضافات والاعلاء من الوثنية ، ومن تقاليد الاجداد ، ومن الطقوس القديمة البالغة القدم حتى لكأنها جزء لا يتجزأ من مجتمعهم ، ومن المعتقدات والخرافات التي لازمتهم في كل زمان فلم يعودوا يميزوا بينها وبين تفكيرهم الديني الخاص وارادات مذاهبهم التأليفية في آن واحد : أن يكون عيسى هو الله وأن يظل الله واحدا ؛ ونشأت عنها الاساطير التي جعلت من مولد المسيح وحياته أكثر المعجزات اعجازا ؛ ثم هي قد أقامت بعبادتها لمريم العذراء حقيقة جديدة مكنتها من الايمان الى جانب عبادات القديسين ، فأصبح الامر أشبه شيء بالدين المتعدد الآلهة ، تغذيه أساطير أبطال الوثنية في كثير من الاحوال . ولم يكتفوا بذلك في تأليفهم ، بل آمنوا في سذاجتهم بأنه لا يجب البخل بشيء في سبيل تجميل صورة الله ، فرغبوا في أن يستعيدوا روعة الاحتفالات

أما ان وجد علماء اللاهوت أنفسهم في مأزق من جراء ذلك الحماس الوثنية بين رحاب « بيت السيد » ؛ فرجعوا الى كل سحر « الاسرار » ،

بل الى سحر « الأورفية » ، مطمئنين ، كدأبهم لفاعلية الحركات والعبارات السرية التقليدية .

الايماني لدى الشعب ، فهذا من شأنهم ؛ ومهمتهم هي الخروج من أمثال تلك المآزق ، بالكشف ضرورة عن الحلول الوسط أو سبل الوفاق اللازمة لتطويع المعتقدات وتطويرها في الاتجاه المناسب .

وعلى أي حال ، فأن ايمان العامة قد وجد منذ القرن الخامس ، وسائل للتعبير بلغت الغاية من الفعالية ؛ ذلك أن الرهبان تكاثروا خلال هذا القرن وانتشروا بالبلاد ؛ ولم يكونوا جميعا بطبيعة الحال من أبناء الشعب ، بل نرى الاديرة تجذب اليها عددا وفيرا من النفوس الرقيقة التي راعتها الحياة الدنيا أو مزقت عواطفها ، وتغري الكثير من طلائع المسيحيين المثقفين الذين أدركوا ــ في وضوح تتفاوت درجاته ــ أن الاخلاق الانجيلية التي يحملونها بين جوانحهم لا تتفق تماما مع مقتضيات الحياة على هذه الارض ، وأن المسيحية التي اكتفى بها الناس عامة ليست هي مسيحية عيسى . غير أن أولئك وهؤلاء لم يكونوا سوى أقلية قليلة بين صفوف جيش الرهبان العرمرم ؛ وكانت تقواهم الملتهبة ، من ناحية أخرى ، ترحب ترحيبا تلقائيا ــ وهي الباحثة دائما عن وسائل تجنب الخطيئة ــ بالاضافات المترتبة على ايمان البسطاء ، تلك الاضافات التي يجدون فيها السلوى والنشاط المتجدد ، بل أحيانا : التأييد والتشجيع والعاطفة المكملة لتطلعاتهم . فكان القديس جيروم مثلا ، وقد أضنته ثورات جسده فراح يبحث عن وسيلة للانتصار عليها بتعذيب نفسه وبالتقشف ثم بالتأمل في سر عذرية مريم ، كان هذا القديس لا يكتفي بقبول فكرة العذرية على الصورة المطلقة التي لقنها اياه ايمان العامة في تأكيده بأنها صفة ملازمة على الدوام لأم عيسى ، لم يكتف بهذا ، بل فرض بالتوازي نظرية عذرية يوسف المطلقة .

كانت جمهرة الرهبان الغالية تأتي من أبناء الشعب . وكانوا ، بين جدران أديرتهم ، يجمعون في رصيد واحد عواطفهم الدينية المشتركة ، ويستثمرونها في نشاط بالغ . وكانوا يتمتعون بنفوذ قوي بفضل تجنبهم لكل ملذات الحياة ، ويمتازون بحيوية عنيدة بل عنيفة ، في المواقف العقائدية التي يتخذونها . واتصف أغلب ذوي الشهرة منهم بسمو أخلاقي

حقيقي فاض فضله على الجميع لان قانونهم كان يسوي بين الجميع •
وقد أدى كل ذلك الى تدعيم سلطتهم لدى عامة المؤمنين ، واضطر حكام الكنيسة ــ رغم ما وجدوا ــ الى أن يحسبوا لهم أكبر حساب : فاليهم كانت تنتهي رغبات وايحاءات الايمان الشعبي ، وبهم كانت هذه الرغبات والايحاءات تتخذ سبيل الوضوح والتحدد والانتظام ، لتنفرض نفسها أخيرا على علماء اللاهوت ، الذين لم يكن لهم بد من تقبلها ومن التوفيق، قدر الاستطاعة ، بينها وبين المسيحية •

وهكذا ، وبفضل التعاون اللاشعوري بين تأثيرات تختلف في أصلها ولكنها تنشط لتلتقي في بؤرة واحدة ، نشأ في القرن الرابع دين لا يشبه في الكثير من نواحيه ذلك الذي لمحناه على أعتاب القرن الثالث • وسيطر هذا الدين الجديد ، في الواقع ، على العالم الروماني عند بدء القرن الخامس •

(ولنتأمل قليلا في أمر مسيحية القرون الوسطى :

كانت دينا يبغي العالمية ويتخذ الحرب وسيلة لها ؛ دينا متعصبا ، شديد التعصب ، لا يقبل ــ بالنسبة الى العالم الخارجي ــ أنصاف الحلول ، ويخشاه اليهود خاصة •

وكانت ملتقى لعدد عديد من العقائد التي لا يستسيغها المنطق ، ومن الطقوس الدقيقة المتشعبة التي حملت قدرا وافرا من رموز السرية والفعاليـة) •

كما تداخلت فيها طوائف لا تحصى من « العبادات » الخاصة التي اتجهت الى صور من « السيدة العذراء » متعددة ومتميزة الالوان ، والى قديسين محليين متخصصين لا يكاد المرء يلم بقوائم اسمائهم •

كل ذلك في اطار اكليروس يهيمن علـى ايمان وضمائـر الناس ، ويعتمد على تدرج وظيفي متصل اتصالا وثيقا في سلسلته ، وينزع الى تلقي أوامره كلها من مركز موحد ، يدفعه من القاعدة جيش هائل من الرهبان ، وينسق بين صفوفه بعد ذلك جيش آخر من علماء اللاهـوت الذين لا ينتهي لهم حديث ولا يصل انسان الى سبر أغوار فكرهم •

أننا ، عندما نتأمل مسيحية القرون الوسطى هذه ، في الكنـائس الفاخرة التي اتخذتها مقرا والتي تعددت وتكاثرت بصورة هائلة ، وفي

الاحتفالات الفخمة التي تقام لها والتي نمت وتضخمت بطقوسها ورموزها المحركـة ...

المسيحية في القرون الوسطى ، عندما نتأملها ، ثم نقارن حالها بدين نبي اقليم الجليل ، ذلك النبي المتواضع ، الرقيق الخلق ، الذي زعم أن رسالته هي فقط تبشير اخوته في الله بالنبأ الطيب ، نبأ حلول مملكة الله ، وحثهم على اعداد العدة لها بمكارم الاخلاق ، دين عيسى الذي تسامت تقواه الى اله أجداده في تطلع بنوي مطمئن ...

... لا نجد رابطة تذكر بين هذا وذاك ! ...

فباسم المسيح ، يبدو أن حياة الوثنية كلها ، سواء في ميدان الفلسفة أو الدين ، وبكل ما انطوت عليه من تناقضات وفوضى ، قد دبت فيها الحياة من جديد فنشطت وانتصرت على دين الروح والحق الذي بشر به وعاشه الاستاذ اليهودي) .

ولكنه ، مهما بدا من فروق بين مسيحية رجال من أمثال القديس توماس الاكويني وبطرس الراهب وبين مسيحية عيسى وبطرس الحواري، فاننا نجد النمطين من المسيحية يرتبطان على مر العصور برابطة قد تكون خافية أحيانا على العيان ، الا أنها قائمة متينة على الدوام ؛ وتلك هي : مقتضيات الحياة والبقاء التي حددت وفرضت التطور ، ذلك التطور الذي كان قيام عيسى بالدعوة نقطة البدء فيه. وليست عقيدة توماس الاكويني أو أفكار الصليبيين ، أو نظريات القديس أغوسطين في علم اللاهوت ، أو غنوصية أو ريجين ، او انجيل القديس بولس ، سوى مراحل معينة .

(ومع ذلك فالحقيقة الثابتة التي لا جدال فيها ، هي : أن الكنيسة لم تتمكن من « الانتصار » خلال القرن الرابع الا بفضل انهزام الايمان الاول الذي يمكن أن نسميه بـ « ايمان الاثنا عشر ») .

— ب —

كان من سوء حظ المسيحية أنها اعتمدت أساسا في البدء على الامل الكبير المتعلق بـ « ظهور » المسيح . فمن اليسير على الانسان أن يرسم لنفسه مخطط حياة بديع لا يرقي اليه الشك ولا الخطيئة ، أن أيقن

بزوال كل حياة بشرية بين لحظة وأخرى ، وبقرب جنيه لثمار جهده الذي لن يطل ، تلك الثمار التي سوف يتمتع بها في عالم الخلود • غير أن الامل الكبير لم يتحقق ، وأدى التأجيل فيه يوما بعد يوم وعاما بعد عام الى استسلام عامة المسيحيين ــ مثلهم في ذلك مثل سائر الناس ــ لكل اغراءات غرائزهم ولدفعة العادات المتأصلة فيهم • انهم لم يتنكروا لمثل الحياة التي لولاها لما كان لدينهم مغزى ولكنهم لم يعودوا يحاولون تحقيق هذه المثل عملا ؛ وحل لديهم « الاعتقاد » في بعض الفروض والايمان بالفعالية السحرية للطقوس محل الاجتهاد الشخصي الذي طالب به الانجيل • وقد بدأ هذا الانحراف قبل القرن الرابع ، اذ نلمح بعض ظواهره خلال الفترات السابقة لانتصار المسيحية ، ولكنه تأكد بتأكد هذا الانتصار • والسبب في ذلك بسيط ، وهو : تزايد عدد الاتباع الجدد الذين دخلوا الكنيسة دون أن يعدوا لذلك الاعداد الكافي ، فلم تكن لهم المناعة اللازمة أمام قوى الحياة ، تلك القوى التي تؤثر تأثيرا هداما في سائر الاديان •

وتلاشي بعد ذلك الخوف من الاضطهادات ، وأصبح المسيحيون يستطيعون أن يعيشوا حياة طبيعية ؛ فاكتمل في نفوسهم الانفصال بين واجباتهم كمؤمنين وبين احتياجاتهم كبشر عاديين • وانحصرت الواجبات في مجموعة من الفروض تنزع الى الانكماش عددا وأعباءا [1] ، بينما أخذت متطلبات الحياة في الازدياد ، دون ماقيد حقيقي ، في الصور التي اعتادها الانسان ضمن المجتمع • وبعبارة أخرى : (انهزمت المسيحية الاولى في الصراع الروحي الذي خاضته مع الحياة ؛ وقبلت الكنيسة ، في الواقع ، هذا الانهزام واعتمدته ، مكتفية بأن تحول الى موضوع للتأمل الديني لدى المؤمنين تلك المثل التي كانت تنطوي في البداية على جوهر الايمان ، والتي كانت هي علة الايمان الاولى) •

وأتخذت الحياة اليونانية ــ الرومانية كلها ثوبا من المسيحية ،

---

(١) هكذا مثلا نرى أن الصلوات التي تقيمها الكنيسة أصبحت تختصر شيئا فشيئا ، كما اعتاد المؤمنون أن لا يشاركوا فيها الا أيام الاحد .

ولازمت هذا الدين ، الذي يتعارض معها ، دون أن يضيرها ذلك في شيء . والنتيجة الكبرى الواضحة لكل ما تقدم ، والتي نلحظها على أعتاب القرن الخامس ، هي أذن : أن انتصار المسيحية ، في سائر وجوهه، لم يكن الا انتصارا ظاهريا ؛ حيث أن الدين الجديد لم يطوع العالم اليوناني ــ الروماني لعقيدته وروحه ، بل على العكس من ذلك نرى هذا العالم قد تشربه وطوعه لتطلعاته الاصيلة ولتقاليده في جميع المجالات الفكرية والمادية . والكنيسة هي المسئولة عن تلك النتيجة ، لانها هي التي كانت القوة المتحكمة في أمور المسيحية والممثلة الوحيدة للمسيحيين، وهي التي وافقت ، بوصفها هذا ، على الحلول الوسط على ألوان مختلفة من التنازلات ، ثم هي التي « انتصرت » في تلك الظروف ، لا المسيحية.

وأصبحت الكنيسة جانبا من جوانب الدولة الرومانية ، فقد أخذت عنها الاطارات والمفاهيم الادارية ، وحب التنظيم والتنسيق ، ثم الخوف من الفردية الابتكارية التي تخرج عن الحدود المتعارف عليها والتي تثير وتقلق عقول السذج البسطاء وتناقض في حيويتها الدافقة ما دأب عليه المجتمع من تقاليد معتمدة . أما مثل الحياة الاولى فلم تحظ من التقدير الا بقسط اذ اتخذت موضوعا مختارا لاحاديث الوعظ الكنيسة، ولم يعد لها تأثير حقيقي عميق في تسيير هذه « المسيحية الخارجية الاسمية » (على حد تعبير تولستوي) التي ارتضتها الكنيسة شيئا فشيئا بالنسبة الى عامة الاتباع .

وانهار النفوذ الامبراطوري الروماني في الغرب خلال القرن الخامس وبدا أول الامر أن الكنيسة قد قويت بذلك ونما سلطانها ، ولكأنها أصبحت وريثة للامبراطورية في الميدان السياسي بعد أن ورثتها فيما مضى في الميدان الاخلاقي والديني . فلقد ظلت ــ بين ربوع العالم الروماني الذي اكتسحته جحافل « البربر » ــ المعقل الوحيد لمبدأ الوحدة والمركزية الروماني ؛ بل لم تلبث أن أرادت لنفسها ادارة ملكية حقيقية . وكانت قوة الضمانات التي تمنحها لرعاياها من أمن وحماية في هذا العصر المضطرب وسيلة ممتازة للدعاية لها ساعدت كثيرا على نمو « كاثوليكيتها » . الا أن هذا النفوذ الجديد الذي اكتسبته في المجال

السياسي سوف يؤدي الى تعلقها أكثر فأكثر بأمور « الحياة الدنيا » والى ابتعادها عن « المثل » الاولى • ولن تفيد عقيدتها ولا أخلاقها الاجتماعية ــ على الاخص ــ من ذلك شيئا ؛ بل سوف تنشأ فيها فكرة « الاصلاح » المحتوم ، تلك الفكرة التي عكرت صفو عيشها خلال القرون المتوالية •

الا أن ظرفا خاصا قد يسر كيرا من انهزام الكنيسة الفعلي أمام متطلبات حياة العصر • وقد اوضحنا أهمية هذا الظرف فيما سبق من زاوية معينة ؛ ونعود اليه هنا لنبحثه من جانب آخر • ذلك هو : أن رجالا قاموا في سائر العصور ، داخل الكنيسة أو بمعزل عنها ، ينادون بأن المسيحية ليست فقط مثلا أعلى لا يستطيع الانسان أن يرقى اليه ، ويحاولون بروح وثابة أن يحققوا هذا المثل لانفسهم ، ويعارضون في عنف عنيف كل لون من ألوان التنكر للشريعة السماوية ؛ ويهاجمون كل تراجع أمام قوى الحياة الدنيا • كان ذلك مثلا موقف ترتوليان وكومودیان ؛ وكذلك موقف فرقة « المونتانيين »،وفرقة « النوفاسيين »، وان لم تبلغ هذه الاخيرة نهاية الشوط في هذا الاتجاه ولم تتلاش تلك الروح في القرن الرابع ؛ بل كان من منطق ازدياد الداء أن يزداد الحماس في البحث عن علاجه • وذلك ما حدث بالفعل •

فقد مرت كل الحياة المسيحية ، بل كل الحياة الدينية ، خلال القرن الرابع ، بتيارات عميقة من الزهد المتشدد • وانا لا نملك ، لاول وهلة ، الا التعجب لضعف تأثير هذه التيارات على اتجاه الكنيسة الذي عرضناه• والسبب في ذلك يرجع الى نشأة حياة الرهبنة المنظمة ، وفتح أبواب الاديرة واسعة لترحب بكل مسيحي يرفض التراجع عن مثله أمام متطلبات الدنيا ، ويبحث عن الوسيلة التي تمكنه من تسيير حياته ــ عملا وفكرا ــ حسب الاخلاق المسيحية الاصيلة •

وكانت هناك طوائف من الزهاد يعيشون بين رحاب المجتمع ويشتهرون فيه بتقشفهم • وكانوا محل اعجاب البسطاء من الناس ولكنهم لم يؤثروا عليهم تأثيرا ذا بال ، ذلك أن سلطات الكنيسة ، بالاخص ، كانت تسهر على نشاطهم وتراقبه خشية أن يخرج بهم عن حدودهم :

وكانت بذلك تحول بينهم وبين هدم مقومات الحياة التي تعارف عليها الناس ، وتنهاهم خاصة عن الدعوة الى عدم الزواج أو مهاجمة ألـوان الطعام المعتادة • فقد كانوا يثورون عامة أكثر ما يثورون على الملـذات الحسية ، سواء منها معاشرة النساء أو تناول اللحوم والخمور • وقـام في القرن الرابع أسقف اسباني يدعي برسيليان ، يريد أن يصلح مـن أحوال المؤمنين متجها الى الاخلاق المسيحية القديمة • فاعتبره أغـلب أساقفة من بني وطنه شخصا خطرا على المجتمع ؛ وشكوا في أمـره واتهموه بالمانوية ، حيث كانت تلك الديانة ذات الاصل الفارسي تدعو الى الزهد المتشددة ؛ واستطاعوا أن يدفعوا بالسلطات الحاكمة الـى القضاء عليه • وفي بلاد الجول ، قام أسقف آخر بمدينة تور ، هـو القديس مارتين ، يدعو الى الزهد ويعمل به في عنف شديد على نفسه ، فرأى فيه اخوانه من الاساقفة « قدوة ضارة بالناس » وعزلوه عنهـم سنين طويلة من حياته ، وان لم يستطيعوا ، بعد موته ، أن يقضوا على التقدير الذي احتفظ به المسيحيون له والذي تحول الى تقديس وعبادة•

وكانت الكنيسة ، كلما ازدادت وفود النفوس القلقة الحائرة التي تشكل خطرا عليها ، تفتح أمامها « صمام أمان » تمثل في الاديرة • ونعني بذلك : أنها كانت تشير على المؤمنين الذين يعارضونها بسعيهم الدائم الى المثل الأعلى ، كانت تشير عليهم بتلك الوسيلة لتحقيقه ، أي بالخروج من الحياة الحقيقية دون عناء • ولا نقول هنا بأنها كانت تعمل مع سبق الاصرار على القضاء عليهم وتطهير المجتمع منهم حتى لا يضروا بمصالحها الدنيوية ؛ حيث لم يكن عليها في أكثر الاحوال الا أن تتركهم وشأنهم ، فيسيرون في الطريق الذي يرضيها ؛ بل نراها ، منذ القرن الرابع ، تذهب أحيانا الى حد معارضة مثل تلك الاتجاهات عندما تشك في حقيقة ميول أصحابهـا •

وهكذا انقسم المسيحيون طائفتين ، بواسطة نوع من التمييز بـين « المؤمن » وبين « المؤمن الكامل » ، ذلك التمييز الذي نلحظ أثـره في البوذية وفي المانوية • والعقيدة واحدة بالنسبة الى الجميع ؛ الا أنـه أصبح أمرا معتمدا أن التطبيق المحدود لاحكامها العملية يكفل « نجاة »

المسيحي ، ويتناسب مع قدرة الجمهرة الغالبة من الناس . أما التطبيق الكامل لها ، فهو يقتصر على طائفة من الخاصة تنوب فضائلها العميقة ــ حسب الرأي السائد ــ عن ضعف الاخوة من العامة . وعلى أي حال ، فقد هيئت لهؤلاء العامة وسيلة فعالة يستطيعون بها « تعويض » نقصهم الخاص ؛ وتلك هي : التراحم في صورة الصدقة او الوقف الخيري ، وعمل الخير على أي وجه من وجوهه . وقيل بحق : « المسيحي بمعنى الكلمة هو الراهب » . وبفضل الراهب أيضا استطاعت المسيحية أن تجد سبيلا الى التعايش مع الحياة الدنيا ، دون أن تنهار قواها انهيارا سريعا ، ودون أن يغمرها رد الفعل المحتوم للتقاليد الدينية الوثنية القديمة ، تلك التقاليد التي ظلت قائمة لفترة طويلة رغم تلاشي المعتقدات المفسرة لها .

هذا هو اذن المظهر المسيحي للانتصار . أما أن نظرنا اليه من زاوية تاريخ الأديان فاننا نجد له مظهرا آخر مختلفا .

وعلينا أن لا ننسى ، قبل كل شيء ، أن المسيحية الاولى كانت في جوهرها ديانة شرقية ؛ كانت تركيبا ساهمت فيه اليهودية بالاسس ، ثم جاءت عناصر البناء الاخرى من العالم الهيلينستي الذي تآلفت فيه التأثيرات اليونانية مع التأثيرات الشرقية الخاصة ــ من آسيا الصغرى ، وسوريا ، وما بين النهرين ، وايران ، ومصر ــ منذ عهد انتصارات الاسكندر . ووجد الغرب نفسه أرضا ممهدة للفتح المسيحي بفضل ما كان منتشرا فيه من عبادات شرقية كثيرة متعلقة بآلهة « الخلاص » : مثل عبادة ايزيس أو عبادة الأم الكبرى الفريجية أو عبادة ميثرا ، وغير ذلك من الآلهة الذين صاحبوا قوافل التجارة وسفنها أو تنقلوا مع فرق الجند في البلاد المختلفة . غير أن الغرب لم يكن له شأن في تطور واكتمال الديانة الجديدة ؛ بل هو تناولها من محيطها الخارجي ، ولم يؤثر فيها عند أخذه بها الا بأن زاد من صلابتها ومن تعصبها .

فقد كان قاصرا عن أن يدرك معارج التفكير اليوناني ــ منبع علم اللاهوت الاول ــ في سيولته وانسيابه الفائقان ، ولا أن يعبر عنها بلغته اللاتينية الجامدة التي لا تقبل التطويع الا في عسر عسير . وكان قاصرا أيضا تمام القصور عن الوصول الى تفهم التيارات البالغة التعقيد التي

تتداخل في تكوين العاطفة الدينية الشرقية والتي تفسر كل ذلك القلق والاضطراب اللذان مر بهما الايمان خلال القرون الاولى من حياته •

وكان متشبعا بالثقافة القانونية التي امتاز بها الفكر اللاتيني ، فنزع نزوعا يكاد غريزيا الى تحديد الميتافيزيقا المسيحية في اطار من القواعد الجامعة المانعة الثابتة ، والى تقنين المثل الاخلاقية الدينية تقنينا حازما متشددا •

وتلك هي المرحلة التي طبعت المسيحية في النهاية بذلك الطابع الذي أقامت عليه وعرفت به في الغرب • ولكنه لم يكن هو الطابع الذي اتسمت به في عهد الانتصار والذي بدأت تفقده حقيقة خلال القرن الخامس ، بتأثير الكنيسة الرومانية • لذلك نجد أنفسنا ، خلال القرن الرابع ، أمام دين لم يزل شرقيا بحتا [1] •

ولعل القارىء يذكر أننا ، عندما حاولنا في الفصول السابقة أن نتعرف على أحوال الشرق الدينية في عهد عيسى والقديس بولس، لاحظنا وجود مادة دينية ضخمة ، تكونت من عبادات عفا عليها الزمن أو الغيت• ولاحظنا ان هذه المادة الدينية ، رغم خمولها الظاهري ، كانت تعتمل فيها مبادىء حياة حول نواة للتبلور ، وأنها كانت تقع تحت تأثير نزعات مختلفة اجتمع لها في مكن واحد الوضوح والشمول • وبعبارة أخرى : كانت هناك تطلعات دينية ، حية بالغة الحياة ، منتشرة في الشرق ، يهيمن عليها التطلع الى النجاة ، والايمان بأن الانسان لا يمكنه الوصول الى هذه النجاة بمفرده بل يحتاج الى وسيط الهي ، ثم الاعتقاد بأن عليه بعد ذلك كسب الرعاية الالهية بأسلوب حياة مناسب وبطقوس فعالة • وحاولت هذه التطلعات أن تجد وسيلة للتعبير عن نفسها باستخدام العبادات القديمة وبتوسيع أبعاد الاساطير المتوارثة •

وكانت تلك العبادات والاساطير اطارات ضيقة ، لا تقبل في يسر كل ما أريد ادخاله فيها من حاجات روحية متزايدة لم يكن لها حساب من

---

(١) ونحن لا نعني بذلك ان تطور المسيحية ، تقنينا وشعائرا ، لم يبدأ منذ ذلك الحين في كنائس ايطاليا وافريقيا وبلاد الجول ، ولكننا نقرر فقط أن هذه الكنائس ـ باستثناء كنيسة روما ـ لم يكن لها اثر كبير حتى عهد الانتصار ، وكانت جميع تيارات الحياة العقائدية تأتي اليها من الشرق.

قبل • ثم اتضح بعد ذلك التشابه بين مختلف المشاغل الدينية والنظريات المتعلقة بها في الكثير من العبادات ، مما حتم التفكير في انشاء نمط جديد منها يسعها جميعا أو يفوقها ويغني عنها • وكان البحث والتأمل كفيلان للمرء بأن يدرك في سهولة أن « أسرار » ايزيس ـ ان تركنا جانبا ما يحيط بها من قصص دينية ـ تنطوي على عين الرصيد الديني الذي نجده في عبادات أدونيس أو أتيس • ولم يكن في استطاعة كل انسان أن يصل الى ما وصل اليه الكاتب أبوليه من حلول : فقد كان ينتسب الى ديانة بعد أخرى ويتعرف على جميع الاسرار دون تفرقة •

ووضعت التيارات التأليفية اللاشعورية هذه المسألة موضع البحث• ثم عادت اليها في ادراك تام لجوانبها المختلفة ، خلال القرنين الثاني والثالث ، وحاولت أن تجد لها الحلول : فارتفعت كل ديانة من ديانات « الخلاص » بمعبودها الى مصف « الاله الأعظم » الذي لا تعتبر الآلهة الاخرى الى جانبه سوى مظاهر منه أو وظائف له ؛ اذ هو يطويها جميعا في ذاته الكبرى • ولكن ذلك كان حلا ناقصا غير كاف ، حيث ظل على على قيد الوجود في الواقع عدد وفير من العبادات المنفصلة ، ثم لان عملية التأليف هذه كانت تترك مجالا واسعا للخيال الفردي ، وتبقى بعد ذلك بعيدة كل البعد عن ادراك عامة الناس •

لهذا كله اتضحت ، خلال النصف الاخير من القرن الثالث ،الحاجة الى تنسيق أوسع أبعادا وأقوى دعامة •

والمسيحية ، في الحقيقة ، تمثل أول المحاولات في هذا السبيل ، وأسبقها الى تحقيق النجاح : ذلك أن أصولها اليهودية أتاحت لها الاعتماد على فكرة التوحيد، وصبغتها بصبغة التعصب العقائدي التي أفادتها كثيرا في تلك العصور ، اذ أمنت لها شخصيتها المستقلة ؛ ولم تمنعها من تطويع العبادات الاخرى لصالحها ، ولكنها دفعتها الى الاستيعاب السريع لها وصهرها في وحدة منسجمة ، دون التلاشي بينها • ولا شك في أنه قد ظهرت داخل جمهور المسيحيين ألوان من الخلاف في الرأي وصلت أحيانا الى درجة كبيرة من الخطورة حول مسائل جوهرية ، بل انتهت بعضها الى التشيع وتكوين الفرق • ولكننا نرى في سائر الحالات اتجاها عاما

تتحد حوله أغلبية من المؤمنين ، وتنتهي الى عزل الآراء المخالفة ويصمها بالبدعة ، بل يفيد منها اذ تتحدد معالمه ويحد حياة ونشاطا في مقاومته لها •

وقد ظن لفترة طويلة ان العالم تردد كثيرا بين الايمان بالمسيح والايمان بميثرا خلال تلك العصور التي ضربت فيها المسيحية بجذورها بين ربوع الامبراطورية وتوصلت حقيقة الى مفهوم ــ بل الى مذهب مبدئي ــ للعقيدة الارثوذكسية • ونعتقد أن ذلك نوع من المبالغة الطائشة في بيان تأثير عبادة ميثرا التي ظلت آفاق التبشير بها أكثر ضيقا وتخصصا من آفاق المسيحية والتي لم تنتشر قط الا بين مدارس صغيرة مشتتة مقصورة على الخاصة • ولم تكن تعتمد كالمسيحية على روح المرأة ذات العاطفة الوثابة ، اذ اقتصرت في مريديها على الرجال ؛ وكانت تفتقر ــ على الاخص ــ الى كل العوامل التي يمكن أن تجعل منها دينا عاما بمعنى الكلمة •

أما أعداء المسيحية الحقيقيون ، فيجب البحث عنهم في غير ذلك من الاديان •

يجب البحث عنهم في ديانتين ، شرقيتين مثل المسيحية ، نبعتا من نفس المشاغل الدينية العامة التي نبعت منها ، واستخدمتا عين المادة الدينية التي عرضنا لها فيما سبق ؛ ألاوهما : « الافلاطونية الجديدة » ، و « المانوية » •

لقد نبعتا ، كما نبعت المسيحية ، عن الازمة الدينية التي وصفناها ، وتكونتا في الفترة بذاتها التي تكونت فيها المسيحية ، أي : خلال النصف الثاني من القرن الثالث • وبدت كل من الديانات الثلاث أول الامر في صورة مختلفة في الشكل والمبدأ والطقوس ثم في طرق اختيار وتنسيق العناصر المختلفة التي استخدمتها ولكنها تشابهت بعد ذلك في صفاتها العامة •

فالافلاطونية الجديدة قد احتفظت بمظهر الفلسفة التي تعتمد في المجال العقلي ــ اذا سمح لنا بهذا التعبير ــ على تفكير أفلاطون بعد أن طوعته للنظريات السائدة في هذا العصر ؛ كما كانت تعتمد في مجال ما وراء الطبيعة على مذهب تعدد الآلهة الاولمبيين • ولكننا نلحظ لاول وهلة أن النظريات الفلسفية لديها لم تعد سوى وسيلة للتطويع ، تستخدمها

في ترجمة مذهب تعدد الآلهة هذا ،الى رموز،وفي اخضاعه لفكرة «التوحيد الوثني » الشرقية ، أي لعبادة الشمس — التي نجدها بين أسس جميع ديانات الشرق الخاصة بالنجاة [1] — وتنتهي بذلك الى تحويل تعدد الآلهة الى نوع من وحدة الوجود •

اما المانوية ، فكانت — على العكس من ذلك — تستند الى « الثنائية » الكلدانية ، أي : الى الاسطورة الاساسية التي تقول بالصراع بين النور والظلام ، بين الخير والشر ، بين الروح والمادة • وعقيدتها وحي من الهام نبي ، هو ماني ، وليست نابعة من تأملات مدرسة فكرية معينة • وهي قد استعارت عناصرها من آفاق أوسع من تلك التي تطرقت اليها الافلاطونية الجديدة ، بل المسيحية نفسها ؛ فأننا نلحظ فيها تأثيرات مختلفة من بلاد ما بين النهرين وفارس والشرق الاقصى ، الى جانب تأثيرات « الغنوصية » التي تشكل دعامتها الكبرى •

— د —

وظهرت بين الديانات الثلاثة عداوة مستحكمة ، كما اتخذت كل منها بطبيعة الحال اتجاهات وروحا تختلف عما نجده في الاخريين •

ولكن ما أكثر أوجه التشابه بينها ! ••

فهي ديانات خرجت ، على حد سواء ، عن المفهوم القديم — القومي الضيق الافق — للعبادات •

وهي تريد العالمية ، وتفسر الوجود والحياة بعلل متماثلة تقريبا ، أو — على الاقل — حسب منهج واحد •

وهي تزعم انتزاع الانسان من ظروف حياته الوضيعة لترشده الى

---

(١) كان أفلوطين وبورفير أول استاذين كبيرين من أساتذة هذه المدرسة وكانا يخشيان كل الخشية من تعلق العامة بالخرافات والشياطين والجن والسحر . وكان ذلك سببا من أسباب عداء بورفير للمسيحية .
اما خلفاؤهما — ونخص بالذكر منهم جامبليك الذي توفي حوالي عام ٣٣٠ — فقد خصوا بالاهتمام في تأملاتهم الفكرية : المسائل الدينية والدفاع عن الوثنية ، واعتبروا البحث الفلسفي بمعنى الكلمة مجالا ثانويا ، واقاموا من انفسهم انصارا للهيلينيستية ضد تعصب المسيحيين « البربري » .

الخلاص الخالد في الله .

ثم هي ، أساسا ، ديانت توحيد ، تريد من الانسان أن يكتسب الخلود والسعادة بالخضوع لشعائرعبادية معينة ولقوانينأخلاقية صارمة.

وقد ظهر في « الافلاطونية الجديدة » ـ منذ البداية ـ نقص خطير بالنسبة الى الدينين الآخرين : فهي لم تجد لها « مؤسسا » ، بل فشلت في بحثها عن « مؤسسها » ، ولم تستطع أن ترجع عقيدتها الى ارادة ظاهرة لله ، تجعل منها عقيدة أصيلة ، تنطلق بمفاهيمها الى حيز الواقع الملموس ـ ان سمح لنا باستخدام التعبير ـ . ولذلك بدت دائما في ثوب الدين المصطنع ، واحتفظت بمظاهر النظرية المجردة التي يصبغها كل شخص بصبغته الفكرية الخاصة .

ويختلف موقف المانوية تمام الاختلاف . فهي تعتمد على ماني [1] ، اعتماد المسيحية على عيسى .

لقد صور الفقهاء المسيحيون عامة « المانوية » على أنها بدعة مسيحية . وهذا القول بالغ الخطأ : فالمانوية ، في عقيدتها وأسطورتها لم تتخذ ثوبا من المسيحية الا لأسباب « ثانوية » عند اتصالها بأتباع هذا الدين وبأوساطه المختلفة ، في سعيها الى التبشير والانتشار . ولم تكن الطاقة التأليفية للمانوية قد وصلت الى غايتها عندما مات مؤسسها ؛ بيد أنها ظهرت منذ أول أمرها بمظهر الديانة المؤصلة . واذا كان ماني قد اعتبر نفسه في المجال الروحي من خلفاء عيسى وأدخل اسمه في عداد رسل الله مع الكثيرين من الانبياء السابقين ، فأنما كان يقصد عيسى المعروف لأصحاب الغنوصية . وماني في الواقع لا يدين بشيء يذكر لانجيل الجليل : لقد بشر بدين للخلاص يعتمد على الزهد كما اعتمدت عليه المسيحية في أول أمرها . ولكنه اتخذ في مجال ما وراء الطبيعة طريقا أبسط وأوضح وأكثر منطقا من ذلك الذي سلكته المسيحية ، كما سار في الميدان الاخلاقي على قوانين أكثر تشددا وصرامة . ولقد وجه اليه المسيحيون المتعصبون تهما كثيرة ، ولكنها لم تكن سوى تكرار

---

(١) ولد ماني ـ ويقال ايضا مانسن ومانيكيا ـ في بابل عام ٢١٥ اوعام ٢١٦ ، ومات ببلاد الفرس فيما بين عام ٢٧٥ وعام ٢٧٧ .

ـ لا يستند الى دعائم صحيحة ـ لنفس التهم المتهافتة التي وجهت من قبل الى الجماعات المسيحية الصغيرة الاولى • وعلى أي حـال ، فأن المانوية ـ بعد عهد من النجاح الخاطف السريع ـ دخلت فجأة في طور من الانحدار ، بسبب المقاومة العنيفة التي لاقتها من الدولة الرومانية ، اذ رأت فيها تلك الدولة ضربا من ضروب الفوضوية يفوق في خطـره خطر المسيحية ، ولونا من ألوان « المونتانية » المبالـغ فيهـا لا يناسب الرومان ولا بد له أن يؤدي بأتباعه الى التخلي عن واجباتهم كمواطنين وكأفراد مجتمع انساني بعد أن تسرب اليهم من بلاد فارس وهي العدوة اللدود للامبراطورية الرومانية•وكان ذلك موقف الامبراطور ديوكليسيان عندما أصدر أحكامه الرهيبة (حوالي عام ٣٠٠) التي قررت ضـــد أصحاب المانوية أقسى العقوبات وأبانت عن الرغبة في القضاء عليهم قضاء مبرما • وشاركت الكنيسة مشاركة صريحة في هذا العداء الذي لاقته المانوية ، اذ اعتبرتها دينا منافسا يريد تجديد الغنوصية ، ويشكل بالنسبة اليها خطرا داهما يزيد كثيرا عما عرفته من مخاطر خلال القرن الثاني •

وفي ذلك نجد السبب الحقيقي لفشل المانوية ، تلك الحركة الدينية المثيرة القوية في حد ذاتها والتي أظهرت حيوية عجيبة رغم الاضطهادات العنيفة لها خلال قرون عديدة • ولا نشك في أن عقيدتها ـ من وجهـة نظر العقل المجرد ـ لم تكن أقوى من الميتافيزيقا اللاهوتية المسيحية ؛ ولكنها كانت أقرب منها الى البساطة • أما منهجها الاخلاقي ، فكان يسمو عن قدرة البشر ولا يستطيع أن يغري جماهـير الناس ؛ الا أن التوفيق الذي أصابته في التمييز بين « الصفوة » وبين « المريدين » سمح لها في هذا المجال بالكثير من الحلول الوسط • ويكفي للتدليل على ذلك بذكر نجاح فرق « الالبيجية » في جنوب فرنسا خلال العصور الوسطى ؛ اذ يبدو أن « الالبيجية » لم تكن أصلا سوى تطويع مسيحي للمانوية • أما حظ المانوية من النجاح بين أوساط المفكرين ، فلا علينا لبيان خطـره الا أن نشير الى اقتناع القديس أغوسطين بها واعلانه رضاءه عنهـا لسنوات عديدة • بل أننا لنأسف أسفا شديدا أن نرى هذا العالـم

الجليل ـ وهو الذي لم يلحظ شيئا يؤاخذ عليه في الاجتماعات المانوية خلال فترة انتمائه الى الفرقة ـ نأسف أن نراه يتخاذل بعد ذلك ويضعف، فيسمح بأن تجمع تحت اسمه وتنشر كل الادعاءات السقيمة المتهافتة المنفرة التي أشيعت بشأنها في الاوساط المسيحية •

وفي العهد الذي بدأت المانوية فيه تقلق بال الكنيسة ، كانت هذه الاخيرة تمتاز عن الاولى بتنظيمها القوي وبوحدتها واتساقها في اطار هيئة الاكليروس التي كانت تتمسك في شدة بأهداب النظام الكنسي وتحافظ عليه ؛ فاستطاعت بفضل ذلك أن تتغلب في سهولة على الجماعات المنافسة الصغيرة المشتتة التي اضطرت الى العمل في الخفاء • وكانت الكنيسة في صراعها ضد زهد أتباع المانوية وتنكرهم للامور الدنيوية ، تعتمد على نفس السلاح الفعال الذي تستخدمه في وضع حد لكل نشاط صاخب يقوم أمامها ؛ ونعني بذلك : حياة الاديرة • لذلك كانت للمانوية على تطور الرهبنة المسيحية آثار عميقة بكل تأكيد ، وان كان يصعب علينا اليوم تحديد مداها • وعلى أي حال ، فسوف تبقى النزعات المانوية موضوع نفور شديد بالنسبة الى السلطات الكنسية ، وسوف تتخذ ، في مناسبات عديدة ، سببا أو سبيلا الى اضطهادات رهيبة • وقد قتل الاسقف الاسباني بريسيليان وراح ضحية لبعض هذه الاضطهادات عام ٣٨٥ •

ولم يكن هناك أي احتمال لان يتحول العالم الى الافلاطونية الجديدة •

ولكن ـ على النقيض من ذلك ـ كانت احتمالات قوية أمام اعتناقه للمانوية ، خلال القرن الرابع •

واذا كان قد تحول الى المسيحية في النهاية ، فالسبب في ذلك يجب البحث عنه في تقدم الكنيسة : تقدمها من حيث التنظيم ؛ ثم تقدمها في مجال التبشير حيث طوعت مفاهيمه للحاجات الفعلية ، أي لحاجات العامة من الناس ؛ كما تفتحت آفاق لاهوتها لنظريات المفكرين • ويجب البحث عنه أيضا في المساندة التي لقيتها من سلطات الدولة التي اضطهدت المانوية ، وفي المعونة التي وجدتها من حياة الرهبنة ، تلك الحياة التي

سمحت للمسيحيين النازعين الى المانوية باتخاذ أسباب الزهد مع بقائهم في رحابها بل وتدعيمهم لكيانها .

وبعبارة أخرى : اذا كانت المسيحية قد تغلبت على الافلاطونية الجديدة والمانوية ، وحلت محلهما في ذلك العصر ، فلانها استطاعت أن « تعبر » ، في صورة أبلغ مما قدر لهما ، عن نفس ما نزعتا اليه من اتجاهات . ولم تلغ في تعبيرها أي نزعة من النزعات ، بل شملتها جميعا ، مع تنسيقها ، ومع تحديدها أيضا ـ وعلى الاخص ـ بالدرجة التي تتجاوب فيها وحاجات مختلف طبقات الناس الباحثة عن غذائها الديني . فقد خبرت العقبات والمحن خلال قرون ثلاث توالت عليها ، فخرجت منها بقدرة تلقائية على تجنب القضايا المبالغ فيها والنظم التي تتجاوز مقدرة البشر بسبب صرامتها ... لقد خرجت منها بتعقل الحياة . وكانت الحياة تفيض بين جوانبها وتدفعها في تياراتها ؛ وكانت هي نفسها تتمثل الحياة في المجال الروحي بمرونة بالغة يسهل علينا ملاحظاتها عندما نتأمل واقع الاحداث في شيء من العناية .

وعلينا أن نشير هنا ـ من ناحية أخرى ـ الى أن المسيحية لم تقض على الافلاطونية الجديدة وعلى المانوية تمام القضاء ، بعد أن حلت محلهما خلال القرن الرابع وتشربت بهما جزئيا في عقيدتها ـ بالنسبة الى الاولى ـ وفي مفهومها الجمالي وتنظيمها ـ بالنسبة الى الثانية .

وسوف تظل الديانتان على قيد الوجود الى جانبها : فقد عاشت الاولى في ثنايا المؤلفات الفلسفية ، التي بقيت زمنا طويلا معينا لنظريات الميتافيزيقا الشرقية ، والتي أثرت تأثيرا بالغا على الافكار اللاهوتية في الغرب خلال القرون الوسطى .

أما الثانية ، فقد تفرعت في فرق مختلفة ، انتشرت انتشارا واسعا ، وخرجت منها الكثير من البدع العنيفة العنيدة التي أقلقت بال الكنيسة الكاثوليكية وأرقتها ، وكان لها ـ من جراء الاضطهادات التي نالتها ـ تأثير عميق على روح تلك الكنيسة وعلى انشاءاتها .

خلاصة

الملامح العامة التي يمكن أن يخرج بها الباحث من هذه الدراسة ـ المسيحية ديانة شرقية في جوهرها ـ العناصر المتباينة التي شيدت عليها في الشرق ـ الاتجاه التأليفي المسيحي الاول : عقيدة الخلاص ـ العوامل التي ضمنت للمسيحية التفوق على الديانات المماثلة ـ انتشارها في ربوع اليونان ـ نتائج ذلك : تسرب الميتافيزيقا الاغريقية الى العقيدة ـ الاتجاه التأليفي المسيحي الثاني : انشاء النظريات العقائدية ـ عمل مفكري الاسكندرية ـ واقعية العقائد بالنسبة الى الشرقيين ـ لماذا لا يستطيع الغربيون أن يفهموا هذه العقائد .



سوف نحاول هنا أن نجمع ونلخص ـ من وجهة النظر التاريخية ـ ما ارتسم لدينا من ملامح عامة لتلك القرون الاربعة من الحياة الدينية التي صاحبنا تطوراتها وأمعنا النظر في بعض جوانبها ، خلال فصول بحثنا هـذا .

وأول ملاحظة نقدمها ونؤكدها ، هي : أن المسيحية ديانة شرقية في أصولها وفي خصائصها الاساسية ...

ولو بقيت على ما كانت عليه في البدء ، لما قدر لها من النجاح ، في غزْو العالم الغربي ، حظ أكبر من حظ ديانة ايزيس المصرية ، أو الأم الكبرى سيبيل الفريجية ، أو أدونيس السوري ، أو ميثرا الفارسي . ولعلها كانت تستطيع ـ في أقصى درجات انتشارها ـ أن تغري ، على غرار الديانات المذكورة ، بعض الافراد الذين تحملهم استعداداتهم الطبيعية الى الاستجابة لنزعاتها الخاصة ، أو تدفعهم مقدرات الصدف المحضة الى اعتناقها . لعلها كانت تستطيع ـ مثلها في ذلك مثل التنظيمات الدينية التي أشرنا اليها ـ أن تسعى الى اقامة أشتات من الكنائس الصغيرة ، وأن تبشر بدعوتها في نطاق بعض الجماعات المحدودة من السالكين . ولم تكن لتطمح حتى الى هذا القسط الضئيل من النجاح ،

الا بعد مرورها ــ في الاوساط التأليفية لجماعات يهود المهجر ــ بتلك المرحلة الانتقالية التي اعتاد الناس أن يرجعوا الفضل فيها الى بولس ، والتي هي في الحقيقة ــ كما فصلنا في ذلك القول ــ من عمل كنيسة انطاكيا الاولى السابقة على قيام الحواري بدعوته • وهي ــ على الصورة التي رسمها لها عيسى والحواريون الاثنا عشر ــ لم تكن لتجد سبيلا الى الحياة خارج الاوساط اليهودية الخالصة ، لانها لم تكن لتعني شيئا الا بالنسبة اليهم كاتجاه عقائدي ، بل لم تكن تشكل سوى تعبير خاص عن الفكرة اليهودية المتعلقة بالانتصار وحلول مملكة الله • أما من ناحية تشكيلها لمجتمع ديني ، فلم تكن لتتعدى صورة الفرقة اليهودية التي تعيش على هامش السنن الاصيلة المتمثلة في مجتمع معبد القدس الاكبر والمعابد الفلسطينية عامة •

فالمسيحية اذن ديانة أنشئت ــ على أساس يهودي ــ من عناصر متباينة كثيرا ، وان جمع بين أشتاتها على حد سواء الاصل الشرقي : عناصر يونانية في جوانب كثيرة منها ، ولكنها أيضا عناصر من آسيا الصغرى وسوريا وما بين النهرين ومصر •

وبدت لنا المسيحية ، في نهاية القرن الاول من تاريخها ، مشابهة لتلك « الاسرار » التأليفية التي أخرج لنا العالم الشرقي ألوانا عديدة منها تتجاوب مع تطلعه الصوفي الملح الى « الخلاص » وحياة الخلود بديار السعادة فيما وراء الحياة الدنيا بآلامها وهمومها الحقيرة •

واستند تفوقها على مثيلاتها من الديانات الى عاملين أساسيين : أصلها اليهودي الذي حفظها من اتخاذ الحلول الوسط السقيمة مع خرافات الاساطير الميثوليجية المنفرة للنفوس الرقيقة ؛ ثم الواقع الانساني لـ « السيد » فيها وتمجيده المحقق بشهادة الشهود ، مما ألبس ادعاءاتها ثوبا من اليقين العميق ومن الوضوح والدقة • وكانت ، بالاضافة الى ذلك ، أغنى وأبسط من ديانات الخلاص الاخرى • وقد جنبها تعصبها الشديد ــ وتلك ميزة أخرى ترجع الى أصولها اليهودية ــ جنبها التداخلات وألوان الامتزاج المختلفة التي تؤدي الى الانحراف عن الجوهر الاول ، ولكنه لم يمنعها من اقتراض العناصر التي يمكنها

تطويعها وهضمها في يسر وبساطة ؛ فكان في امكانها أن تأخذ ــ وقد أخذت فعلا ــ ما بدا لها من الافكار في سائر المجالات دون أن تعطي من نفسها مقابل ذلك شيئا يذكر •

ولكن المسيحية ، رغم كل ذلك ، ومهما بدا فيها من ابتكار وأصالة، أو من طبع المذاهب الاخرى التي طوعتها بطابعها الخاص ، لم تكن بالديانة الفريدة من نوعها ، بل لم تكن سوى صدى لتطلعات عصر وبيئة حققا آمالهما أيضا في غيرها من الديانات •

ونراها تستقر في ربوع العالم الهيلينستي بفضل « أمة المهجر » اليهودية ، فستفيد كل الاستفادة من امكانيات المعابد التبشيرية وتحول هذه الامكانيات لصالحها • ولكنها بذلك أيضا وجدت نفسها فجأة أمام الفكر الاغريقي في مواجهة انعقدت عليها كل الآمال الخاصة بتطورها ومستقبل انتشارها :

كان لها مثلا ، دون ما ضرر عليها ، أن تبادر في البدء الى معارضة « الحكمة الدنيوية » ــ تلك الحكمة التي ليست سوى « حماقة أمام الله » ــ فتواجهها بـ « غنوصيتها » ، أي : بمعرفتها الالهية المنزلة • بل كان من واجبها أن تصرح باحتقارها للفلسفة ، وأن لا تحيد قط عن هذا الموقف الحتمي لكل مذهب يدعو الى التقوى ، حتى تؤكد أنها تسمو عن الحياة الدنيا بحيث لا يلحق بها أو يضيرها أي تفكير انساني ، مهما بالغ أصحابه في الاجتهاد • ولكننا نؤكد هنا القول بأنها ، لو كانت قد تمسكت بأهداب هذا الموقف تمام التمسك ، ولو لم تكن قد سمحت لحكماء العصر ــ الذين وفدوا اليها في حماس صوفي ــ بأن يجلبوا معهم تقاليدهم الفكرية وأساليبهم الجدلية وتطلعاتهم العقائدية الجوهرية وحبهم الجم للنظريات الميتافيزيقية ، لما قدر لها أن تخرج عن نطاق الاوساط التي تقبلتها في بداية الامر ، ولعاشت عيشة دين للبائسين والبؤساء والمتحمسين الذين يبلغون في تحمسهم حد الهوس ، ولتلاشت منذ عهد بعيد ولطواها النسيان ولم يعد لها ذكر الا في كتب العلماء الباحثين •

الا أنه كان من حسن حظها أن نفس تشددها في التعصب قد أدى

الى تجنبها عقد الخوف من مخاطر مهادنة الاديان الاخرى • فنراها مثلا منذ القرن الثاني ترحب بالفلاسفة الذين يئسوا من الفلسفة الوثنية ، والذين ظلوا رغم ذلك على فلسفتهم ـ دون ادراك منهم ـ وعلى صبوتهم العميقة المتأصلة الى الميتافيزيقا ، فاعتبروا القضايا الاساسية من الغنوصية المسيحية موضوعات تأمل وتفكير نظري ، واندفعوا في هذا الاتجاه الذي لم يستطيعوا له مقاومة • وأرادوا لها أن تكون فلسفة ، فأصبحت فلسفة بفضلهم ••• فلسفة للكمال تنطوي على خير ما جاء في النظريات اللاهوتية والجمالية عند اليونان كما تضم الافكار الاساسية من نظرياتهم الخاصة بالكون • ولكن هذه العناصر المكتسبة الجديدة لم تؤد الى الغاء أي من العناصر الاخرى القديمة المستمدة من الديانات الشرقية ذات الاسرار ، تلك العناصر التي اندمجت في المسيحية اندماجا تاما بحيث بدت وكأنها جزء أصيل منها لا يتجزأ ، بل ، على العكس من ذلك ، نرى فقهاذكيا مرنا ـ تلعب فيه الرموز والصور البيانية دور البراهين المنطقية ـ يحاول أن ينسق بين كل العناصر ، الجديد منها والقديم ، هذا بينما كان البسطاء من الناس يجدون غذاءهم في النواحي العملية من العقيدة ، والحكماء تشرق في نفوسهم الجوانب الروحية منها اشراقا يزداد يوما بعد يوم •

وهكذا نشأ حلم عيسى الخاص بحلول مملكة الله بين رحاب أمة بني اسرائيل ، ثم مد في آفاقه ، فأصبح « سرا » من أسرار الخلاص الانساني ، وتطور بعد ذلك الى دين عظيم تتفاعل فيه كل تيارات الحياة الدينة الصوفية النابعة من الشرق وكل النظريات العقلية الوافدة من العالم اليوناني •

ولم يكن هذا العمل ـ الذي ساهم فيه مفكروا الاسكندرية بأكبر قسط وكان للفيلسوف أوريجين النصيب الاعظم في ارساء قواعده ـ لم يكن بالامر الهين السهل ، بل قامت في سبيله عقبات عديدة وتردد أصحابه كثيرا بين حلول متعارضة ومشاكل شائكة • ولكن الايمان الوسط المعتدل استطاع في جميع الاحوال ـ وهو المسيطر تماما على رمزية دينه ـ أن يتجنب المبالغات شيئا فشيئا ، وأن يقلل من التعارض بين

النظريات ، ثم أن يدعم ويقوي من القضايا الاساسية التي يجد فيها اشباعا لتطلعاته اللاهوتية . وثارت أزمات قاسية ، وبانت اختلافات مقلقة بين الآراء ، وقامت ألوان من الصراع العنيف الفاضح ، ولكن شيئا من ذلك لم يستطع أن يعوق من انتشار المسيحية ، لانها أصبحت النواة التي تتبلور حولها كل حياة وكل صبوة دينية تمتاز بشيء من الخصوبة ، ثم لأنها انتظمت في الكنيسة ، أي في هيئة منظمة ذات قانون وحكومة .

وفي نهاية القرن الرابع ، لم تكن المسيحية قد دخلت بعد في عهد كمال واستقرار الارثوذكسية، غير أنها ــ منذ ذلك الحين ــ كانت متمكنة تمام التمكن من مجموع العقائد ذات الشأن فيها ؛ كما كانت تعتمد على اطارات كنسية قوية ، وتسيطر في واقع الامور على سائر العالم الروماني. والحقيقة أنها كانت تجني ــ في كل ما يتعلق بالعقيدة ذاتها ــ ثمار قرون ثلاثة من الجدل في مختلف بلاد الشرق .

وكانت معتقداتها الاساسية التي عبر عنها فقهاؤها في نصوص أثارت مناقشات مطولة وظلت دائما مرنة وقابلة للتطور ــ كانت هذه المعتقدات تأتي الى أذهان الشرقيين بمعان تختلف في الوضوح والعمق باختلاف درجات الثقافة لديهم : معاني تتجاوب مع أفكار أو عواطف ، ولكنها ــ على أي حال ــ معاني « واقعية » . وقد سارت الامور على هذا المنوال في جميع المراحل التي مر بها تطورها . بل أن هذه الرقابة الدائمة التي تولتها عواطف وأفكار المؤمنين على العقائد كانت هي العامل الاول في تحديد اتجاهات هذا التطور نفسه وأثبات نتائجه .

بيد أن المجموعة العقائدية المسيحية كانت قد نبعت في بيئة معينة ومن أجل هذه البيئة . ولهذا كان لا بد لها من أن تظل غامضة ، بالغة الغموض ، بالنسبة الى رجال لم يهيئهم لتفهم هذه البيئة ما أنشئوا عليه من تكوين منطقي وعاطفي وما أوتوه من استعدادات طبيعية وما درجوا عليه من تقاليد فكرية . وكان هذا حال الغربيين بالنسبة الى المسيحية ، وان حظيت كنيستها لديهم بما نعرفه من نجاح لا مثيل له .

ولم يكن هؤلاء الغربيون بالذين خبروا كل مكتسبات الثقافة

الشرقية ؛ كما لم يكونوا ليدركوا الفكر الهيليني الا من خلال ترجمات تفتقر الى الكمال والانصاف • والاقلية القليلة منهم هم الذين استطاعوا ـ باستيعاب اللغة اليونانية تماما وبالاقامة سنين طويلة في الشرق ـ أن يكتسبوا لونا من العقلية الاغريقية • أما الاغلبية الغالبة فلم تكن ـ حتى بين أكثر الطوائف تدرجا في الثقافة ـ لتصل الى أكثر من مفهوم مقارب بعض القرب لمفاهيم العقلية الشرقية ؛ بل يمكن الجزم بأن الاكثرية الساحقة من الناس لم تكن لتصل الى شيء من هذا على الاطلاق ؛ فلغتهم نفسها ـ وكانت اللاتينية ـ لم تسعفها التعبيرات اللازمة لترجمة كل ما تنطوي عليه اليونانية من دقة وتدرج ورقة في المعاني • ثم ان النصوص المترجمة ـ أو ، على الاصح المطوعة تطويعا تقريبيا لمدركاتهم اللغوية ـ وصلت اليهم في صورة قضايا جامدة خلعت عنها أثواب المناقشات التي أدت الى تحديدها واثباتها • فلم يكونوا ليفهموها الا « جملة » ، ولم يكن لهم الا أن يقبلوها « دفعة واحدة » دون ما محاولة لتفسيرها •

لكل هذا نستطيع القول ـ دون أن تتهم بالبحث عن المتناقضات أو السير وراء كل غريب من الآراء ـ بأن الغربيين لم يفهموا العقائد المسيحية في العصور القديمة قط ، كما لم يصلوا الى ادراكها في العصور اللاحقة ؛ وأن الديانة التي أنشأوها على أساس منها ، باجتهادهم الخاص ، كانت ديانة مختلفة تمام الاختلاف في روحها وجوهرها ، عن المسيحية الشرقية ؛ ديانة مختلفة نبعت قبل كل شيء من رصيدهم الفكري والروحي ، متمشية مع عواطفهم ونزعاتهم ، وان صبت في قوالب تعبيرية لا توافقها تمام الموافقة •

« وخلاصة : فأن الغربيين لم يكونوا قط مسيحيين في يوم من الايام » [1] •

---

(١) سوف يدرس المؤلف في كتب لاحقة « مسيحية القرون الوسطى» ثم « المسيحية الحديثة » شارحا في تفصيل واف تطور المسيحية في الغرب •

الفهرست